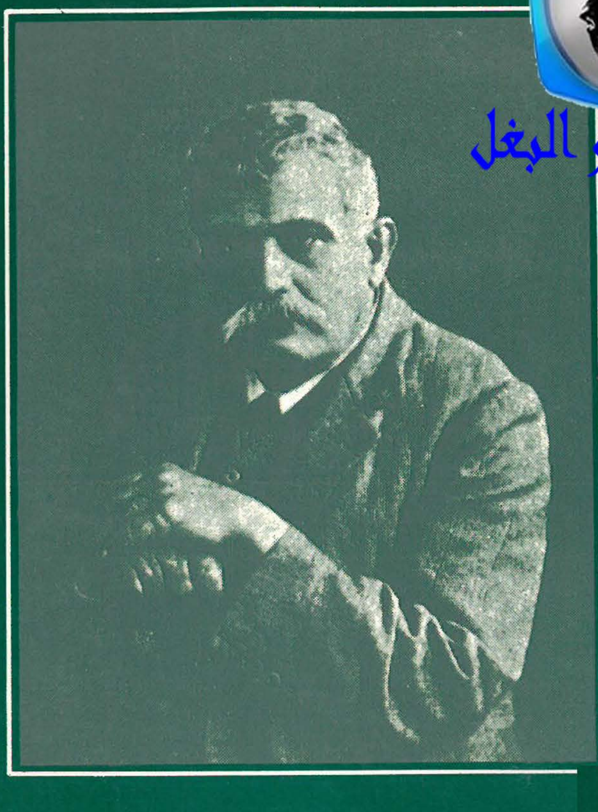
الدكتور شبلي شميّل

كتابات سياسيّة واصلاحيّة

جمع واعداد وتحقيق
الدكتور اسعد رزّوق



دار الحمراء

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩١

دار الحمراء للطباعة والنشر

رأس بيروت، شارع الكويت، بناية مكارم، الطابق الخامس، تلفون: ٨٠١٦٨٨

الدكتور شبلي شميّل

كتابات سياسيّة واصلاحيّة

جمع واعداد وتحقيق
الدكتور اسعد رزّوق

دار الحمراء

هذه الكتابات المختارة:

آراء الدكتور شبلي شميّل ومواقفه في السياسة والإصلاح

«كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك فإن لم يكن رأيه كل الصواب فلا تكن أنت كل الخطأ بتشبثك. وأقلّ ما في اطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق وبئس الناس إذا قسروا على الجبن والكذب».

تضمّ هذه المختارات من آراء الدكتور شبلي شميّل في السياسة والإصلاح مجموعة من الكتابات التي نشرت في حينه تبعاً للظروف التي أملتها وانسجاماً مع المواقف التي اتخذها صاحبها من شتى القضايا المتعلّقة بموضوع الإصلاح وارتقاء العمران في ممالك السلطنة العثمانية. وهي تتّسم بجرأة نادرة وصراحة غير مألوفة في ذلك الزمان، وبراعة في التحليل غير معهودة خلال العهد الحميدي، حيث استشرى الفساد ولجأ السلطان إلى بثّ الجواسيس والأرصاد، واشتدّت وطأة حكم الظلم والاستبداد.

ويمكن للقارىء تصنيف مقالات شميّل المُدْرَجة في هذا الكتاب وفقاً للموضوعات العامّة التي تعكس بدورها اهتمامات مفكّرنا ومواقفه الجريئة وآرائه التي جاهر بها في الاصلاح ونشر العلم وتحقيق الحريّة في كافة المجالات وإحلال المساواة في ممالك السلطنة بتحويل الرعايا إلى مواطنين يتمتّعون بالحقوق ويؤدّون الواجبات. وما كان ليتسنّى للدكتور شبلي شميّل ان يجاهر بآرائه وينشر كتاباته ويعلن مواقفه لو لم يكن مقيماً في مصر، حيث تمتّع «المهاجرون السوريون» (الشوام) بقدر بارز من الحريّة في التعبير من خلال مواقعهم في ميدان الصحافة والنشر.

وتعميماً للفائدة واسترشاداً بسهولة المأخذ، وآثرنا اعتماد التصنيف التالي حسب التالي حسب المواضيع التي جرى تناولها:

أولاً: سيادة الأمم واستلهام مبادىء الثورة الفرنسية
النشوء والارتقاء: سنّة الحياة ومبدأ العمران البشري

هنا تطالع القارىء مجموعة الأفكار الرائدة التي اقتبسها رجال النهضة الحديثة في بلادنا من خلال التأثير الذي مارسته افكار الثورة الفرنسيّة في المشرق العربي، كما في اوساط المفكرين الأحرار العثمانيين: من اديب اسحق وفرح انطون وجمال الدين الافغاني (الأسد أبادي) مروراً بجماعة «تركيا الفتاة»، لكي تبرز في اجلى مظاهرها في مواقف الدكتور شبلي شميل وآرائه.

ثانياً: العثمانيّة المستنيرة ودعوة اللاّمركزيّة الإدارية

تبرز في هذه المقالات والتعليقات مواقف إصلاحيّة على امتداد ثلاثة عقود من الزمن، تتخلّلها رسالة **شكوى وآمال** (١٨٩٦) وتليها كتابات شميّل بعد إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد وصولاً إلى تأسيس حزب اللاّمركزية الإداريّة العثماني في منزل الدكتور شميّل (١٩١٣) وتعليق شميّل على الوعود المقطوعة لأركان المؤتمر العربي في باريس (حزيران، ١٩١٣).

ثالثاً: كتابات إصلاحيّة في متصرفيّة جبل لبنان

تشمل هذه الكتابات مجموعة مختارة من تعليقات الدكتور شميّل على صفحات **الأهرام والمقطّم** وآرائه الجريئة في اصلاح شؤون متصرفيّة لبنان، وكذلك موقفه من مسألة ضمّ سهل البقاع إلى اراضي المتصرفيّة.

نكتفي بهذا القدر على سبيل تقديم هذه المختارات للقارىء، بوصفها شريحة توثيقيّة تمثّل خير تمثيل وأصدقه على آراء ومواقف الدكتور شميّل في السياسة والإصلاح. ولا يخفى على القارىء المتتبّع ان القسم الأكبر من هذه الكتابات ظلّ مجهولاً أو مغموراً طيلة عقود من السنين.

وعسى ان يكون التوفيق حليفنا في هذه المحاولة الأوليّة التي استغرق إعدادها عقوداً من السنين.

بيروت، ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠

أسعد رزوق

شكوى وآمال

١٨٩٦

* نَشَر الدكتور شميّل هذه الرسالة في ٢٠ آذار (مارس) ١٨٩٦. ولقد أعادت صحيفة المقطّم نشرها على حلقات في الأعداد التالية: ٨، ١٠، ١١ و١٢ و١٣ و١٤ آب (اغسطس)، ١٩٠٨. وذلك في أعقاب حركة «تركيا الفتاة» وإعلان الدستور العثماني.

وقدّمت الصحيفة للرسالة بالكلمة الآتية:

«كتب حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميّل رسالة وطبعها في ٢٠ مارس ١٨٩٦ ورفعها إلى الحضرة السلطانيّة آملاً أنه إذا اطّلع جلالته على ما فيها من الشكوى والآمال يأمر باصلاح الحال ويسير السلطنة العثمانية في سبيل الارتقاء والفلاح. فلقيت رسالته أجفاناً مغمضة وآذاناً مسدودة حتى حرّك قلوب ضباط الجيش فطلبوا الدستور والاصلاح وإلّا جرّدوا الحسام ففعل تهديدهم هذا في ثلاثة أيام ما لم تفعله الأقلام في عشرات الأعوام.

وقد استحسنّا نشر هذه الرسالة الآن لما فيها من العبرة لقوم والفائدة لآخرين وخصوصاً في هذه الأيام...»

شكوى وآمال

مرفوعة إلى جلالة السلطان المعظّم
عبدالحميد خان
٢٠ مارس (آذار) ١٨٩٦*

مولاي المعظّم

أتجاسر بأن أرفع إلى مقام جلالتكم السامي كتاباً يشرح لكم آمال الأمة ويبسط لكم ظلامتها، وأتوسل إليكم أيها السلطان المعظم أن تمعنوا النظر فيه لأنه صادر عن عبد مخلص لسلطانه حريص على وطنه عالم بأحوال أمّته. ولم استعمل أفواه الجرائد لبسط ما أريد أن أبسطه لديكم لأن قصدي ليس الانتقاد الجارح على ما صرنا إليه من الانحطاط ولا التشفّي بما صارت إليه المملكة من الضعف لإثارة الخواطر، وإنما قصدي الوحيد أن استلفت نظر جلالتكم إلى الأخطاء التي تتهدّد المملكة من داخل ومن خارج لتداركها ما دام الأمر في الإمكان. وألتمس العفو منكم أيها السلطان المعظم إذا أطلقت لقلمي الحريّة لأني فرضت على نفسي أن لا أقول إلّا الحق. وأعدّ نفسي سعيداً إذا حملتم كلامي على الاخلاص ونظرتم إليه بعين الرضى، وفي الغاية من السعادة إذا علمت أني قمت بالخدمة التي تفرضها عليّ واجباتي نحو سلطاني وبلادي.

مولاي

ليس من ينكر أن الأمة العثمانية قد تقهقرت جداً في حين أن الأمم الأخرى بلغت شأواً بعيداً في الرفعة وهي ليست أعظم منها استعداداً طبيعياً وأن المملكة صائرة إلى التلاشي في حين أن الممالك الأخرى بلغت الغاية في القوة وهي ليست أعظم منها في موقعها الطبيعي. وأي أمّة أقوم تكويناً من الشعوب المؤلفة منها الأمة العثمانية، بل أي موقع أعظم من موقع مملكة آل عثمان فهي في وسط الممالك كالقلب في الجسم، بل أي موقع أعظم من موقع الاستانة عاصمة الممالك العثمانية. فإني أذكر يوم زرت هذه العاصمة من عهد سبع عشرة سنة [١٨٧٩] اني لفرط ما أعجبت بموقعها البديع المشرف على أوروبا وآسيا معاً كتبت إلى إحدى جرائد مصر أصفها لها بقولي: «فكأن الطبيعة قد أعدت الاستانة لأن تكون يوماً ما عاصمة الدنيا تمدّ يدها اليمنى فتقبض

على الشرق واليسرى فتقبض على الغـرب». فما هـو يا تـرى السبب الذي يحـول بيننا وبين بلوغ هذه الأمنية. بل ما هو السبب الذي لأجله لم نستطع أن نحافظ على مركزنا أمـام الدول الأخـرى. بل مـا هو السبب الـذي لأجله هي آخـذة في الارتفـاع ونحن آخذون في الانحطاط.

ولا يجوز أن يكون السبب في طبائع السكان أنفسهم، فهم أقوام أصحّاء أشدّاء أذكياء لا ينقصهم شيء من الصفات الطبيعيّة التي يمتاز بها الأقوام المتمدنون البالغـون من التمـدّن أقصاه. وقـد شهد لهم التـاريخ في المـاضي بأنهم كـانـوا في طليعـة الأمم العريقة في الحضارة بل حالة الأمم التي انفصلت عنا من عهد خمسـين سنة إلى اليـوم دليل واضح على صحة ما نقول، كـأمّة اليـونان والصـرب والبلغار من الشعـوب التي كـانت خاضعـة لنا ولم نستـطع حفظهـا. ولا في طبيعة البـلاد، فأرضهـا جيّـدة كثيـرة الخصب وهواؤها معتدل وماؤها صحيح عذب وأمطارها غزيرة وبردهـا ليس بالقـارس وحرّها ليس بالمحرق ـ صفات طبيعيّة كلها صالحـة لنجاح البشر في العمـران. ولا هو في تغلّب دين عـلى دين كما يـذهـب بعض المتحاملين من المؤرّخـين. فقـد رأينـا هؤلاء الشعوب تحت راية الاسلام سائدين على أكـثر المعمورة من أقـاصي الشرق إلى أقـاصي الغرب بالغين من المجد أقصاه.

وإذا بحثنا عن أسباب نجاح الأمم الاسلاميّة في العصور الخالية رأيناها بسيـطة جداً صادرة عن اهتمام الملوك بحماية العلم وإقامة العدل وتقرّبهم من الرعية وتنازلهم لسماع نصيحة رعـاياهم ولـو أنهم من عامـة الشعب. بل لـو بحثنا عن نجـاح الدول المعـاصرة من أهـل أوروبا وبلوغهم الغـاية القصـوى من الحضـارة بعـد أن كـانـوا في ظلمات بعضها فوق بعض من الجهل، لرأينا أن ذلك لم يتيّـر لهم إلاّ بعد أن انصرف همّهم لاعلاء منار العلم والعدل واشتراكهم مع الأمة في الأحكام واطلاقهم الحريّة لها لتنطق بالشكوى وتشير إلى الإصلاح حتى أصبحت أمم أوروبا اليوم لا تبارى في المجد ودولها لا تطاول في العزّة. قلت إذا بحثنا عن أسباب ذلك فيهم وقابلناه بمـا نعلم عن حقيقة أحوالنا، ظهرت لنا أسباب رفعتهم وانحطاطنا وتقدّمهم وتأخرنا.

مولاي

إن سبب تأخرنا وتداعي الملك هو فقدان العلم والعـدل والحرّيـة من المملكة. أركان ثلاثة من دونها لا يعتزّ ملك ولا تسود أمّة إذ لا عدل من دون حرّية ولا علم من دون عـدل وإذا فُقد العلم لم تبقَ قـوّة لأن القوّة متـوقّفة عـلى الثروة. ومصـادر الثروة ثلاثة: الزراعة والتجارة والصناعة، وهي متوقّفة في نجاحها على العلم.

ونريد الحريّة تلك الملَكة الطبيعيّة التي لم يحرم منهـا حيوان والمـودعة في الانسـان

من أصل الفطرة والتي تخوّله حق الشكوى من جوع أو ألم ولا تمنعه من أن يبدي ر أيه استحساناً أو استهجاناً. فإذا نظرنا إلى حالة البلاد من هذا القبيل وجدنا هذه الحريّة مسلوبة ولا يجسر أحد أن يشكو ألمه كعضو من أعضاء الهيئة المحكومة التي هي جسمه، وإذا شكا لم يسمع بل ربما نزل به الهوان ليكون عبرة لسواه. وكيف يصحّ الجسم، بل كيف يمكن مداواته إذا لم تُعلم علل أعضائه. والطبيب مهما كان حاذقاً لا يتمكن من تشخيص الداء لوصف الدواء إن لم يصغِ إلى شكوى مريضه وإذا حاول معالجته اكتفاءً بعلمه عجباً واستبداداً لا يأمن العثار فيؤدي به إلى البوار.

فإذا سلبت هذه الحرّية من أمّة امتنع العدل **أولاً** لعدم معرفة مواضع الخَلَل. لعدم الاصغاء إلى شكوى الأمّة. فيقع الخلط من الحاكم فيتخبّط في أمور الرعية تخبّط العشواء في الليلة الظلماء. **وثانياً** لإنفراد الحاكم وأمنه من مراقبة الأمّة له يقوى به التشيع مهما كان عادلاً. والنفوس إذا خامرها تشيّع كان ذلك التشيّع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد فيقع الظلم. والظلم مرتعه وخيم لأنه يؤثر في أخلاق الأمة تأثيراً ردياً فتذلّ منها النفوس وتنحطّ الهمم ويستحكم الرياء ويفشو الكذب لأن الرياء والكذب سلاح العائش في الظلم الذي ليس له حرية أن يرفع صوتاً بالشكوى. وأبعد الناس حينئذٍ عن معرفة الحقيقة هم الملوك لتقرّب الناس منهم بالكذب في موضع الصدق وبالإطراء في موضع التنديد إمّا خوفاً منهم أو طمعاً فيهم لأن الناس متطلّعون إلى الدنيا من جاهٍ أو ثروة والنفوس مولعة بحبّ الثناء.

وإذا انتفى العدل وساد الظلم فلا جرم ينطفيء نور العلم، لأن الأمة إذا هبطت نفوسها إلى هذا الحد انصرفت عن القيام بالأعمال الجليلة واستغرقت في الجهل فلا تعود تفهم للتعاون معنىً في العمران ولا يعود للوطن عندها شأن وتصبح حياتها فرديّة لا اجتماعيّة فتنفصم عرى اتحادها وتكثر الفتن بينها وتنقسم المملكة إلى حاكم يخاف الأمّة فيضيّق عليها وأمّة تهابه فتتربص الفرص للإيقاع به. وإذا كانت الأمّة مؤلّفة من أديان مختلفة فهناك الطامة الكبرى لأن الجهل يثير نار التعصب فيها وينسيها جامعتها الوطنيّة ويبعثها على تمزيق شملها بأيديها. ولو كانت مستضيئة بنور العلم عارفة بما لها وما عليها لما كان شيء من ذلك ولعاشت آمنة متفقة في الحياة الدنيا على غاية واحدة هي تعزيز جامعتها باكتساب الثروة والقوة من مصادرها لصيانة وطنها من تعدّي الطامعين به لعلمها أن الذي ينفعها ويصون كرامتها هو حفظ استقلالها ناظرة إلى الدين كصيغة يتّخذها من شاء بالنظر إلى معاده لا إلى دنياه.

وبالحقيقة ماذا يهمّنا إذا ذهب زيد إلى الجنة وعمرو إلى النار ما دمنا ناعمي البال نعدّ أنفسنا من أهل النعيم. وإذا بلغ منا حبّ الإنسانيّة مبلغاً يحملنا على الاشفاق على

أبناء جنسنا حتى في معادهم فليس لنا إلاّ أن نبيّن لهم ذلك بالحسنى، فإن قبلوا فلهم وإن أبوا فعليهم. ولم يُسمع أن الناس يثيرون الفتن بينهم ويدعون بعضهم بعضاً بالسيف لمشاركتهم في نعيم إلاّ في الدين. هذا ما يدركه الانسان بالعلم الصحيح فلو لم يكن في العلم إلاّ إزالة التعصب الديني وتقريب الناس بعضهم من بعض لَكَفى به مرشداً. فكيف به وهو قوّة الإنسان في العمران.

جاء في الأمثال أن لويس الرابع عشر [١٦٤٣ ـ ١٧١٥] كان كبيراً بوزرائه ولويس السادس عشر [١٧٥٤ ـ ١٧٩٣] كان صغيراً بوزرائه. الأول شاد لفرنسا ذكراً عظيماً بتنشيط العلوم والصنائع اعترافاً بما للعلم من الشأن في ترقية الأمم حتى عمّ فضله المسكونة كلها وحتى أن فولتير الشهير الذي لم يكن من مذهبه تضحية الجمهور للأفراد كتب تاريخ ذلك العصر وأطلق عليه اسم: **تاريخ لويس الرابع عشر** وكأنه خشي الاعتراض عليه ممن عرف مبدأه فكتب في مقدّمة كتابه إلى اللورد هارفي كاتم أسرار انكلترا يعتذر عن تسميته تاريخ القرن الذي عاش فيه هذا الملك بقرن لويس الرابع عشر. قال:

«فأي ملك أفاد الجنس البشري أكثر من لويس الرابع عشر. لا شك أنه لم يصنع كل ما كان يستطيعه لأنه بشر وإنما صنع أكثر من كل أحد سواه لأنه رجل عظيم... وأكبر سبب عندي لعظم اعتباره هو أنه مع ارتكابه أغلاطاً معلومة أشهر من كل معاصريه ومع أنه كان سبباً لحرمان فرنسا مليوناً من رجالها فكل أوروبا تعتبره وترفعه إلى مقام أعظم الملوك وأرفعهم. فسمّ لي سلطاناً اجتذب إليه الحذّاق من الأجانب ونشط أولي الفضل في رعاياه مثله، فإنه كافأ دفعة واحدة ستين عالماً في أوروبا على غير انتظارهم أن يكونوا معروفين عنده، وقد كتب إليهم وزيره كوبرت [Colbert] يقول لهم: إن الملك وإن لم يكن ملككم إلاّ أنه يريد أن يكون محسناً إليكم وقد أمرني أن أبعث إليكم بالمال الواصل لكم كعلامة على اعتباره إياكم. وكان في جملة من وصل إليهم من هذه الرسالات المؤرخة في فرسالية عالم بوهيمي وآخر دانوازي وقد بنى جو جليان بيتاً في فلورانسة من انعامات لويس الرابع عشر ونقش على بابه اسم هذا الملك. فكيف لا تريد أن يكون على رأس القرن الذي أتكلّم عنه؟»

ولا ريب أن لويس الرابع عشر لو لم يكن محاطاً برجال من ذوي العقول الثاقبة والآراء الصائبة لم يتيّسر له أن يصنع ما صنع ولا أن يكتسب ثناء التاريخ. كما أن ضعف لويس السادس عشر وما آلت إليه فرنسا في تلك الأيام من الثورة التي أقامت أوروبا على قدم وساق مدّة عشرين سنة لم يكن ناتجاً إلاّ من جهل وزرائه وفساد

آرائهم. وإلاَّ لو كانوا من الرجال الأكفاء، لنالت الأمة مطالبها الحقة من دون إراقة تلك الدماء الغزيرة وتخريب المعمورة مدّة ربع قرن.

عفوك أيها السلطان المعظم، اني لم آتِ بكل هذه المقدمات المستفادة من تواريخ الأمم ودرس نواميس نشوئها انذاراً وتذكيراً إلَّا حرصاً على عرشكم أن ينقضي وعلى حياة مولانا السلطان أن تمسّ بسوء، وعلى الأمم المستظلة باللواء العثماني أن تتبدّد. والخوف من ذلك ليس مبالغاً فيه، فإن من تأمَّل أحوال المملكة وما آلت إليه من الضعف وما يتنازعها بسبب ذلك من عوامل الشقاق من داخل والطمع من خارج، يحكم بأن الحال اذا استمرت على هذا المنوال لا يطول بنا الأمر حتى نرى بأعيننا هذه العاقبة الوخيمة. ولا يخدعنّكم أيها السلطان المعظم ما تسمعونه من الاطراء وما تقرأونه من المدح ووصف الحالة على غير حقيقتها من أناس ضربت أغراضهم على أبصارهم حجاباً فهم لا يبصرون فيصوّرون لنا المملكة بحال من السعادة تكاد الملائكة تحسدنا عليها: العدل ناشرٌ لواءَه في الاصقاع والأمن شامل للعموم والعلم ضارب أطنابه في البلاد والصناعة والتجارة والزراعة بالغة الغاية القصوى من النجاح والمال متوفّر في خزائننا وجيوشنا مظفّرة تدوّخ الاقطار واساطيلنا معزّزة تمخض في عرض البحار ولا ينقصنا إلَّا أن نردد آناء الليل وأطراف النهار: الحمد لله على ما أوتينا من النعم الغزار.

مولاي

إن ذلك كذب شنيع. وهل يجوز للإنسان أن يكذب على نفسه إلى هذا الحد. ألا تعلم أن خزائننا فارغة وجيوشنا عراة وأساطيلنا محطمة وقلاعنا مهدّمة والعدل مفقود والأمن مسلوب والتعصّب المفرّق بين الملل سائد لقلّة العلم وانتشار الجهل وتجارتنا بائرة وصناعتنا... وأين هي... حتى صرنا في الوجود أمّة مستلحقة لا مستقلّة لا نُحسن نسيج ثوب أو صنع إبرة ولولا فضل أوروبا علينا لمتنا جوعاً وعرياً، بل لولا اختلاف مصالحها فيما بينها لما أبقوا علينا يوماً واحداً. فمثل هذا المركز نحسد عليه أم مثل هذه الحالة تعتبر سعادة!؟

وأين المبالغة في هذا الخوف. ألم تخسر العثمانية أكثر من ثلث شعوبها في أقل من خُمس قرن، أم هل نسينا الثورة الأخيرة التي لم تخمد إلَّا كما تخبو النار تحت الرماد التي كادت تقضي على السلطنة والمملكة وتصلي الحرب في العالم قاطبة. ولا تشيّع بعض الدول لنا على البعض وتهيّب بعضها من بعض وقد علّمنا التاريخ ماذا يكلّفنا هذا التشيّع. فإن تشيّع انكلترا لنا على الروسية في الماضي كلّفنا التفرغ عن قبرص ومصر فوق ما خسرنا من أملاكنا في أوروبا. ومن يدري ماذا يكلفنا تشيّع روسيا لنا

اليوم على انكلترا. بل من يضمن لنا انّا في المستقبل القريب لا نحتاج إلى مساعدة دولة أخرى تقينا مطامع روسيا عدوّتنا القديمة وصديقتنا اليوم فتقترح علينا جزاء تشيّعها لنا ما لا نستطيع إلاّ أن نسلّم لها به صاغرين شأن الضعيف مع القوي حتى تبتر جميع أطراف المملكة ونحن غافلون.

مولاي

إن الأمة عالمة بذلك كله ونبهاءها متألمون من هذه الحالة وأوروبا ناظرة إلينا ساخرة بنا من غفلتنا متربّصة لسلبنا ملكنا قطعة قطعة. فإلى متى نخدع أنفسنا بالمحال ونتوغل في فيافي الضلال ولا نصغي لنصيحة المخلصين منا ونبادر إلى الاصلاح المطلوب قبل أن يفوت الفوت وتبلغ ثورة الخواطر مبلغاً لا تؤمن معه العواقب، لأن ثورة الخواطر البادية الآن لا يمكن أن تردّ إلى الوراء وستمتد شعلتها في الأمّة بسرعة غريبة يقدّرها حقّها كل من له إلمام بتاريخ نشوء الأمم في العمران واتحاد المطالبين بالاصلاح اليوم من نبهاء المسلمين وغير المسلمين وقيامهم كلهم بصوت واحد ضد نظام الأحكام دليل على أن هذا الاتحاد لا يلبث أن يشمل الأمّة كلها على اختلاف أديانها. أقول ذلك دفعاً لوهم اولئك الذين يعلّلون أنفسهم بالمحال فيقولون إن القائمين بالثورة أناس غرباء عن دين الاسلام يريدون إضعاف حجتهم وإحباط مساعيهم. ولا أنكر أن أفراد الأمة غير متساوين جميعهم في الإدراك وانه لا يزال فيها أقوام غارقون في ظلمات الجهل يجوز عليهم مثل هذا الزعم بل اني مقتنع بأن الذي قمع الفتنة الأخيرة ليس تشيّع روسيا لنا وحدها لأن تشيّع الدول الغريبة لا يقينا إلاّ من مطامع الغريب ولا يستطيع أن يخمد نار الثورة في البلاد وإذا كانت العناصر كلها متفقة عليها بصوت واحد ويد الله مع الجماعة. بل أنا متيقن أن الذي أخمدها إنما هو اتخاذ الحكومة من الأمة سلاحاً ضد الأمة فأوهمت أن الفتنة عبارة عن قيام ملّة من الملل على ملّة أخرى فقمعت الثورة بعنصر الدين ولكنها لم تخمد إلاّ إلى حين، إذ الخاصة من الأمة من مسلمين وغيرهم يعلمون ان الثورة لم تُسبب من تفرّق الأديان بل أسبابها ما نزل بالأمة من سوء تصرف الحكام وفساد نظام الأحكام. ولا شيء أسهل من انقياد العامّة لخاصتهم خصوصاً إذا دعتهم خاصتهم إلى ما به مصلحتهم وأبانت لهم أسباب مصائبهم وإلاّ فماذا يمنع اجتماع شعوب مختلفين يدينون بأديان مختلفة تحت راية واحدة هي من غير دينهم إذا كانوا تحت ظل هذه الراية آمنين على حياتهم وأموالهم وأعراضهم وكانت رايتهم تسعى لتعزيزهم أمام الأمم الأخرى. والانسان لا يترك وطنه أو يحتمي تحت ظل راية غير راية دولته إلاّ مضطراً فراراً من الظلم. وإلاّ فإن الانسان مولع من أصل الفطرة بحب الوطن. فهو لا يريد به بديلاً لأنه يرى نفسه في بلاده وأرضه أعزّ منه في بلاد لا يُعدّ فيها إلاّ غريباً. أَلَعَلَكم

تصدّقون ما يقوله لكم المضلّلون أن نُبَهاء الأمة المطالبين بالاصلاح والمنبّهين إلى الخلل هم قوم خائنون عاملون على إتلاف حياة السلطان إلى ما شاكل ذلك من الأضاليل. لا يا مولاي، إن هؤلاء الأفراد الذين حملهم حب وطنهم على أن يجاهروا بالنصيحة مخاطرين بحياتهم تاركين مصالحهم متغربين عن وطنهم هم قوم محبّون لسلطانهم حريصون على بلادهم شديدو الأنفة على استقلالهم ولو كانوا غير ذلك لما ركبوا متن المشقات وقاموا ينبهون ويحذّرون بل كانوا تركوا المياه تجري في مجاريها لأنه لا شيء ادعى إلى الخراب العاجل من الاستمرار على الحالة الحاضرة والماضي دليل المستقبل.

وكيف يكونون خائنين ألا يقولون الحق إذ يقولون لنا إن المملكة في خطر من داخل ومن خارج ويبينون إلى مواضع الخلل ويشيرون إلى الاصلاح ويحذروننا من سوء العقبى. أم انحطّ الصدق في المملكة العثمانية إلى هذا الحد حتى صار الناطق به يعد خائناً، بل لو كانت لهم مطامع غير الاصلاح الذي يرفع شأن الأمة والسلطان لسموا إليها من أقرب الطرق واقتدوا بتلك الطائفة البذيئة المنتشرة في أطراف المملكة والمالئة الاستانة حتى أصبحت بها عاصمة الممالك العثمانية أشبه شيء بمغارة لصوص لا يأمن الانسان فيها على نفسه طرفة عين وحتى صار بسببها يخاف من جدران بيته وحققت المثل القائل: «إن للحيطان آذاناً» ويا ليتها تنقل ما تسمع ولكنها تخلق كل يوم أخباراً ما انزل الله بها من سلطان وتفتري بها على عباد الله ظلماً وعدواناً وتدعي اكتشاف مكائد لا أصل لها إلاّ في خسّة طباعها ولؤم أخلاقها وجشعها في مطامعها وسخرها ببلادها وسلطانها، أعني بها دولة الجواسيس المفرّقة بين الأمة والسلطان والمقلقة راحته بما تجسّمه له من الأوهام والتي هي اليوم في إبان صولتها.

وما أدراك ما الجواسيس. قوم أدنياء أخسّاء، «لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلاّ وفي يده من نتنها عود»: كاذبون، منافقون لا يحجمون عن ارتكاب كل منكر لقضاء أغراضهم. وإنه ليكبر جداً على أصحاب النفوس الأبية أن يروا كثيرين من هؤلاء المفسدين العادمي كل الصفات النبيلة التي يمتاز بها رجال العلم والفضل والمروءة قابضين على مصالح البلاد. ورجال الفضل والنبل مخذولين مطرودين كأن المثل القائل: «ذكاء المرء محسوب عليه»، إنما قيل في رجال المملكة العثمانية. مإذا تكون لعمري حالة أمة بل حالة مملكة بل حالة سلطان بيد هؤلاء القوم الخائنين. والملوك الذين يظنون أنهم يطلّعون بهذه الواسطة على أفكار الأمة ويأمنون على أنفسهم منها هم في ضلال مبين لا يطلعون إلاّ على أكاذيب وأوهام ولا يجنون إلاّ تعرّضاً للبغضة والمخاوف، لأن الأمة من شدة خوفها لا تبوح بشيء من سرائرها، بالضد من ذلك تربي الضغائن في قلوبها على سلطانها لتسليطه عليها هذه الآفة الشريرة حتى إذا بدت لها فرصة أخذت بثأرها بخلاف ما لو كانت أمينة على نفسها ولا تخاف وشايات

الكاذبين وسعايات المنافقين أعني لو كان سلطانها لا يزيد هؤلاء القوم قحّة وجرأة باصغائه لترّهاتهم. فإنها تنشأ على الحرية وتبالغ في حب سلطانها الذي رفع فيها شأن هذه المزية ولا يصعب على السلطان حينئذٍ ان يطلع على ضمائرها ويقف على حقيقة أحوالها منها هي نفسها. ولا أفهم سر الحكمة في بثّ العيون والأرصاد على الأمة واعتبار الملك لها كأنها عدوة له. ولماذا ملوك أوروبا لا يعاملون رعاياهم هذه المعاملة. فلماذا لا نتخذهم مثالاً ونحذو حذوهم في كل شيء. أليسوا هم ورعاياهم أسعد منا حالاً وأنعم بالاً.

مولاي

إن الاصلاح الذي يطالبكم به نبهاء الأمة اليوم ليس بالأمر العسير ولا شيء سواه يتكفل بحفظ عرشكم وصيانة ما تبقى من المملكة ويقصي عنكم المخاوف التي تقلق راحتكم ليل نهار وتمنعكم من أن تظهروا للأمة بمجلاكم الباهر وتحملكم على المبالغة في التحجب. والأمة اليوم مع كثرة شكواها تميل إلى أن تلقي تبعة الحالة الحاضرة على نظام الأحكام. فمن الحكمة الاصغاء لها قبل أن يبلغ السأم منها مبلغاً يحملها على إلقاء تبعة ذلك كله على شخص جلالتكم وبئس المصير. والإصلاح إنما يكون باصلاح شؤوننا الداخلية إصلاحاً حقيقياً بالفعل لا بالقول، وذلك:

● بنشر العلم في البلاد على اسلوب يقرب بين طوائف الأمة حتى تصبح كلها قلباً واحداً في محبة الوطن والسلطان.

● وبأن تنظروا إلى أبناء الوطن كأنهم شعب واحد بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم.

● وبإقامة العدل بين الناس حتى يتساوى الجميع ولا يكون لطائفة نفوذ على أخرى لعلّة دين أو مذهب، ولا لفئة من الناس ظهور على فئة أخرى لثروة أو جاه.

● وبصيانة مصالح الأمة حتى ينشأ فيهم حب الإقدام على الأعمال وتكثر بينهم الشركات الوطنية لإصلاح مصادر ثروتنا.

● وبضبط مصالح الحكومة لتسير على محور العدل ويقوى بها الملك فلا يستبد العامل بها ويستخدمها لقضاء أغراضه ويصرف الأموال المرتبة لها لمنفعته الخصوصية كما هو جار اليوم.

وهذا هو بالحقيقة سبب اختلال كل مصالح الحكومة كالحربية والبحرية والمعارف والنافعة التي هي اليوم في المملكة أثر من الآثار الدارسة أو هي حبر على

ورق مع أن المال المرتب لها غير قليل وإنما أكثره يذهب في غير سبيله لأن المتولين نظام الأحكام نظراً لأمنهم من المراقبة على أعمالهم يستأثرون بهذه الأموال من العامل الكبير إلى العامل الصغير، فلا يسلم من طمعهم إلاّ القليل الذي لا يفي بالحاجة. والضرر من ذلك يقع على المصلحة والشعب جميعاً. أما على المصلحة فلأن المال الباقي والمنصرف في سبيل احتياجات المصلحة لا يكفي. وأما على الشعب فلأن جباة الأموال من كبيرهم إلى صغيرهم لا يرسلون إلى الخزينة المال المطلوب فلا بد أن يكونوا قد تقاضوه من الرعية أضعافاً لأن كل عامل يصانع مَن فوقه ليتمكن من ظلم مَن دونه واحراز جانب من المال له.

ولا يصلح فساد الأحكام ويقوم اعوجاج الحكام إلاّ بأمرين جوهريين قد طبق صداهما الآذان وجلالتكم تنظرون إليهما نظرة الواجف الكاره ولو تأملتموهما جيداً لعرفتم حقيقة انها ضمانة عرشكم وضمانة المملكة. **أحدهما أن تطلق الحرية للأمة لتنطق بالشكوى وتشير إلى الاصلاح** لمعرفة أحوالنا كما هي حقيقة لا كما يمثلها لنا نفر من أصحاب الأغراض يصورونها كما يريدون. والسبيل إلى ذلك اليوم سهل جداً إذا علمنا أن وسائل التعبير عن الأفكار قد بلغت في هذا العصر مبلغاً عظيماً لانتشار الطباعة واتقانها فصار الانسان يستطيع أن يعلم أخبار العالم وهو جالس في بيته ويطلع على فكر زيد ورأي عمر من دون أن يكلف نفسه الذهاب إليهما أو يكلفهما المجيء إليه. ولو كانت هذه الطريقة متوفرة في أيام الخلفاء الراشدين لاستغنوا بها عن التخفي والطواف بأنفسهم بين الناس ليطّلعوا على أحوالهم ويقفوا على أفكارهم ليحسنوا الحكم فيهم وعليهم، إذ بهذه الواسطة لا بواسطة الجواسيس يسهل على الملوك الاطلاع على أحوال الأمة بلسان الأمة نفسها فلا تستطيع بطانتهم أن تخدعهم بإبلاغهم ما تريد وحجبها عنهم ما لا تريد. ولو لم يكن في حرية الجرائد إلاّ هذه المزية فقط لكفت وحدها أن تجعل الملوك من تلقاء أنفسهم يستمسكون بها قبل الرعية لأنها هي التي تهديهم إلى الصواب وتوقفهم على الواقع وتقيهم من الانخداع. ولعل جلالتكم إذا تأملتم ذلك جيداً زال منكم خوفكم الموهوم من الجرائد واطلقتم لها الحرية.

فحرية المطبوعات وخصوصاً الجرائد لا تحصى فوائدها للأمة المنتشرة بينها في العلم والآداب والسياسة. فهي التي رفعت اليوم شأن ممالك أوروبا وشأن ملوكها وجعلتهم أمنع من عقاب الجو وأعز من جبهة الأسد وجعلت الأمة التي بلغت فيها هذه الحرية الغاية القصوى أعظم الأمم. فإنها من الجهة الواحدة مدرسة تنير الأذهان وتسهل نشر العلم وتنبه عن الخطأ وتهدي إلى الصواب وتقي من الزلل وترفع شأن الأمة وتسهل لنوابغها سبل الارتقاء وتجمع القول على محبة الوطن والسلطان. ومن

الجهة الأخرى هي واسطة لبث شكاوى الأمة وبسط رغائبها وإبلاغها إلى المقام الأعلى من دون أن يخامرهـا غش ورقيب على عمـال السلطان يحملهم على السلوك في الجـادة المثلى والحكم في الناس بالقسط والعدل ورفع شأن السلطان. ولا يقـدح في ما لهـا من هذه المنافع ما قـد ترتكبـه من التهور أحيـاناً فـإن لها من نفسهـا معدلاً يتكفـل بإقـرار الاشياء في مراكزها بل لو كانت حريتها ممنوحة لها من سلطانها لا مغتصبة لم يخش منها ذلك.

فإن شئتم أيها السلطان المعظم أن تأمنـوا غائلة حقـد الأمة وأن تعـرفوا أحـوالها للحكم فيها بالعدل والقسط فعليكم بإطلاق الحرية لجرائدها. وإلاَّ فكلما ضيَّقتم عـلى المطبوعات فتَحتم للأمة سبيلاً لزيادة الشكوى ولنسبة ما يقع عليهـا من الظلم إليكم، وزدتم الجرائد الثائرة حدَّة ولهجتها شدَّة ضدكم وعـددها اليـوم ليس بقليل، فهي مـا بين مصر وأوروبا تزيد على الخمسين يقرأها ألوف عديدة من رعاياكم بين السـر والجهر فضلاً عن الملايين من أهل أوروبا الذين يعلمون حالنا ولا يراعون لنا حرمة في كشف مساوئنا. ولا يخفى ما لنشر مثل هـذه الأمور من الأثـر السيىء في النفوس لحكـومتكم ولشخصكم وسيـزيد هـذا العدد كثيـراً لأن ما تنشـره كل يـوم بين النـاس ينبههم إلى حقوقهم ويزيـدهم جرأة عـلى المطالبـة بها خصـوصاً إذا علمـوا أن الحكومـة وسلطانها المطلوب منهم صون هذه الحقوق هم المغتصبون لها. ولو أطلقتم لها الحـرية لاعتـدلت في لهجتها وعوضاً عن التنديد والتقريع مع التطاول على مقـامكم السامي كـانت تجعل همهـا التنبيه إلى مـواضع الخلل مـع الاجلال والـوقار لشخصكم المعـظم ولا سيـما إذا رأتكم تصغون إلى تنبيهاتها وتصلحون الخلل. فالجرائد الحرة إذا كانت حريتها ممنوحـة لهـا من سلطانها ونظام أحكـامها تكـون شكيمة لـلأمة تمنعهـا من التطاول عـلى مقـام السلطان وشكيمة لعمال السلطان تمنعهم من الاستبداد بأموال الأمة وتشويش العلائق بينها وبين مليكها. فإذا كان هذا البيان لا يكفي لإقناع الملوك والسـلاطين بمزية الجرائد الحرة وحسن نتيجتها لهم وللأمة التي يحكمونها مع ما يرونه بالاختبـار من حسن نتيجة ذلك في الممالك المجاورة، فلا لوم على الأمة حينئـذٍ إذا حاولت إقنـاعهم ببرهـان أشد وقعاً من الكلام تحزن منه الأصدقاء وتُسر به الأعداء.

والجرائد العثمانية السياسية اليوم ثلاثة أقسام: جـرائد مضللة وجـرائد معتـدلة وجرائد ثائرة. **فالأولى** تقرأ فيها أخبار السنـد والهند والعـالم الحقيقي والوهمي ولا يقـرأ فيها شي عن أحوال المملكة إلاَّ ما به إطراء كاذب على الحـالة الحـاضرة. فتصـور لك البلاد في نعيم ما بعده نعيم وهي لسؤ البخت الجرائد الحائزة لرضى الحكـومة لا تفيـد السلطان علماً بـأحوال الأمـة ولا تضع حـداً لعمـالـه عن التمـادي في غيّهم بـل ربمـا اتخذوها ذريعة لستر مساوئهم والتوغل في الاستبداد والظلم وأبواقـاً للتبويق بمـدحهم.

فهي من الجهة الواحدة مضللة للحكام مغـررة بهم، ومن الجهة الأخـرى منفرة لـلأمة على ضد ذلك. فيدفعهم نفورهم منها إلى الثـورة والخروج عن حـد الاعتدال. وأكـثر هذه الجرائد في الاستانة وسوريا وفي سائر الممالك العثمانية.

والثـانية جـرائـد حَـريـة بـأن يُصغى إليهـا ويُعَّـول عليهـا لأنها تنبـه إلى الخلل لإصلاحه من أوجهه بالحسنى ملقية تبعة ذلك على نـظام الأحكام طـالبة إصـلاحه من الحكـام أنفسهم غير ملتمسـة له عـذراً يهبط بها إلى حضيض التـذلـل تـزلفـاً لأربـاب المناصب وهي أقرب إلى الجرائد الثائرة ويخشى أن تنضم إليها إذا لم تصلح الحال.

والثالثة جرائد أخرجها تضليل المضللين مع التمسك بالحالة الحـاضرة عن حـد الاعتدال فدفعها إلى التنديد بنظام الأحكام وإثارة الخـواطر عـلى الحكام أنفسهم أمـلاً بأن الذي لم تتمكن الأمة من الحصول عليه باللين تحصـل عليه بـالقسوة فتغلب الهيئـة الحاكمة بالعنف والقوة وما أسهل رد هـذه الجرائـد إلى الاعتدال إذا رأت من السلطان ميلاً لإجابة مطالب الأمـة بالسبـل المؤدية حقيقـة إلى الاصلاح. ووطن هـذه الجرائـد والجرائد المتقدمة: مصر، الراتعة اليوم في بحبوحة الحريـة؛ وبعض البلاد الأوروبيـة. ودخولها إلى الممالك العثمانية ممنوع على أن تدخلها سراً بألف سبيـل وينتظرهـا الناس انتظار الظماء للماء ويتداعون إلى قراءتها تداعي الجياع إلى القصاع.

قلت مصر الراتعة اليوم في بحبوحة الحرية لأنه معلوم أن مصر من عهد عشرين سنة لم يكن أحد فيها يجسر على أن يرفع صوته بالشكوى لا من نظام الأحكام ولا من الحكام. وكان سكانها الأصليون يسامون أنواع الذل وهم صامتون خـوفاً من أن يبلوا بشر أعظم حتى نشأت الثورة العرابية ووقعت البلاد تحت سيـطرة الدولـة المحتلة اليوم التي هي أعظم دول الأرض اعتباراً للحرية فانطلق القـوم يبثون شكـواهم ولا يخشون منهـا رقيباً حتى صـاروا ينددون بـالدولـة التي وهبتهم هذه الحـرية وهم في حمـاها ولـو شاءت لأخرست كل لسان لا ينـطق بمدحهـا ولكنها لم تفعـل لأنها تعلم أن هذا المنع الضاغط على الأفكار لا يأتي بفائدة بـل يضللها في أحكـامها وهي تـريد أن تحكم عن علم لا عن جهل، وفي نور لا في ظلمة. فاستفادت البلاد من هـذه الحريـة اصلاحـاً والحكومة هداية والحاكم الأول محبة واحتراماً. ولا أظن أن خديوياً عاش محترماً محبوباً عند رعيته حباً صحيحاً مقروناً باعتبار لا حباً كاذباً ممزوجاً بخوف مثل خديويها اليوم. لا تذكره جريدة من جرائد البـلاد على اختـلاف نزعـاتها إلاّ بمـا يليق به من الاجـلال والوقار مختارة لا مُكرهة . وما ذلك إلاّ من فضل الحرية المطلقة التي منحتهـا البلاد في هذه السنين الأخيرة.

فحرية الجرائد، كما ترى جلالتكم، تتكفل بتوفير أسباب الاصلاح عـلى جانب

عظيم فتفيد الأمة والحكومة معاً إذ تسهل للأمة رفع شكواها وبسط رغائبها وللحكومة الوقوف على أحوال الأمة كما هي حقيقة. فهي في آن واحد رقيب الأمة على الحكام وجاسوس الحكام على الأمة ولكنها جاسوس صادق محبوب لا جاسوس كسائر الجواسيس كاذب مرذول.

والأمر الثاني الضروري للإصلاح عدا الوزارة المسأولة [المسؤولة] **هو تأليف مجلس يُسمى مجلس الأمة** تنتخب اعضاؤه من الأمة على اختلاف الأديان والمنازع والمواطن ليتولى النظر في مصالح البلاد ويقوم بالسيطرة على جميع مصالح الحكومة ويكون جميع العمال مسئولين له وهو مسئول للأمة والسلطان الذي يكون رئيسه الأعظم. وينبغي أن يعطي الحرية المطلقة لكي يستطيع النظر في الأمور على وجه مفيد ولكي يهابه الحكام فيحسبوا لسيطرته عليهم حساباً. وأن يكون أعضاؤه كثيرين لئلا تتغلب فيه الأغراض الشخصية على المصالح العمومية إذا كانوا قليلين مما يصعب حصوله إذا كان عددهم كثيراً لكثرة المضادة التي تنشأ حينئذٍ. والمضادة توجب البحث في الأمور على وجه تسقط معه الأغراض الشخصية وتتأيد المصلحة العمومية لوجوب الاتفاق على ما يقر الرأي عليه بالاجماع أو بالكثرة. ولا يخفى على المتأمل ما لهذا النظام من الفائدة للبلاد والسلطان نفسه. فهو حصن يدفع عن السلطان تشكيات الأمة إذ يتلقاها بنفسه ويتحمل مسؤوليتها ولا خوف منه بل الخوف عليه من المكائد التي يسهل الاتفاق عليها وكتمانها إذ كان زمام الدولة بيد نفر قليلين من الحكام كما هو الآن. وتصعب جداً في مثل هذا المجلس المؤلف من أناس كثيرين مختلفي المذاهب والمشارب لا يتم الاتفاق بينهم على أمر إلاَّ جهاراً وبعد البحث الطويل، وهو ضمانة لدى الدول تحيا بها الثقة بالحكومة فتكف عن اقتراحاتها الباهظة علينا والتداخل في شؤوننا واغتصاب ملكنا لما تراه من عجزنا عن صيانته وسيلة توفر للبلاد أسباب الترقي بنشر العلوم والمعارف فيها على الاسلوب المنتشرة فيه في الممالك المتمدنة وتنشيط الصنائع وصيانة جميع المصالح التي يقدم عليها حينئذٍ اناس وطنيون لتأكدهم صيانة حقوقهم وتوطيد العدل وضبط اموال البلاد وصرفها في السبل المعززة للوطن لاعتدال تصرف الحكام خوفاً من المسئولية التي لا يخشونها في النظام الحاضر حتى ترتفع المملكة إلى مقام يضاهي مقام سائر الممالك المتمدنة ويوجب الفخر لأبنائها وسلطانها بالانتساب إليها. وهذا الفخر لا يمكن إلاَّ إذا بلغت المملكة مبلغاً يوجب احترام سائر الأمم لها. وهذا يذكرني ما قلته في جمعية من رجال الدولة في بلاد لا تصل إليها يد الظلم قلت: «أحب بلادي وأخجل من جنسيتي. أما الأول فلأنها وطني والوطن عزيز غالٍ، وأما الثاني فلأن حكومتنا وضعتنا في مقام دون مقام سائر الأمم حتى صار التصريح بجنسيتنا مجلبة للاحتقار».

ولا يعبأ باعتراض الذين يزعمون أن الأمة ليست أهلاً للاشتراك في الأحكام على هذه الصورة. فهو اعتراض ساقط من نفسه وزعم فاسد. **أولاً** لأن الشعوب التي انفصلت عنّا كما تقدم وحذت في نظام أحكامها حذو الدول المتمدنة دلّت على كفاءة الأمة. **وثانياً**، لأن ما يصلح على الأمة يصلح على رجال الأحكام أنفسهم لأنهم منها، فإن كانوا أكفاء فتكون الأمة ذات كفاءة نظيرهم، وان لم تكن ذات كفاءة فيكونون مثلها. وفي كلا الحالين الاشتراك في الرأي ادعى إلى الاعتدال وأقرب إلى الصواب من الاستبداد. والاشتراك في الرأي مع الحرية هو سبب نجاح الدول المعاصرة وهو سبب نجاح الاسلام في العصور الأولى من الهجرة وسرعة امتداد شوكته في الأقطار، لأن الأمة التي يوجد فيها حاكم يقول لها ما قاله الخليفة عمر: «من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوّمه»، والتي يوجد فيها من الرعية أناس يجيبون بما أجابَه به أحدهم «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» يستحيل أن لا تنجح، ويستحيل كذلك أن تكون أحكامها قائمة على غير الشورى وإن لم تكن في الصورة كنظام الأحكام الشوريّة اليوم إلاّ انها ربما فاقتها في المعنى. وقد كان الاسلام في أول عهده مثال الحكومات الديمقراطية كما يقال اليوم، أي الشعبية. وما ضعفت شوكته وتقلّص ظله بعد ذلك إلاّ لاستبداد الحكام وانغماسهم في الترف وترفعهم عن الأمة وانصرافهم عن خطة الخلفاء الأولين الذين كانوا يخالطون الشعب ويجالسونه كسائر أفراده ولا يتحجبون عنه ويترفعون كأنهم آلهة جُبلوا من طينة فوق طينته. ولو بقي الاسلام سائراً على الخطة التي سار عليها الخلفاء الأولون لما رأيت اليوم بقعة من الأرض تستظل بظل راية غير رايته. أقول ذلك ولا أخشى تخطئة رداً على اولئك الذين يزعمون أن التمدن والاسلام شيئان لا يجتمعان بناءً على ما يشاهدونه اليوم من انحطاطنا وقيامنا في وسط الممالك المتمدّنة حجر عثرة في سبيل المدنية ومثالاً لأحكام العسف والظلم. وقد ذهلوا أن العيب فينا وليس فيه. أقول ذلك وأطلقه على رجال السياسة ورجال الدين أيضاً، فإن هؤلاء ليسوا أصلح حالاً من اولئك. وشتان ما بينهم وبين أئمتهم الأولين. فمَن منهم اليوم يعدل عدل عمر عن مقدرة في مسألة الجامع والمرأة، بل مَن منهم لا يثير نار التعصب في صدور أبناء أمته ليقوموا على ذبح مواطنيهم من أهل الذمة الذين لهم عليهم عهد الله والرسول كما هو جارٍ اليوم في أطراف المملكة بقساوة وحشية لا تقدم عليها الضواري.

مولاي المعظم

هذه هي شكاوى الأمة وآمالها مرفوعة إلى جلالتكم بلسان الصادق على صفحات الاخلاص في عصر تستدعي الحكمة فيه المبالغة في مراعاة الملوك والسلاطين حاسات شعوبهم لامتلاكهم بالمحبة لا بالخوف، ومراعاة علاقات مملكتهم بالممالك

الأخرى لجعلها قوية متينة يرتد عنها طرف الطامع بها وهو كليل، بحزم لا يقدم عليه إلاّ الرجال وعزمٍ يدك راسيات الجبال فنعدل عن القديم المستهجن ونقتبس الجديد المستحسن ونكتسب المجد الصحيح الذي يثبت على مرّ الأجيال لا المجد المزوّق الذي يمر مرّ الخيال. ومن لعمري أقدر من الملوك على العمل الحسن واكتساب الثناء الطيب، وفيمَ يطمعون فوق منزلة الملك وهو غاية المجد في الدنيا وإن كان فوقه منزلة فليست إلاّ التي أشار ذلك الاعرابي إليها في آخر خطابه للخليفة المنصور. قال: «فوالله ما فوق الذي أنت فيه منزلة إلاّ منزلة لا تنال إلاّ بخلاف ما أنت عليه».

عبد جلالتكم
الدكتور شبلي شميّل

مصر في ٢٠ مارس ١٨٩٦

مسألة الارمني

[المقطّم، ١ مايو، ١٨٩٦، ص ٢]

حضرات الافاضل اصحاب المقطم المحترمين

اذا صحّ ما جاء في كتاب حضرة المحامي بورصلي افندي الذي اتيت على تعريبه امس في مسألة الارمني كان الحكم عليه بالاعدام من اكبر الادلة على ان العدالة في الشرق لا تزال محفوفة بالمصاعب وان الشرقيين يسعون بانفسهم الى فتح السبل للاجنبي عليهم.

هذا هو الامر الاول. والثاني اني القي على حضرات القضاة والمحامين والاطباء انفسهم السؤال الآتي: اذا اشترك في القتل اثنان فاكثر فهل يمكن تعيين القاتل تعييناً لا يقبل الاعتراض، وكيف يكون ذلك. اما انا فاقول كطبيب انه مهما توفرت الادلة يستحيل تعيين القاتل الحقيقي ولو أقرّ، لانه هو نفسه قد يكون مخدوعاً في إقراره الاّ في احوال خصوصيّة نادرة جداً لان الاسباب التي تبدو لنا انها الاسباب القريبة كثيراً ما لا تكون سبب الموت. وقد يكون السبب الذي نظنه بعيداً هو المحدث له. وفي علم الطب عموماً والطب الشرعي خصوصاً ما يؤيد ذلك كما سأبيّنه في فرصة اخرى.

الدكتور شبلي شميّل

مصر في غرّة ماي ١٨٩٦.

انحطاط الشرق الأدبي والعقلي

لحضرة الفاضل الدكتور شبلي شميّل

[المقتطف، ج ٢٣ (يناير ١٨٩٩)، ص ٤ - ٧].

[المقتطف] : نُشِرت هذه المقالة أيضاً في جريدة البصير الغراء مع مقالات جمة لحضرة الدكتور شميّل دعاه إلى كتابتها ما يراه في بلدان المشرق من الخمول والتأخر أدبياً ومادياً. وقد أصاب في نسبة هذا التأخر إلى حكومات الشرق وانحطاط الآداب فيه. وعندنا ان في الصور التي اتخذتها أديان الشرق ما يتضح به سبب انحطاطه كما أبنّا غير مرة.

الشرق لفظة تعم بلاداً واسعة وأقطاراً شاسعة مختلفة الأطوال والعروض والحر والبرد والخصب والجدب تضم فيها أمماً وشعوباً وقبائل متبايني الأصل والفصل مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي تراخي النظام وفساد الأحكام وانحطاط المدارك العقلية وفساد المبادىء الأبية لا علم يقيهم ولا عمل يحميهم فهم بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء يعملون لأسيادهم أهل الغرب وأسيادهم بهم يعبثون فينقادون إليهم صاغرين إلى يوم فيه يمحقون لأن ناموس التنازع في الطبيعة صارم لا يرحم فالضعيف مقضي عليه أمام القوي بالمحاق أو الضياع بالاستغراق. فجدير بكتّاب الشرق أن يرثوه فهو ميت في صورة حي فليشفقوا عليه وان كان الاشفاق لا يرضاه أهل الاستحقاق لأن فيه من اعتقاد المسكنة بالمشفق عليه ما تأباه النفوس الكبيرة فمقاومة عدو لي يعترف بفضلي أحب إليَّ من اشفاق يأتيني من أهلي.

فيا وطني ما خانني فيك خائن ... من الحب أو اني رضيت به ندّا
أريدك في عز ولكنني أرى ... على غير ما أرضى أرى العز قد ندّا
فإن جرت في حكمي فما أنا جائر ... وما أنا إلّا باحث لم يجد بُدّا

وقد جرى علماء الأخلاق اليوم مجرى أكثر الطبيعيين القائلين بالنشوء فعدوا الانسان الأدبي والعقلي كالانسان الطبيعي ابن الفطرة وابن المكان والزمان أيضاً فاعتبروه قابلاً للارتقاء والانحطاط في آدابه وفي قواه العقلية بحسب العوامل المختلفة التي تؤثر فيه من طبيعية وأدبية. والفطرة ليست بالحصر إلّا استعداداً مكتسباً في الأصل من طبيعة المكان.

والشرقي كما نريد به هنا يدخل تحته الصيني والهندي والافريقي والعربي والتركي والعجمي أيضاً وان اختلفت مراكز البلاد التي يقطنها بعض اللاحقين بهذه

● نشرت في البصير سنة ١٨٩٨. وأوردها شميّل في مجموعته الثانية (١٩١٠)، ص ١٩٤ - ١٩٩.

الأجناس مما يجعلهم في مركزهم الجغرافي واشتقاقهم الانتروبولوجي أقرب إلى أهل الغرب منهم إلى أهل الشرق إلاّ أنهم تجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران. ويطول بنا الشرح جداً لو أردنا استيفاء وصف كل من هذه الأجناس بحسب طبيعة بلاده وشرائعه وتعاليمه لأنه وإن كان الجامع اليوم بين هذه الأجناس واحداً وهو التقهقر الأدبي والعقلي إلاّ أنهم يختلفون فيما بينهم كثيراً في ذلك ويختلفون كذلك في الأصل وقابليات العقل بحسب طبيعة البلاد ويختلفون أيضاً في مركزهم الاجتماعي بحسب شرائعهم وتعاليمهم.

ولا شك أن طبيعة البلاد أثرها في الانسان شديد كما ذهب إلى ذلك أبقراط في كتاب الأهوية والمياه والبلدان** حيث قال في الفرق بين أهل آسيا وأوروبا ما خلاصته:

«إن أهل آسيا تغلب عليهم السكينة ورقة الطباع لما هم فيه من رغد العيش بسبب خصب بلادهم واعتدال فصولهم ولذلك لم يكن لهم شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة ولا الثبات في الأعمال ولا علو الهمة وطنياً كان أصلهم أم غريباً ويغلب فيهم حب اللذات على كل شيء بخلاف أهل أوروبا الذين هم معهم على طرفي نقيض من هذا القبيل لصعوبة اقليمهم وقلة خصب بلادهم».

ولكن الاقتصار على هذا الأثر لا يكفي في مثل بحثنا فإن الانسان وان يكن ابن المكان فهو ابن التربية والتعليم أيضاً وقد فطن إلى شيء من ذلك أبقراط نفسه حيث قابل بين حكومات أوروبا وحكومات آسيا فقال إن أهل أوروبا أشد نجدة للحروب من أهل آسيا بسبب طبيعة بلادهم وبسبب نوع أحكامهم أيضاً فإن أهل أوروبا تحكمهم شرائعهم وأما أهل آسيا فتحكمهم ملوك وشتان بين النجدة التي يقوم بها من يدافع عن نفسه والنجدة التي يظهرها من يدافع عن غيره.

ولا ريب أن أثر العوامل الأدبية في الانسان شديد جداً وربما كان أشد من أثر العوامل الطبيعية حتى ذهب الباحثون في طبائع الحيوان إلى أن الانسان لم يتغير في بدنه كثيراً من يوم اتخذ الكساء واصطنع السلاح وبنى البيوت يريدون أن يثبتوا بذلك أن الانسان قادر على مقاومة الطبيعة بالصناعة. وأهم هذه العوامل العلم قال «لتري» معقباً على أبقراط ما نصه أن أبقراط يقول إن طبيعة الاقليم والشرائع هي التي تجعل أهل أوروبا أشد نجدة للحروب من أهل آسيا ومعلوم إنا رأينا على تراخي الأيام ان الفرس الذين غلبهم اليونان لم يقدر عليهم الرومان بعد ذلك وان اليونان ضعفوا جداً في عهد سقوط سلطتهم وذبول شوكتهم وان العرب أتاهم يوم كان لهم فيه نصر في الحروب مبين وشرف ينطح السماك بروقيه وعز يقلقل الجبال. فمثل هذه الأمثلة تكفي لأن تبين أن النجدة للحروب لا تختص بإقليم دون آخر وكذلك يقال عن

الأحكام فإن النجدة لا تتوقف عليها كما انها لا تتوقف على الاقليم بل على النظام وعلم الحرب فإن نفراً قليلين منظمين من الاسوجيين ظهروا على الروس الكثيرين غير المنظمين في موقعة بلتاوا والانكليز قد جندوا من الهنود جنوداً شديدة البأس في سنين قليلة وقد كان للمصريين على عهد محمد علي جنود باسلة فالأقاليم والحكومات أثرها في نجدة العرب قليل والنظام والعلم هما اللذان يفعلان كل شيء وهذا القول مع ما فيه من الانحياز إلى جانب دون آخر كما أبنا ذلك في محله صحيح باعتبار أن العلم من أقوى الوسائط المؤثرة في الانسان والمغيرة له ولنا مثال حديث في اليابان اليوم وما أظهرته من النهضة الاجتماعية والحربية في سنين قليلة حتى ظهرت على الصين التي تزيدها نحو عشرين ضعفاً في عدد السكان بفضل العلم.

فطبيعة بلاد الشرق بما توجب من الراحة للبدن تفسح للعقل مجال الخيال ولذلك كان الانبياء كلهم من المشرق وطبيعة بلاد المغرب بما توجب من المشقة على البدن تربي فيه النهضة والاقدام ولذلك كان أكثر الفاتحين من المغرب إلّا من قام من الشرق لدعوة دينية تدخل في حكم المؤثرات الأدبية ولذلك أيضاً كان أهل الشرق كما قال الشهرستاني ميالين للبحث عن ماهيات الأشياء وحقائقها وأهل الغرب ميالين للبحث عن طبائع الأشياء وكيفياتها أي أن هؤلاء أهل عمل وأولئك أهل نظر قد يجر إلى الكَسَل وربما كان هذا من الأسباب الطبيعية التي لأجلها لا يستطيع الشرق أن يناظر الغرب إذا تساوت عندهما المعدات الأدبية.

فالشرق إذاً لا يستطيع أن يناظر الغرب إلّا إذا فاقه في المعدات الأدبية على أن الشرق اليوم ـ ونحصر كلامنا في الأقوام الذين تجمعنا وإياهم جامعة الوطن والسياسية ـ متقهقر جداً عن الغرب في هذه المعدات لقلة العلم فيه وثقل وطأة الوهم عليه ولا يخفى ما لذلك من الأثر السيء على العقل والآداب ولذلك كانت قوى العقل في الشرق اليوم ضعيفة والآداب متراخية ونعني بالآداب هنا لا كما يفهمها البعض تلك الآداب الذاتية الرخوة التي لا تتجاوز النفس ولا ينظر فيها إلى الكل كالصوم والصلاة مع تربية الضغائن والأحقاد ضد من لا يصلي صلاتك ولا يصوم صومك فينسيك ذلك الجامعة الوطنية والسياسية في جنب الجامعة الملية في بلاد كثر فيها تفرق المذاهب والأديان أو تلك الآداب السطحية المنتقلة إلينا من سفساف آداب الغرب كالهشاشة والبشاشة والمفاخرة باللباس والطعام وإيلام الولائم والتأنث في الحركات وسائر أنواع المجاملة التي لا تتجاوز حد اللفظ مع التبطن والرياء المتصلة إلينا إما بالوراثة وإما بالتقليد مع التواء المقصد منها علينا لتمسكنا بالظواهر والأعراض واغفالنا الجواهر والأغراض بل نريد بها تلك الآداب الرفيعة الاجتماعية التي تدل على ارتفاع المدارك والتي ينطبق عليها قول المثل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل»

كالحزم والعزم والشهامة وكرم الأخلاق الحقيقي والصدق والاخلاص ومحبة النفس من وراء محبة الغير ومحبة الوطن فوق كل شيء مما يبعث إلى التعاون والتعاضد للقيام بالأعمال الجليلة العمومية التي يقوى بها الفرد لأنه ينظر فيها إلى قوة الكل ومعرفة أقدار ذوي الفضل منا للانتفاع بما خُصّوا به من المواهب لتنشيط هذه المزايا في الجمهور لا قتلها فيهم لقتلها فيه حسداً ولؤماً والاغضاء عن الهفوات في جنب الحسنات لا تحقير هذه وتعظيم تلك تشفياً من الاجتهاد وانتقاماً من الذكاء فإن الفرق بين الغرب والشرق في ذلك كالفرق بين إعمال الرجال وأعمال الأطفال. ذكروا أن لامارتين الشاعر الفرنساوي الشهير بلغت ديونه نحو ثلاثة ملايين فرنك فقامت الأمة ووفتها عنه بجمع المال بالاكتتاب ولم يمنعه ذلك من تجديدها ولا منع هذه الأمة من تجديد الاكتتاب لوفائها. فكيف لا يقوم بين أمّة هذا اعتناؤها برجالها رجال كلامارتين وأعظم من لامارتين بطبقات وولطر سكوت خسر أموالاً طائلة في التجارة وانكسر عليه نحو خمسين الف جنيه فعمد إلى التأليف ووفاها من كتاباته لأنه كتب لقوم يقرأون ويدفعون ثمن ما يقرأونه بل لنعتبر بمثل بطل السودان وما صادفه من العناية البالغة الغاية القصوى من أمته وحكومته مما لا يزال صداه يرن في الآذان ولنقابله بمعاملة حكومات الشرق وأممه لأبطاله إذا ظهر فيه أبطال فأقل عقاب لهم على اجتهادهم وامتيازهم الاقصاء إلى الأقطار الشاسعة أو الوضع تحت القفل والمفتاح حيث يطمس ذكرهم ويتناسى فخرهم. فكيف لا يقوم من اولئك رجال يبذلون قواهم ودمهم لخدمة وطنهم وأمتهم وكيف لا تنمو فيهم مواهب الذكاء والاقدام على جليل الأعمال وكيف لا ينزوي هؤلاء في بيوتهم متقاعدين عن خدمة وطنهم بل كيف لا تموت فيهم همم الرجال.

والغريب أن انحطاط الآداب في شرقنا بلغ مبلغاً لا يعهد له نظير في سوانا فترى الصعلوك منا يظهر بمظهر الامارة على أمير قومه والأمير منا يتناهى في الحقارة والدناءة لدى صعلوك أجنبي فالواحد منا جبار على أبن جنسه ولو فاضلاً وذليل لدى الغريب ولو أنه أذل من بيضة البلد. فمتى بلغت الأمة هذا المبلغ من الدناءة فأي خير ترجو منها. وأي نهضة علمية أو أدبية أو اجتماعية ترجو من مثل هؤلاء الأقوام الذين لا تجمعهم جامعة ولا تقوم لهم قائمة إلّا بسيف كسيف محمد أو بونابرت يعمل في رقابهم ويسوقهم سوق الأنعام.

ولا شك أن حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الأخلاق إلى هذا الحد فقد تقدم أن الفرق من عهد أبقراط إلى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق أن تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك وان تعدلت الأحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها إلّا صورة لا معنى فإن ملوك الشرق ما زالوا فوق

شرائعهم فأماتت حكوماتهم من الأمة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت به على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر إليه الاستبداد وقوّت فيهم كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما أخمدت من قوى العقل بإطفائها نور العلم وأثر ذلك فيهم لتقادم عهده شديد وزواله منهم بعيد فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديه طامحاً ببصره إليه مزمعاً أن يقبض عليه سنة الطبيعة في التنازع ولن ترى لسنة الطبيعة تبديلاً.

** قام الدكتور شميّل بنقل هذا الكتاب إلى العربية: كتاب الأهوية والمياه والبلدان لأبي الطب أبقراط، استخرجه إلى اللغة العربية الدكتور شبلي شميل في ٦٤ صفحة من القطع الصغير، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٨٨٥.

(*) اشار الدكتور شميّل في مقالة عنوانها «شواغل» نشرها في جريدة **البصير** (١٨٩٨) واعاد نشرها في الجزء ٢ من مجموعته (ص ٢١٣) إلى نشر مراسلة بينه وبين بعض المراجع العالية (يقصد رسالة «شكوى وآمال» المرفوعة إلى السلطان عبد الحميد، آذار ١٨٩٦)، وقد بلغه ان المراجع المذكورة (قصر يلدز) استاءت من الرسالة التي تحوّلت إلى كتاب مفتوح، وربما جاء نشر الرسالة عشيّة تأليف «جمعيّة الشورى العثمانية» التي انتمى إلى عضويتها.

الترامواي: «رسول عزرائيل»

[المقطم، ١٧ مارس (آذار) ١٨٩٨].

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم المحترمين:

لا يستطيع الانسان مهما كان صخريّ القلب إلاَّ أن يتأثر من تكرار حوادث القتل التي يصبّها على سكان هذه العاصمة رسول عزرائيل الغير المسؤول، أريد به: الترامواي الذي شارك القوات السريّة في أن قضاءه على الناس صار كالقضاء المُنزَل لا يُطالب. وقد ذهب الناس مذاهب في أسباب هذه الفواجع وتهامل الشركة واغضاء الحكومة. ولا أنكر ان قسماً من هذه الحوادث الذنب فيه على الأهالي أنفسهم لقلة انتباههم واكترائهم ومزاحمتهم الحيوانات على المشي في وسط الطريق عوضاً عن المشي على الأرصفة. ولكن لا ينكر أيضاً ان القسم الأكبر منها ناشيء عن غلاظة قلوب «سائقي» الترامواي أنفسهم الذين هم من طبقة من الناس لا يكادون يفرقون عن الحيوانات في غير الصورة ولا يعرفون لحياة غيرهم قيمة، بل ربما جلبت لهم فعلتهم الشنيعة شيئاً من السرور تنبسط له طباعهم الوحشية. وقد عِيل صبر الناس ولم يجدوا من رجال هذه الشركة اهتماماً بإصلاح هذا الخلل وإتّقاء هذه الشرور. ولو كانوا في بلاط طباع أهاليها غير ليّنة كطباع أهالي مصر لرأوا منذ زمان أسلاكهم مقطعة وخطوطهم الحديدية مقلعة. والظاهر ان الشركة قلّما يؤثر فيها مؤثر لا يمسّ مالها وحتى الآن لم تقم عليها غير دعوى واحدة فيما أعلم ولم تجلب عليها خسارة جسيمة. والسبب هو ان الذين أصيبوا بهذا القضاء الغير الطبيعي هم من الفقراء الذين لا تسمح لهم وسائلهم المالية أمام اختلاط الطرق القانونية بالمطالبة بحقوقهم. ولكن أين الحكومة النائبة عن الأمة؟ ولماذا لا تطالب بحقوق هؤلاء المساكين إذا كانت لا تستطيع ان تجبر الشركة على اتخاذ الطرق الواقية النافعة؟ فإننا لم نسمع ان النيابة أقامت دعوى من عند نفسها تطالب الشركة فيها بثمن تلك الدماء المهدورة. وهل حاولت الحكومة ذلك ووجدت الدواء متعذراً. فإن كان ذلك كذلك، فأنا أقول للشركة وللحكومة أن الأمة لا بد أن تجد دواءاً قاطعاً أضمن أنا نجاحه ولا أطلب منهما امتيازاً على اكتشافه. فلا يخفى عليهما ان الانسان ملزم بالمدافعة عن نفسه إذا لم يجد من يدفع عنه. فإن كانت الحكومة لا تقي الأمة شر الترامواي ولا تدافع عنها من تعدي سائقيه عليها، اضطرت إلى دفع الشر بالشر رغماً عنها. ومتى رأى اولئك السائقون البلداء الغلاظ الرقاب القساة القلوب انه أصاب اثنين أو ثلاثة منهم مثل ما أصاب بعض الناس بسبب بلادتهم وقلة عنايتهم، عاد رشدهم إليهم وصاروا أكثر الناس حذراً وانتباهاً. لأنهم من طائفة لا يؤثر غير الخوف فيها. فتقلّ حينئذٍ حوادث القتل المتسبّبة عن جهلهم وانحطاط عنصرهم ويأمن الناس شرّهم.

الدكتور شبلي شميل

القاهرة في ١٧ مارس (آذار) سنة ١٨٩٨

«تركيا الفتاة وتركيا العجوز»

﴿ وكما تكونون يولّى عليكم ﴾*

من دقق النظر في تاريخ الاجتماع البشري رأى أن نصيب الأمم من تقدم ووقوف وارتقاء وانحطاط وانتشار وانقراض يتوقف على عوامل طبيعية يضمها ناموس عام يسمى «تنازع البقاء» يؤدي ضرورة إلى ناموس آخر يسمى «الانتخاب الطبيعي» فما من أمة قامت أو انقرضت ارتقت أو انحطت إلاّ كانت عوامل هذين الناموسين هي القاضية في ذلك. فإن كانت الأرض على سعتها قد ضاقت بالانسان الأول وهو اثنان على قول البعض حتى قام الواحد على الآخر وقتله أو كان طوائف متفرقة على سطحها قامت على بعضها حتى ذلّ البعض وفاز البعض الآخر على قول الآخرين فما ذلك إلاّ لأن الانسان كسائر الأحياء لا يستطيع أن يفر من حكم هذين الناموسين فالتنازع سنة هذا الكون والانتخاب نتيجة هذا التنازع. هذا شأن الانسان في العمران منذ أول عهده وما زال هذا شأنه حتى اليوم ولن يزال كذلك حتى المنتهى.

والحكومات مظهر من مظاهر الأمة وهي تختلف باختلاف الأمم فكلما ارتقت أمة في العمارة ارتقت حكومتها كذلك. وهو معنى قوله «وكما تكونون يولّى عليكم» فلا ينتظر أن تكون الحكومة أصلح من الأمة التي نشأت فيها بل لا تلام الحكومة إذا داست بأخمصها رقاب الرعية وهل تداس رقاب تأبى أن تداس وأن من ينتظر الاصلاح من أية حكومة كانت يجهل لا شك تاريخ نشوء الأمم في العمران. وها التاريخ أمامنا يعلمنا أن الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يذعن للاصلاح إذ لم تقم العقبات في سبيله. وهل بلغت أمم أوروبا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها لا لعمري إنما بلغته ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور المقوسة والمشي على الاقدام لا الزحف على الركب وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلالها كما تتل السائمة وجرها وراءها قوة واقتداراً. والأمم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر أسباب القوة فيها عفاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبق لها إلاّ آثاراً أو لم يبق لها أثراً وتركها خبراً مسطوراً.

* * *

---

* نشرت في البصير سنة ١٨٩٨، تحت عنوان: «وهل يرجى فوز؟» وأعادت نشرها صحيفة المقطم في ١٩ ك ٢ (يناير) ١٨٩٨ على الصفحة الأولى وتحت هذا العنوان: «هل يفوز حزب تركيا الفتاة». وقد أخذناها من «مجموعة الدكتور شميّل» ج ٢، ص ١٩٠ - ١٩٤.

وأسباب القوة في العمران كثيرة وترد إلى أربعة تعد دعائم اثنان طبيعيان وهما العدد والجنس واثنان أدبيان وهما الدين والعلم ولا ريب أن كل أمة كثر عديدها ولم يشب جنسها اختلاط وتوحد دينها وبلغ العلم فيها أقصى مبلغه في عصره بلغت من القوة مبلغاً حقق لها الفوز في ميدان التنازع والضد بالضد. فوحدة الجنس ووحدة الدين لازمتان لاتحاد الكلمة وإلّا كثر الانشقاق وهو من دواعي الضعف والعلم ضروري جداً لاتقان الصناعة والزراعة وسائر الفنون التي تكثر معها الثروة والثروة عصب الاجتماع كما يقول الافرنج. وزد على ذلك أن العلم باتقانه الصناعة يتفنن باختراع الآلات التي تكسب المنعة في الدفاع وتحقيق الفوز في المهاجمة وهو أعظم العوامل لتقليل الانشقاقات الناشئة عن الأديان فإذا علم ذلك لم يصعب علينا الحكم على مركز كل أمة في الحال وما هو مقضي لها أو عليها في الاستقبال.

* * *

فالأمة العثمانية ـ وكلامنا فيها ـ إذا نظرنا إليها من هذا القبيل وجدنا جميع الأسباب السلبية متوفرة فيها مما يجعل مركزها في الحاضر حرجاً ومستقبلها مشكوكاً فيه ولا نقول إن صعوبة مركزها من عددها فإن عددها وإن لم يكن كثيراً جداً إلّا أنه ليس بالقليل فلا يصح أن يكون سبب الضعف ولكنها مؤلفة من أجناس مختلفة فمنها التركي والعربي والأرمني والكردي والبلغاري واليوناني، الخ. وأديان مختلفة فمنها المسلم والمسيحي واليهودي والدرزي والمتوالي [الشيعي] وتحت كل منها قبائل وطوائف مما يجعل اتحاد الكلمة بينها في حكم المستحيل ولا سيما إذا اعتبرنا حالة العلم فيها فإنه يكاد يكون شيئاً لا يذكر والقسم الأعظم من الأمة في جهل عميق ولو كان العلم منتشراً فيها انتشاراً كلياً لقلت جداً الانشقاقات الناشئة عن اختلاف الأديان والشعوب وكبر الأمل باتحاد كلمتها وتوسمنا خيراً في مستقبلها وتزيد قيمة ذلك كله اعتباراً في نظر الباحث إذا قسناها بالأمم المجاورة التي هي معها بحكم ناموس الاجتماع في تنازع دائم فأي فرق بين معدات الأمة العثمانية من هذا القبيل ومعدات باقي الأمم وهي حقائق محزنة لا يسع المؤرخ الصادق إلّا الاعتراف بها.

وإذا كان هذا حال الأمة العثمانية فهل تستطيع المقاومة زماناً طويلاً والتنازع بينها وبين الأمم الأخرى في حد حدّته ومعظم شدّته وهي بعيدة عن التكافؤ والتفاضل إنما هو عليها لا لها وإذا كانت لا تستطيع المقاومة فما هو مصيرها يا ترى وهل يرجى نهوضها وبأي الطرق يكون ذلك.

* * *

يعلم الباحثون في طبائع العمران أن كل أمة مهما كان أمرها مرتقية كانت أم منحطة لا بد أن تتنازعها قوتان غريزيتان فيها احداهما تركن إلى المحافظة على الحالة الراهنة والأخرى تميل إلى الطفرة عنها واصطلح السياسيون على أن يطلقوا على الأولى اسم حزب المحافظين وعلى الثانية اسم حزب الأحرار ويؤلف الحزب الأول من الهيئة الحاكمة ومن تابعها من الشعب والثاني ينشأ في الهيئة المحكومة ويكون في أول الأمر مؤلفاً من أفراد قليلين وهذان الحزبان يختلفان قوةً بحسب حال الأمة من العلم فهما متكافئان غالباً في الأمم المتهذبة ومتفاضلان في الأمم التي يكون العلم فيها غير موزع على السواء ويكون الفوز كله للمحافظين أي للحكومة في الأمم المستغرقة في الجهل حتى قد لا يشعر بوجود حزب آخر سواه. ولقد مضت القرون الطوال ولا يسمع في الأمة العثمانية صوت غير صوت الحكومة وربما لم يسمع سواه زماناً طويلاً أيضاً لقلة انتشار العلم في الأمة لولا أن أسباب التمدن الأوروبي انتشرت انتشاراً عظيماً في هذا العصر بحيث لم يعد في الامكان إقامة الحواجز ضدها ومنع تأثيرها إن لم يكن في العموم ففي الأفراد وما يسمى اليوم حزب تركيا الفتاة دليل على أن هذا الحزب الذي بقي صوته خافتاً لقلة عدده وضعف عدده قد دبت فيه روح الحياة حتى صار له صوت يسمع وطبل يقرع. وكنت أود أن أتحاشى الكلام في هذا الحزب لولا أن كثر فيه اللغط وركب فيه كل كاتب مركباً يسير به على هواه حتى كثر فيه الضالون وقلّ المهتدون وظن البعض أنه ألعوبة كأبواق الصابون تملأوها الأنفاس فإذا انفجرت لم يكن من وراءها نار حتى ولا هواء يزيد النار اشتعالاً إذا أصابت ناراً أطفأتها أو حياة أماتتها ويحق له أن يظن هذا الظن إذا أخذ الأشياء بظواهرها وقاس الحقيقة على المجاز وخلط بينه وبين بعض الذين يكثرون من الجلبة والصياح فإذا برق الذهب ولاح وهطل غيث الدينار الوضاح تراكضوا إلى المراح والسابق السابق منهم الجواد فهؤلاء ليسوا حزب تركيا الفتاة وإنما هم حزب الممازقين المنافقين الذين اتخذوا اسم هذا الحزب وسيلة لشفاء حزازات في الصدور وقضاء لبانات في النفوس وهم بعملهم هذا قد جاروا على دعوة هذا الحزب بجرأتهم المتجاوزة الحد في الخصام واحجامهم على أيسر سبيل عند نيل المرام. ولكنه إذا تدبر الأمور تدبر العاقل الخبير علم أن هذا الحزب موجود حقيقة فهو مؤلف من كل عاقل هذبه العلم وعلّمه الاختبار ودرس الأمم درس المقابلة وعلم أسباب القوة في العمران فرآها متوفرة في الأمم الناجحة فحمدها وغير متوفرة في أمته فأسف عليها والعقلاء في الأمة كثيرون فالحكومة تخطىء إذا كانت تظن أن هذا الحزب قاصر على بعض الأفراد الذين ركبوا متن الحدة في المقاومة وجانب منهم غير مخلص في الدعوة كما تبين لنا وتخطىء أكثر إذا كانت تظن أنها باسترضاء هذا البعض الساخط تتمكن من ملاشاة هذا الحزب فالحزب نشوءه في الاجتماع ليس عارضاً حتى يسهل استئصاله بل هو نشوء طبيعي جارٍ على مقتضى نواميس طبيعية ولن ترى لنواميس

الطبيعة تحويلاً. وإن كانت تظن أن استرضاء هـذا البعض يضعف حجة هـذا الحزب عند الآخرين من الأمة الذين لا أفكار لهم إلاَّ ما يفتكره لهم الغير حتى لو قام غيـرهم وحذا حذوهم لم يصدقه الناس فربما كان ظنهـا مصيباً بعض الاصـابة وإنمـا ربحها من هذا الجانب لا يوازي خسارتهـا من الجانب الآخـر إذ ينتقض عليها المتـزلفون لهـا عن غير اقتناع وهـم الأكـثر لأنهم يرون أن سخط غيـرهم كان ادعى لاستـدرار النعمة من تزلفهم فينقلبون ساخطين ومهما يكن من ذلك كله فما هو إلاَّ أمور عارضة لا تؤثر شيئاً في حقيقة الدعوة نفسها.

* * *

ولكن هل يفوز حـزب تركيـا الفتاة. فهـذا هو الأمـر الجوهـري الذي يهم كـل عثماني أن يعلمه. وللجواب على ذلك لا بد لنا من إلقاء النـظر إلى الأمة عمـوماً ومـا تدخره من المعدات وما يكتنفها من الموانع. فإذا نظرنا إلى الدعوة من حيث كونها صفة من صفات الاجتماع نقول إن الفوز محقق له لأن الذي يدركه البعض لا بد أن ينتشر عـلى تمادي الـزمان ويعم الأمـة كلها لانتشـار العلم الذي لا بـد منه وإذا انتشر العلم وكثر عدد المتهذبين من الأمة حتى أصبح العدد الأهم سقطت الحواجز التي تفصل بين عنـاصر الأمة المختلفـة وخصوصـاً الترفض الـديني فاجتمعت كلمتهـا وقويت حجتهـا ولكن الذي يروع عقلاء هذا الحزب طول الزمان اللازم لوصول الأمة إلى هذه الغاية وهو يخشى قبل ذلك أن يتحقق فيها قول المثـل: «قبل أن يصـل الدواء من العراق يكون العليل قد فارق» وهذا هو السبب الذي يحمل القسم الأعظم من عقلاء الأمـة على أن ييـأسوا من نهوض الأمـة إلى إصلاح حـالها مـع حفظ استقلالهـا لشـدة التنازع الذي لا تنفك عوامله تعمل فيها من خارج وهي لا قبل لها على المقاومة فالأمة العثمانية في نـظرهم مقضي عليها بحكم النـواميس الاجتماعيـة التي هي في صرامتهـا كالنواميس الطبيعية بالتشتت والانفصال فقد أدركتها الشيخـوخة والمـريض قد أشـرف على الموت فلا يقيها دهاء تركيا العجوز ولا تخبط تركيا الفتاة دهاء وتخبط لا يفيدان إلاَّ تعجيل الانحلال بزيادة الاختلال.

الحق يعلو

[المقطم، ٤ ابريل (نيسان) ١٨٩٨].

«الحق يعلو ولا يُعلى عليه»: كان كل م يجترىء منذ أعوام قليلة أن يقول أقل الحق عن المابين [البلاط السلطاني] وظلمه واختلال عمله وفساد حكمه يلقى ما لا يوصف من هجو المدلسين وهجر المنافقين وبذاء لسان المأجورين بالمال للدفاع عن الظالمين. أما الآن وقد صار فساد حكم المابين أشهر من نار على علم ومقتته نفوس المحبين لاصلاح السلطنة وعز الدولة واتفق العقلاء على أن يمدح أعماله فإما جاهل للحقيقة مغرور بأقوال مأجوريه وإما طامع بنفع ومتعمد غش أمته، فقد أضحى الكتّاب يجاهرون بما يضمرون ولا يخافون لومة لائم كما اضحى المدافعون عن المابين يموهون الأقوال تمويهاً حتى لا يفطن الناس إلى أنهم مأجورون أو موعودون.

نقلنا منذ مدة عن [جريدة] **الكمال** مقالة عن أسباب انحطاط الدولة العثمانية بعد ارتقائها. فتصدت احدى الجرائد لها بكلام تركنا الحكم فيه للقراء الكرام فردّت جريدة **الكمال** أمس عليها رداً طويلاً جاء فيه ما نصه:

> «قال عمر بن الخطاب في خطبة خطبها على المسلمين: «من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومه». وكان يومئذٍ خليفة المسلمين وناهيك بخليفة المسلمين في ذلك الوقت وصاحب الكمال الذي تعيره ضمناً وترمز إليه من بعيد بأن الواجب يقضي عليه أن يدلس على أعمال الدولة من اولئك الذين قالوا لعمر بن الخطاب: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا». ولكنه لا يجسر أن يلفظ مثل هذا اللفظ لسلطان عظيم الشأن كسلطاننا عبدالحميد خان.
>
> بل لا يمكنه أن يوجه الكلام مباشرة إلى ذلك المقام السامي لاعتبارات لا تخفى على الفَطِن اللبيب بل هو يكتفي ان يجري على تعاليم الدين الاسلامي القاضية بالتشهير بأعمال الحاكم إذا خالف الدين. واعتقاد صاحب **الكمال** المسلم العالم بأمر دينه ان الخلافة الاسلامية جارية على تعاليم ليست من الدين في شيء بل الدين بريء منها وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين وعامتهم». فمن جميع ما تقدم يجب على صاحب هذه الجريدة بصفته مسلماً متديناً أن يخلص النصح للخليفة القابض بيده على زمام ما بقي للمسلمين من مجدهم السابق وأبهتهم التي أفناها موت الرجال الذين لا زالت الدنيا تفتخر بهم وليس قوله من باب قول القالي ولا من باب طيش الغالي».

وردّت عليها جريدة **القانون الأساسي** رداً آخر ولكنها حسبت محررها حضرة الفاضل الدكتور شبلي شميل فحمّلته تبعة ما ورد في تلك الجريدة وهو براء منه كما يظهر من رسالة أرسلها حضرته إلى حضرة الفاضل صاحب القانوني الأساسي ثم سألنا نشرها في **المقطم** فنشرناها قياماً بواجب الصحافة الحرة وهي:

أضلال أم تضليل

حضرة الأديب صاحب جريدة القانون الأساسي:

يسوءني جداً أن تكون أول معرفتي بك تنبيهك إلى خطأ هو في حكم أهل الأدب شنيع جداً وأنت أول من يستقبحه. هل أنت على يقين من أن صاحب مقالة «برهان وانتقاد» المنشورة في تلك الجريدة حتى لا استعمل إلاّ لغتك هي من قلم ذلك الفيلسوف الأعظم صاحب تلك المقالة البديعة والمملة معاً والتي نقلتها بعض الجرائد حتى جعلته مسؤولاً عنها. وإن لم تكن على يقين من ذلك بل كنت أقرب إلى أن تكون على يقين من الضد، أفلا تقضي عليك آداب الكتّاب والصحافة وقانونك نفسه حتى تقوى به حجتك بالاعتذار على قدر الاعتداء بعد نشرك هذا الخطاب؟ فإن كنت ترغب النور وتسعى حقيقة وراء الحق فاسأل أقرب الناس إليك صلة في المصلحة يرشدوك أن فيلسوفك يقول ما يفتكر ولا يتستر وان قلمه عبد لأفكاره وليس عبداً لمآربه وان لم تشأ ان تعتذر فاسمح لي أن أقول لك ان إبدأ بإصلاح نفسك أولاً قبل أن تطلب إصلاح سواك. واقبل مزيد أسفي.

مصر في ٤ ابريل سنة ١٨٩٨

الدكتور شبلي شميل

استدراك

[المقطم، ٥ ابريل (نيسان) ١٨٩٨].

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم المحترمين:

ما أتيت في كتابي الذي نشرتموه أمس تحت عنوان: «أضلال أم تضليل» كي أتبرأ مما ربما يفهم من منطوق كلامكم من مقالة ليست لي بل كي أطلب حقاً كما ورد في كتابي تقضي به واجبات الصحف والآداب عموماً من معتدٍ اعتدى عليَّ وهو يزعم انه يرد على تلك المقالة التي هي من قلم «تلك الجريدة» التي تدعى «البصير» والتي علاقتي بها كعلاقة الخطبي بالمنبر والظاهر أن ذلك لا يفقه أناس جعلوا الجرائد كالجوامع أو الكنائس لا يدخلها إلاّ قوم من معتقد واحد يصلّون وراء المصلّي. واقبلوا مزيد احترامي.

مصر في ٥ ابريل سنة ١٨٩٨

الدكتور شبلي شميل

العفو من شيم الكرام

[المقطم، ٨ فبراير (شباط) ١٨٩٨].

نطق حضرة النطاسي الدكتور شبلي شميّل بلسان كل محبّ للأدب والحرية حيث قال طالباً العفو عن حضرة الأديب اسكندر أفندي شاهين محرر **الرأي العام** ما نصّه:

والرأي العام اسم لجريدة تطبع في مصر عرف صاحبها بحرية الأفكار واقتداره على التحرير وان كنا لا نحب جفاءه وحدّته لأنّا نظن أن الكاتب الحر يستطيع أن يطرق أصعب المواضيع ويبلغ فيها الغاية القصوى من الحرية ويفحم كذلك من دون أن يغيظ أحداً معلوماً. وقد جلبت عليه حريته في هذه الأيام دعوى الكلام يقال إن فيه مساساً بمقام الخديوية المقدس الذي لا يجوز أن يمس بسوء. وقد صدر الحكم عليه بالسجن ستة أشهر في الحوض المرصود وقد زار هذا الحوض منذ مدة ـ والفضل للمتقدم ـ كاتب آخر شهير وهو صاحب المشير [سليم سركيس] فنشر عن هذا السجن أشياء كثيرة مفيدة للقارىء دلّت على انه كاتب يعرف أن يستفيد من كل شيء، وهي صفة من صفات الكاتب المتفنّن، ودلّت القارىء كذلك على أن هذا المكان لا يليق أن يكون سجناً للكتّاب الحقيقيين. على أن طباع صاحب المشير التي تميل إلى أخذ الأشياء من جانبها الباسط وقصر مدة السجن التي كانت اسبوعاً فقط سهّلت عليه قطع هذه العقبة من دون ضرر أو تأثير سيء وحفظت لأخلاقه صبغتها. ولكن حبس ستة أشهر في السجن المذكور لكاتب حادّ التصور ينظر إلى الأشياء من جهتها الجديّة لا ثروة عنده يعول عليها لا بد أن يعقبها ضرر يؤثر تأثيراً سيئاً في صحته وأخلاقه وهذا ليس المقصود من السجن. وفي ظننا أن المجالس لم تحكم عليه بإطالة مدة العقاب إلاّ لتجعل لسموّ الخديوي المعظّم باباً يظهر فيه كرم أخلاقه ويعاقب المسيء إليه أشد عقاب بالاحسان إليه. ولا نشك في أن سموه متى عرف خصوصاً أن المحكوم عليه يعول والداً حنته الأيام وكسرت قلبه المصائب وأخوات لا سند لهنّ سواه لا يرضى بأن يوقع ضرراً حسياً على شخص يقصر طعنه مهما تعاظم عن أن يمسّ مقام الخديوية الرفيع بأقل ضرر تقصيراً عظيماً. قال أحد الحكماء: «لا أجدني أشد ميلاً للانتقام مني عاجزاً وأكثر ميلاً للصفح مني قادراً». فالعفو أولى بالملوك. فعوفك، أيها الخديوي المعظم، رجاء عبد ربما كان أقل الناس تزلفاً لا يحب ازدحام الأقدام على أبواب العظام ولكن من دون شك من أشدهم اخلاصاً لمقامك العالي وأصدقهم تابعيّة. فآحي، مولاي، مآثر الكرام بالاصغاء لنداء الأقلام واقتله بحلمك ولا تحيه بعدلك. فقد قيل: لا شيء اقطع للسان من الاحسان. واظهر للملأ أجمع انك فوق العدل وما فوق العدل إلاّ الرحمة.

حلمتُ أيا عباس حلمي بأنني رأيتك تعفو عن مسيئك عن حلم
فيا حبذا عفو أرى فيه يقظتي بحلمك حلماً والحقيقة في حلمي

الدكتور شبلي شميل

وهل يُرجى فوز

[المقطم. العدد ٢٦٨٣ ـ ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٨٩٨].

أنشأ حضرة صديقنا الفاضل الدكتور شبلي شميل مقالة نشرها في جريدة **البصير** تحت عنوان: «وكما تكون يولى عليكم» [وكما تكونون] وجعل مدار كلامه فيها على: «تركيا الفتاة وتركيا العجوز». فضمنها كثيراً من الآراء السديدة وبنى أحكامه السياسية فيها على الحقائق العلمية الطبيعية حتى وصل إلى أهمها فبحث في ختامها عما إذا كان حزب تركيا الفتاة يخرج من ميدان الجهاد فائزاً أو يدركه ويدرك الأمة العثمانية الممات قبل أن يجلو غمّها ويزيل همّها. فاستنتج نتيجة محزنة سوداء تلقي على العثماني الحر غياهب اليأس والسويداء. حيث قال:

ولكن هل يفوز حزب تركيا الفتاة؟ فهذا هو الأمر الجوهري الذي يهم كل عثماني ان يعلمه. وللجواب على ذلك لا بد لنا من إلقاء النظر إلى الأمة عموماً وما تدخره من المعدات وما يكتنفها من الموانع. فإذا نظرنا إلى الدعوة من حيث كونها صفة من صفات الاجتماع نقول إن الفوز محقق له لأن الذي يدركه البعض لا بد أن ينتشر على تمادي الزمان ويعمّ الأمة كلها لانتشار التعلم الذي لا بد منه وإذا انتشر التعلم وكثر عدد المتهذبين من الأمة حتى أصبح العدد الأهم سقطت الحواجز التي تفصل بين عناصر الأمة المختلفة وخصوصاً الترفض الديني فاجتمعت كلمتها وقويت حجتها. ولكن الذي يروع عقلاء هذا الحزب طول الزمان اللازم لوصول الأمة إلى هذه الغاية وهو يخشى قبل ذلك أن يتحقق فيها قول المثل: «قبل أن يصل الدواء من العراق يكون العليل قد فارق». وهذا هو السبب الذي يحمل القسم الأعظم من عقلاء الأمة على أن ييأسوا من نهوض الأمة إلى اصلاح حالها مع حفظ استقلالها لشدة التنازع الذي لا تنفك عوامله تعمل فيها من خارج وهي لا قِبَل لها على المقاومة. فالأمة العثمانية في نظرهم مقضيٌّ عليها بحكم النواميس الاجتماعية التي هي في صرامتها كالنواميس الطبيعية بالتشتت والانفصال. فقد أدركتها الشيخوخة والمريض قد أشرف على الموت فلا يقيها دهاء **تركيا العجوز** ولا تخبط **تركيا الفتاة**: دهاء وتخبط لا يفيدان إلاّ تعجيل الانحلال بزيادة الاختلال.

شبلي شميّل

كتاب فوضوي: ١٨٩٨

حكم «جوري» Jury محكمة السين بباريس على الفوضوي اتيفان بالاعدام لمحاولتهِ قتل اثنين من رجال الحفظ. واتيفان المذكور هو في ما نعلم اول فوضوي متعلم واسع الاطلاع بعيد النظر الفلسفي حاول ارتكاب الجناية بنفسه كما يظهر من الكتاب الآتي الذي كتبهُ إلى احد اصدقائه بعد القبض عليهِ بأيام قليلة. وفي نظرنا ان المحكمة ارتكبت جناية في حكمها عليه بالاعدام كما يتضح من تدقيق النظر في الكتاب المذكور. ولو كانت ادق نظراً في الأمور واوسع اطلاعاً في علم الاخلاق لوجدت لها مخرجاً يحفظ الرجل ويصلح ما بهِ من الضعف للانتفاع بما بهِ من القوة. ولكن «الجوري» (المحلّفون) كما ان له حسنات في حل قيود القانون له سيئات في ان رؤوس اكثر اعضائه غالباً فارغة من الافكار السامية وفي ان احكامه متناهية تتناول احد الطرفين وليس فيها شيء من احكام القانون التي بين بين. والكتاب هو معرباً:

باريس في ٣٠ يناير سنة ٩٨

صاحبي العزيز

اخذت كتابك الذي تخبرني بهِ عن اضطرارك إلى تغيير عنوانك واشكرك على زيارتك لوالدي فقد اخبرني ان زيارتك وزيارة باقي الاصدقاء كانت اعظم معزٍ لقلبه في وسط احزانه.

تقول ان الفياري مصيب وانا لا انكر ان كتابهِ في «الحكومات الظالمة» [Della Tirannide, 1777] افكاراً كثيرة جليلة إلّا انهُ ليس بينها في ما اذكر سوى فكر واحد صحيح وهو قوله «ان الخطر من القول أو الفعل سواء في عصرهِ وفي الحكومات الظالمة» على ان هذا الرجل المتعشق للعدل نظير سائر فلاسفة عصره ربما كان يستقبح وجود اناس متهالكين في سبيل الحرية مع انه كان يدعوهم. ولكن الذي لا اقدر ان أسلم بهِ قوله ان اليونان والرومانيين كانوا بالحقيقة رجالاً. وهم لم يكونوا رجالاً اكثر من معاصري الفياري ولا اكثر من رجال هذا العصر.

والثورة الفرنساوية التي بلغت فيها المنازعات لأجل الحرية السياسية مبلغ جميع منازعات العصور القديمة بل فاقتها بعظمتها دليل واضح على ما اقول. وهب انه لم يقل ذلك إلّا عن اليونان في غزوتها مقدونيا وعن الرومانيين في عهد الجمهورية فإنه مخطيء في ما يقول:

وبالحقيقة فان الفياري كسائر فلاسفة عصره كسائر فلاسفة عصره كان يسير نحو المستقبل وعيناه متجهتان إلى الماضي. والإنسان الذي يمشي على هذه

الكيفية قد يتقدم وإنما تقدمه يكون صدفة لا يعرف إلى اين يسير هل يسقط في حفرة أم لا فهو لا يدري إذا كان يمشي إلى الامام ام يدور على نفسه ولا يدري حتى يعود من حيث أتى.

وهذا عين الذي تمَّ في الثورة فإن الثورة لوقوع ذمامها في ايدي اناس كانت انظارهم شاخصة إلى بلاد اليونان ورومه كان يقتضي ان تفسد فإن جميع الذين تقدموها كانوا مغرمين بالدماء. ألم يصرخ سان يوسف من اعلى المنبر قائلاً: «العالم خالٍ من ايام الرومانيون ونابليون إنما أتى ليملأه بارجاعه ملكهم» والفياري كان مولعاً بالحرية القديمة كالآخرين وان كنت تريد ان تعرف ماذا كانت تلك الحرية فاسأل اسرى السبرطيين.

فإذا كنا نريد ان نسير إلى الامام وإذا كانت الإنسانية تريد ان تسير إلى السعادة وإلى الحرية فلتنظر إلى ما حولنا ولتتعرفهُ جيداً ثم فلتختر غرضها ولتسر إليه دون ان تعرج إلى هنا وإلى هناك غير مهتمة بما وراءها ولا بما يفتكره عن ذلك الاقدمون.

والعلوم تكاد تكون جميعها قد تحررت بفضل الطريقة الاختبارية من قيود التقليد إلاّ علم واحد يهمنا اكثر من الجميع وعليه تتوقف سعادتنا وهو علم السوسيولوجيا أي علم الاجتماع فإنه بقي واقفاً لأننا لم نشأ تقطيع هذه القيود احتراماً لما تناقله الخلف عن السلف وهذا هو السبب الذي نحن لأجله لانزال تعساء.

ولقد بقي كلبر يبحث ١٥ سنة حتى وجد نواميس حركة السيارات لأنه لم يستطع ان يحرر عقله من التقيد بقيود النقل.

فقد راق لأرسطو في القديم ان يثبت ـ ولا يعلم لماذا ـ ان الكواكب كائنات كاملة وان الحركة المستديرة حركة كاملة فكان يلزم ان تكون حركة الكواكب كذلك.

وبقي علماء الفلك قروناً عديدة يجهدون العقل ويخالفون الواقع لكي يثبتوا صحة ما اثبتهُ استاذهم من قبلهم ولم يجسر احد منهم ان يتساءل لماذا الكواكب هي اكمل من سائر الكائنات وبماذا الحركة المستديرة هي اكمل من سائر الحركات.

وبسبب هذا الاستمساك المقدس بأقوال المعلمين وهذا الاحترام للأقدمين بقي كبلر خمس عشرة سنة يحسب ويعيد الحساب حتى وجد ان السيارات تتحرك في اهليليجيات تشغل الشمس احد محترقيها.

وإذا علمنا ان نيوتون اكتشف ناموس الجاذبية العام بتبحره في نواميس كبلر لتعليلها وإنهُ من هذا الاكتشاف العظيم يبتديء تاريخ اعظم العلوم العصرية اعني علم الفلك الرياضي نرتعد جزعاً من عظم العاقة التي كان تعليم

ارسطو يقيمها في سبيل تقدم الإنسانية لو مات كبلر بعد اربع عشرة سنة من ابحاثه.

ففي علم السوسيولوجيا كما في كل شيء آخر إذا كنا نريد التقدم بسرعة ينبغي علينا ان ننظر إلى كل شيء وان لا نحترم شيئاً غير ما يعلمنا اياه الاختبار.

نعم ان التعاليم القديمة تضغط علينا فإن جميع شرائعنا وعاداتنا وتعاليمنا الدينية والادبية والسياسية والاقتصادية منتقلة إلينا من الماضي وتمنع المستقبل من ان ينفتح لنا.

جميع هذه التعاليم اصولها في الماضي القديم ليس في القديم العلمي فقط بل في التوحش الأول من الحيوانية.

وأسبابها جميعها افكار مسلم بها عموماً وهي بعد ان ولدتها ساعدت على نموها وحفظها وهذه الافكار تظهر لنا من المراقبة ان اصولها موجودة بحالة بداهة في الحيوانات التي تكوينها يشبه تكويننا. فالحذر من ان نأخذ امثلتنا عن الاقدمين كما فعل الفياري وفلاسفة العصر الماضي إذا كنا نريد ان نبلغ السعادة في الحرية التي لا حد لها. انتهى.

هذا هو الرجل الذي حكمت عليهِ محكمة باريس بالاعدام لمحاولته القتل كأنها ارادت في حكمها ان تثبت على نفسها ما جاء في كتابه من الحقائق التي سيؤيدها المستقبل ويحكم عليها لأجلها بالقتل ادبياً فإن الأفكار المنطوي عليها هذا الكتاب كلها حقائق لا يرتج منها إلا ضعاف العقول وما ذنب كاتبه في محاولته ارتكاب الجناية إلاّ زيادة التحمس قبل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية والتحمس كثيراً ما يؤدي إلى التهور والذنب إنما يكون على هذه الهيئة وحدها.

طبائع الاستبداد

تقريظ طبائع الاستبداد في المقتطف

[المقتطف. ج ٢٦ (مارس ١٩٠١) ص ٣٧٣]

متى اشتدَّت العلّة على المريض واتضحت لم يتعذَّر على الطبيب تشخيصها ووصف العلاج لها وكذا إذا اشتدَّ داءُ الأمم لم تتعذَّر على الحكيم معرفتهُ والاشارة بالدواء الشافي لهُ. وغير خافٍ ما اعترى الأمم الشرقية من الادواء التي افسدت عمرانها ونخرت عظامها حتى باتت الملايين منها خاضعة لبعض الأوربيين واشرف غيرها على الخضوع. وقد بحث كثيرون عن علة هذا الداء الدفين وفي جملتهم حكيم شرقي زار هذا القطر في الصيف الماضي ونشر في بعض الصحف ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد قال إنهُ «غير قاصدٍ بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصَّصة وإنما اراد بذلك تنبيه الغافلين لمرود الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات» ثم جمع تلك الابحاث في كتاب واضاف إليها بعض زيادات وجعلها هدية للناشئة العربية.

وقد قدَّم لهذه الأبحاث مقدمة ذكر فيها مَن أَلَّف في فنون السياسة من الاقدمين ولم يذكر اليونانيين كأفلاطون وزنوفون وارسطو طاليس مع ان لهم الباع الطولى فيها واستطرد إلى ذكر الكتّاب المحدثين ودعاهم إلى المسابقة في خير خدمة ينيرون بها افكار اخوانهم الشرقيين ولاسيما العرب منهم وهي البحث عن داء الشرق ودوائهِ. ولم يكلفهم عملاً لم يعملهُ هو فبحث ونقَّب وقال داء الشرق الاستبداد والاستعباد وبحث في طبيعة الاستبداد وتأثيره في الدين والعلم والمجد والمال والاخلاق والترقي والتربية. وكيف يمكن التخلص منهُ.

وقال في الكلام على هذا الموضوع الأخير. ان الاستبداد لا يقاوَم بالشدَّة إنما يقاوَم بالحكمة والتدريج. والوسيلة الوحيدة لقطع دابرهِ هو ترقي الأمة في الإدراك والإحساس وهذا لا يتأتي إلاّ بالتعليم والتحميس. ثم قال إنهُ يجب قبل مقاومة الإستبداد تهيئة ما يستبدل بهِ. ولا بد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الأكثرية التي هي فوق الثلاثة ارباع عدداً أو قوة بأس وإلاَّ فلا يتم الأمر ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة واخلاص واشهارها بين الناس والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بهم. ويلي ذلك شرح مسهب. والكتاب كلهُ على هذا النسق والغاية منهُ ظاهرة لا تخفى على احد من قارئيهِ.

استطراد:

الفييري وشميّل والكواكبي

الكونت ڤيتوريو الفياري (الفييري) Vittorio Alfieri

آستي ١٦/١/١٧٤٩
فلورنسا ٨/١٠/١٨٠٣

شاعر وكاتب تراجيدي ايطالي، ارستقراطي المولد. برز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على نحوٍ لافت للنظر، وأسهم في احياء روح الاستقلال القومي في شبه الجزيرة الإيطالية. اشتهر بتعطشه للحرية السياسيّة وحبّ الجنس البشري. حتى قال عنه أحد النقاد إن الايطاليين يقدسون اسم الفييري على غرار تقديسهم لاسم دانتي.

تلقى تعليمه في اكاديمية تورينو، وبدأ الكتابة في الخامسة والعشرين من عمره. فوضع اول تراجيديا له: «كليوباترة»، ثم استاء من عجزه عن الكتابة باللغة الإيطالية، فانتقل إلى بيزا وعكف على تعلّم التوسكانيّة. فأصدر رائعته الكبرى «شاوول» (١٧٨٢) بعد ان استكمل صقل مواهبه.

عنيف المزاج، لا يعرف الاستقرار. كثير الأسفار والرحلات. زار فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا وروسيا وبلدان اسكندنافيا. وتورّط في عدد من القصص والمغامرات العاطفيّة والغرامية.

تضايق في ظلّ حكم الملك فيكتور اماديوس الثالث لتعذّر نشر الكتب دون الحصول على ترخيص من الرقابة. فوجد نفسه متنازعاً بين قطبين: التابع والمؤلّف. وبادر إلى تحرير نفسه بأن تخلّى عن كافة ممتلكاته لأخته، فتلقّى منها إعانة سنويّة طيلة حياته.

كتب الفييري حوالي ٢٢ مأساة، منها ١٩ نشرت خلال حياته. وهناك من يعتبر سيرته الذاتية التي تضعه من مصاف الكتّاب الرومانسيين من اكثر أعماله طرافة وإفصاحاً عن مزاج اللورد بايرون. على صدقها وحيويتها وصراحتها. وثمة مفارقة تبرز في سيرته الذاتية قوامها التفاوت بين المبادىء السامية والنبيلة وبين استيائه وتململه وتبّرمه الشخصي وسوء طباعه وسرعة غضبة ونكديته.

كتاباته السياسيّة:

لم يشتهر الفييري بوصفه مفكراً سياسيًّا من طراز مكيافيللي ومونتسكيو وجان جاك روسو. لكنّه كتب عن الطغيان والطغاة بأسلوبه الخاص وتحدّث بنبرة خطابيّة فيها نفحة من الفخميّة والبطولة عن الاستبداد والحكومات الظالمة. وترك كتابين في هذا الموضوع يتجلّى من خلالها تأثره بأفكار روسو ومونتسكيو ومكيافيللي:

الاستبداد (١٧٧٧) = Della Tirannide
أو «في الحكومات الظالمة» [شبلي شميّل عام ١٨٩٨]
Del Principe delle Lettere 1785-86
(«في الأمير والأديب») والآداب

ومما يجدر ذكره ان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) جاء على ذكر الفييري في كتاب «طبائع الاستبداد». ومن المرجّح إنه اطّلع على مضمون كتاب الفييري من خلال الترجمة التي قام بها إلى التركية عبد الله جودت. هذا لا يعني بتاتاً ان الكواكبي اقتبس افكاره في «طبائع الاستبداد» من كتاب الفييري. فالدكتور شبلي شميّل تحدّث عن الفييري (الفياري) في مقالة له نشرها عام ١٨٩٨ في جريدة البصير تحت عنوان «كتاب فوضوي». ولم يكن «طبائع الاستبداد» قد نشر في كتاب بعد. فمن المؤكد ان شميّل عرف كتاب الفياري في ترجمته الفرنسيّة. وبذلك لا يجوز التحامل على الكواكبي والتجني على كتابه الرائع في «طبائع الاستبداد» عن سوء نيّة وبقصد التقليل من أهميّته وأصالته الفكريّة. فهو يعترف بالاطّلاع على كتاب الفييري وعلى كتب سواه من الذين تناولوا هذا الموضوع. ولا ضير هناك في ان يجيء اطلاعه من خلال ترجمة لكتاب الفييري إلى اللغة التركية.

واخيراً، يمكن الجزم بان عبد الرحمن الكواكبي كان واسع الاطلاع وشديد الاهتمام بموضوع الحريّة والاستبداد والظلم والاستعباد. وليس هناك ما يمنع أو ينفي اطلاعه على مقالات الدكتور شبلي شميّل في ذلك الحين، لاسيما رسالة الشميّل «شكوى وآمال» (١٨٩٦) المرفوعة إلى السلطان عبد الحميد.

انتقل الكواكبي من حلب الشهباء إلى مصر عام ١٨٩٨ والترجمة التركية لكتاب الفييري مأخوذة عن النصّ الفرنسي. ومن الثابت ان المترجم التركي عبد الله جودت فرغ من ترجمة كتاب الفييري في ٣٠ كانون الأول عام ١٨٩٧. وقد نشرت الترجمة التركية في جنيف عند مطلع العام ١٨٩٨. وهذا ما حقّقه المستشرق الإيطالي ايتوري روسّي Ettori Rossi منذ العام ١٩٥٤ ونشره في مجلّة Oriente Moderno.

نحن أول الناس في الوفاق وآخرهم في الشكوى

يتناول الدكتور شميّل في مقالاته المنشورة صيف ١٩٠١ في صحيفة المقطّم كيفيّة تأليف الوفد المصري إلى المؤتمر الطبّي الذي سينعقد في القاهرة. ويعدّد مآخذه على نشر لائحة المؤتمر باللغة الفرنسيّة دون العربيّة، كما ينتقد إغفال استشارة «الجمعيّة الطبيّة المصريّة» والأخذ برأيها في تشكيل لجنة تنفيذيّة للمؤتمر العتيد. وقد شهدت صفحات الأهرام والمقطّم سجالاً وجدالاً حامي الوطيس، لاسيّما بعد صدور مقالة الأهرام: «كلّنا أمير، ممَن يسوق الحمير؟»، بتوقيع «سقراط».

وجدير بالذكر ان المؤتمر الطبّي عاد وانعقد في أواخر العام ١٩٠٢. ويبدو ان الدكتور شميّل لم يشارك في جلساته ولم يأت على ذكره في وقت لاحق.

المؤتمر الطبّي المصري

[المقطّم، ١١ يوليو (١٩٠١) ص ٢].

الظاهر ان جمهور الاطباء ناقم على كيفيّة تأليف المؤتمر الطبي لأن القسم الاكبر حتى من العاملين فيه لم يعلموا بالعزم على اقامته الاّ بعد تأليفه من افواه الجرائد او من الاطلاع على لائحته (پروغرامه) المطبوعة باللغة الفرنسويّة ـ ومراعاة حرمة البلاد وحرمة اطبائها كانت تقتضي ان تنشر ايضاً باللغة العربية ـ وفي رأيهم انه كان يجب ان يقرَّر ذلك اولاً ضمن هيئة رسمية قانونية كالجمعية الطبية المصرية او في اجتماع خصوصي يُستدعى اليه الاطباء للنظر فيه وانتخاب لجنة تنفيذيّة تتولى ترتيبه وانتخاب العاملين فيه لا ان يستبدَّ بضعة آحاد لا صفة رسمية لهم تؤهلهم لان ينوبوا عن اخوانهم ويقوموا مقامهم. ولقد كثرت شكوى الناس منهم في الجرائد وفي المجتمعات، والشائع ان كثيرين عازمون على رفض الاشتراك فيه. فما ضرّ الساعين في انشاء هذا المؤتمر لو سلكوا فيه السبيل الذي تصان به حقوق اخوانهم ويؤكد به النجاح عوضاً عن الاستخفاف بها الى هذا الحد. ولا شك ان فضل الساعين البادئين لم يكن بذلك انقص وانما الوفاق بين الاطباء كان أتَمَّ. ونحن نريد ان لا نشك في فائدة هذا المؤتمر العلمية لدى علماء اوروبا ولكن نخشى كثيراً من المقدمات التي نراها للاسباب التي بسطناها ان لا تتوفر معه الفوائد الاجتماعية فلا يظهر امام العالم المتمدن بالمظهر المقصود منه لقلة الوفاق وكثرة الشقاق ولا نظن ان طائفة من الطوائف الاخرى مهما كان قدرها رفيعاً او وضيعاً ولو انها في مصر بلاد الغرائب لو ارادت ان تعمل عملاً اجتماعياً مثل هذا العمل كانت ترتكب مثل هذا الخطأ في المبدأ للوصول الى مثل هذا الخطل في النتيجة. نقول ذلك مضطرين دفاعاً عن حق عام قامت له قيامة الاطباء في مصر ولو اقتصر الامر علينا وحدنا لما نبسنا ببنت شفة لان الغاية عندنا تبرر الواسطة فنحن فيما خصّنا اول الناس في الوفاق وآخرهم في الشكوى.

الدكتور شبلي شميل

كلّنا أمير فَمَن يسوق الحمير

[الأهرام: ١٣ يوليو (تموز) ١٩٠١]

كانت لي جدّة عجوز أقعدها الكبر عن الجد وغرسها طول العمر في البيت واهنة اليد وحصر ما كان فيها من خفة الشباب ونشاط الصبا وقوة الكهولة وطمح الشيخوخة في لسان هو الصام أو أحَدّ يعظ بضرب الأمثال وما مرّ من حوادث الأيام والليال وكنت صبياً تلهيني بحكاياتها وكثرة مروياتها المترادفة المتتابعة المتسلسلة المتعاقبة الآخذ بعضها برقاب بعض فلا يعرف حرّ وجهي حرّ الشمس ونافح الهواء اذا جالستها السماع قصصها وما تسوقه إليَّ من متسلسل الحكايات التي غرس في الصدر منها الكثير فهو يتردد في الذاكرة آناً بعد آن اذا استثاره حادث أو استعادته رواية. وقد ذكرت اليوم من أقوالها، والشيء بالشيء يذكر، إني فكرت يوماً بفقري وأنا الطفل لا أملك لبن أمي وبغنى أبي وهو الرجل الكبير يملك قوتي وقوته وبيتي وبيته

فقلت لها: «أيتها الجدّة، ما ضرّ الخالق لو خلق الناس كلهم أغنياء فكانوا في الثروة سواء فلا نرى جيدا عاطلاً وعنقاً مثقلاً بالحلي وشخصاً فقيراً يموت من الطوي وآخر غنياً يموت من البطنة» فأجابتني بعد حكاية طويلة عن نبي سأل ربه هذا السؤال لقومه فأجاب سؤاله واغدق عليهم الخير والدر سحائب حتى صاروا كلهم الأغنياء المثرين المكتظة اهراءُهم بالحنطة وخزاناتهم بالمال وخيامهم بالاردية والملابس ومعاطنهم بالابل ومرابطهم بالمواشي والأنعام، الخ. فأرسل الله عليهم هامراً من السيل وجارفاً من الأمطار حمل المواشي والاثاث ودخل المنازل وهدم الدور ودك الجدران فأخذ كل واحد من القوم يستغيث بجاره فلا يغيثه ويعرض ماله فداء نفسه فلا يجد منقذاً. فرقى النبي الى ربوق وقال: رباه نجّ قومي فإن الطوفان أغرقهم وأرسل من عندك من يصون بمالهم ملكهم وعيالهم. فأجابه صوت من أعالي السموات، أيها النبي، انا ما خلقنا شيئاً الا لحكمة وما أجبنا سؤالك وأرسلنا السيل هامراً على قومك إلا عبرة لهم ولك. قال: ربي أستغفرك لي ولهم انك توّاب رحيم فاعدهم فئات يساند بعضهم بعضاً واجعل لكلّ واحد درجة يؤازر منها أخاه. رباه انا نعترف بحكمتك، فهم اذا كانوا اغنياء فسدوا كما لو كانوا كلهم فقراءَ. فحبس الله عنهم المطر وقد غرق مال بعضهم وسلم مال الآخرين وانقسموا فئات منهم الفقير يخدم الغني والحقير يخدم الكبير، هذه هي حكاية جدتي العجوز اختتمها بقولها: أما سمعت يا نبي قولهم: أنا أمير وأنت أمير، فمن يسوق الحمير. فلا بد للدنيا وقيام نظام الكون من غني وفقير وعالم وجاهل.

فوددت اليوم لو ان اطباءنا الفضلاء وعيال على جدتي هذه يجالسونها ساعة ليسمعوا منها حكمة كهذه علّهم يتعظون فلا نرى منهم ما نراه اليوم من شقاق وخلاف وتباين آراءٍ وتضارب اهواء على المؤتمر الطبي الذي سيعقد في القاهرة في اول العام الآتي. فاني آنست من كل واحد منهم حتى الساعة نزوعاً الى الرئاسة أو التقدم اكثر منه إلى الاستفادة والإفادة. فكلّهم يريد ان يكون الأمير فلم يبقَ غير الذين لا يعرفون الطب مثلي لسوق الحمي أو هم على قول أحد الكتاب يريدون ان يكونوا جميعاً رؤوساً كجوالق البصل مع اني قرأت في الأهرام ان الرؤساء كثيرون واذا استحق المؤتمر الطبي لوماً فلانه اكثر من توزيع الألقاب. ففي القاهرة نحو من ٣٠٠ طبيب وفي الاسكندرية ١٥٠ طبيباً وفي الأرياف عدد يماثل هذا العدد ولكن عدد الذين تألفت منهم لجنة المؤتمر ٦٦ شخصاً منهم ٣ رؤساء شرف و٤ رؤساء و١٩ نائب رئيس و١٩ سكرتير و١٥ عضواً للجنة العمومية و٦ للجنة التنفيذية واثنان لامانة الصندوق وهم ١١ وطنياً و١٠ يونان و١٠ طليان و١٠ انكليز و٩ فرنساويون و١١ نمساويا والمانيا.

وأظن ان هذا العدد كاف وهذا الاختيار مرضي وإلاّ وجب ان يكون جميع الأطباء رؤساء وحينئذ يصيبهم كما قالت جدتي ـ رحمها الله ـ فإذا حضرنا المؤتمر فيكون ذلك لا لنسمع رئيساً يأمر وعضواً يعمل ومشتركاً يسمع بل يكون حضرات الاطباء كلهم آمرين ومترأسين ونكون نحن الأذلاء المرؤوسين.

فما تشكون يا ابناء بقراط؟ أاقفات أبواب المؤتمر في وجهكم؟ أحرم عليكم أن تشتركوا. انّا اذاً نصلي هذا المؤتمر نارا من اللوم والتعنيف ولكن خففوا عنكم ومدوا أيديكم لمساعدة المؤتمر الذي تبتهج له البلاد وتفرح ويريده سمو الامير بكل جوارحه لأنه أول مؤتمر في الشرق وفاتحة اجتماع العلماء في هذه البلاد فانه إذا صح لكم ان تختلفوا على ارواحنا اذا حشرجت وليس لكم شريك أو هو شريك لا ينطق بل يسر احياناً بالخلاف فلن يصح لكم ان تتفرق كلمتكم على أمر نحن شركاؤهم فيه ولا يسرنا إلاّ ان تتفقوا أو تجدوا من يناقشكم الحساب.

القاهرة في ١٣ يوليو سنة ١٩٠١

سقراط

ســقــراط الاهــرام

[المقطّم، ١٥ يوليو، ١٩٠١، ص ١]

ردّ على مقالة وردت في اهرام السبت الماضي بامضاء سقراط، عنوانها :
كلنا امير «فمن يسوق الحمير».

لسقراط اليونان فلسفة ولسقراط الاهرام فلسفةٌ اخرى تقرأ من عنوانها وقد لذّت له حتى تغنى بها في حقلين. ولو انعم النظر في اعتراض الاطباء على كيفية تأليف المؤتمر لكفى نفسهُ والقراء هذا العناء الذي اساء به الى نفسه لانه اظهر للجمهور انه لم يفهم حجة المعترضين او انه يسيء فهمها لغرضٍ في النفسِ تترفع عنه نفوس الحكماء. واساء الى المعترضين لانه اضرب عن اعتراضهم ونسب اليهم اموراً لم يصرحوا بها ولا في كلامهم ما يدل عليها ولا هم جهلاء حتى يعتبروها في حملتها من الممكنات. واساء الى المنتصر لهم لانه لم يدفع عنهم ما ارتكبوه في حق زملائهم من الخطأ الذي يسعهم ان يتمحلوا له الاعذار ولكن لا يسعهم انكاره. وزاد على ذلك انه طعن عليهم ضمناً بتعريضه في جمهور الاطباء عموماً عند حشرجة الارواح فكان لهم شرٌّ نصير. وقاهُ الله شرَّ المغرورين. واساء الى جمهور القراء عموماً لما ضربهُ من الامثال وسردهُ من الالفاظ التي لا يستطيع ان يدعي انها تذوب رقةً وانها من الحكمة في شيء عظيم.

فالمعترضون ـ حتى لا نضطر الى بسط ذلك مرة اخرى ـ تقتصر شكواهم على امر واحد صرحوا به في اعتراضهم المنشور في الجرائد. وملخصه ان الساعين في عقد هذا المؤتمر كان ينبغي عليهم احتراماً لحقوق اخوانهم ان يقرروا ذلك في اجتماع خصوصي يدعى اليه الاطباء عموماً ولو بافواه الجرائد للنظر فيه وانتخاب لجنة تتولى ترتيبه وانتخاب العاملين فيه لا ان يقرر «في الخفاء» على الطريقة التي سلكها الساعون فيه واقل ما فيها الاجحاف بحقوق زملائهم والاستخفاف بها. فكان يقتضي على لجنة المؤتمر وقد اقام المعترضون الحجة عليها ان تنكر عليهم هذا.

الحق او تبيِّن الاسباب التي منعتها من مراعاته لا ان تدع بعض الجرائد وصاحبنا سقراط معها يقومون للرد عليهم من كل الاوجه الا من اوجه اعتراضهم بالتقريع واللوم وكشف مكنوناتهم والاطلاع على منوياتهم حتى التهديد بالاستغناء عنهم. ومثل هذا الباب اذا انفتح اتسع المجال فيه للفريقين. ولسوء الحظ قد بدت طلائعه والحكمة كانت تقتضي تلافي هذا الامر من أول ما بدت طلائع الشكوى. ونحن نريد ان نبرىء اعضاء اللجنة من ان هذا الدفاع بايعاز منهم لاننا نجل اقدارهم ونحترم آدابهم وننزههم عن كل غاية غير الغاية التي ما فوقها غاية وهي رفع شأن اخوانهم برفع شرف صناعتهم ونرجو من جريدة الاهرام الغراء ان تكتفي بما حولها من اسماء الاحياء لئلا ترينا في المستقبل بقراطاً جديداً من طرز سقراطها فإن امثال هؤلاء الرجال الذين هم لنا قدوة في الحكمة والنزاهة في الافكار والاعمال والذين هم اليوم في مصاف الآلهة لا يجوز لنا ان نكدر عليهم رقادهم فلندعهم في قبورهم مستريحين.

الدكتور شبلي شميل
تحريراً في ١٥ يوليو ١٩٠١

من بقراط إلى سقراط

[المقطم، ١٥ يوليو، ١٩٠١]

عزيزي سقراط:

مضى علينا مئات من السنين ونحن تحت طباق الثرى وعظامنا هادئة ساكنة لا تقلقها مناقشة ولا تزعجها مناوشة على أني رأيتك اليوم قد انتفضت بعد تلك الرقدة الطويلة وشهرت القلم مع انك لم تحركه في حياتك كلها إذ كنت تترك الكتابة لتلاميذك. فسألت ما الذي هاج ساكتك ونهض بك من مرقدك. أحقيقة خطرت لك في سر التوحيد أم بارقة لاحت لك في أمر الخلود أم شيء آخر من هذا القبيل مما استغرق حياتك بحثاً وتنقيباً. فقيل لي بل ان سقراط ربّ الفلسفة نبذ الفلسفة جانباً وقام يحشر نفسه بين طائفة الأطباء على أثر خلاف وقع بينهم. فساءني فعلك لثلاثة أسباب: **أولها**: خفّة بدت منك لا تليق برزانتك ورصانتك وأنت الذي كنت لا تهتز يوم كانت امرأتك ترميك بسائل غير ماء الزهر والورد. **وثانيها**: اعتداؤك عليَّ ودخولك في دائرة اختصاصي ويسهل عليَّ أن اقتصّ منك فأحدثك في أمر الخلود والتوحيد حديثاً تنتفض له عظامك ولكني لا أفعل لأني لا أحب أن أتعدى على أحد كما أني لا أريد أن يتعدى أحد عليَّ. **وثالثها**: تعريضك بابن عزيز عليَّ اتهمته بطلب الشهرة وهو الشهير المعروف الذي برَّ بي وترجم كتبي إلى لغة العرب وأنشأ مجلة الشفاء التي نشرت اسمه في الأقطار واكسبته في صناعتي الطب والقلم شهرة تتطاول إليها الأعناق حتى لم يبق له مطمع في بعد ذكر أو انتشار صيت أو أمر آخر اللهم ان لم يكن إلى ألوف من الجنيهات ليرجعها فوراً من حيث أتت. وهذا الأمر الثالث هو الذي دفعني إلى هذا الاعتراض ولولاه لظللت في سباتي وتركت الأحياء يناقشون الأحياء، كما ترك يسوع الناصري الموتى يدفنون موتاهم.

هذا وأنا على وشك الانتهاء من هذا التحرير حضر رصيفك في الفلسفة بيدبا الهندي وهو يهدي إليك جزيل السلام ويكلفني ان أبلغك أمراً يشق عليَّ ابلاغه. على أن الأمانة من الايمان. فهو يقول لك انك إذا رأيت الأطباء مختلفين متعاكسين متشاكين فافرح وسرَّ لأن اشتغال بعضهم ببعض يُشغلهم عن الناس وفي ذلك خير للناس عميم. وفي زعمه انه لو اغتنمت مصلحة الصحة هذه الفرصة ودققت في احصاء الوفيات لوجدت انها اليوم أقلّ جداً مما كانت عليه يوم كان الأطباء على وفاق ووئام. ومما يعزّيني عن هذا البلاغ ان ما قاله رصيفك بيدبا عن الأطباء يقال أيضاً في جماعة القضاة والمحامين والسياسيين والقسيسين والسلام.

(محل الختم) — أخوكم بقراط

ورد صباح تاريخ من دار البقاء إلى دار الفناء

يوسف الخازن

مصر القاهرة في ١٥ يوليو سنة ١٩٠١

رسالة من الدكتور ابات باشا
حول المؤتمر الطبي المصري

[المقطم، ١٥ يوليو، ١٩٠١]

حضرات الأفاضل اصحاب المقطم

ارجو ان تتكرموا بنشر هذا الرد الذي إضطررت ان اردهُ على احتجاج نشر في عدد ١٢ يوليو من جريدة «البروجريه» بامضاء ٣٥ طبيباً نظراً الى كوني رئيس المؤتمر المصري الطبي الأول فاكون لفضلكم من الشاكرين.

مضي عليَّ خمسون سنة وانا مقيم في القطر المصري وقد انتخبت رئيساً للجمعيَّة الطبيَّة في مصر القاهرة منذ خمس سنوات ومعاشرتي لمعشر الأطباءِ في مصر متواصلة دائمة. ومع ذلك فلست اعرف طبيباً واحداً من ٢٥ طبيباً امضوا ذلك الاحتجاج. واما العشرة الباقون فهم من اعضاءِ الجمعية الطبية ولكنهم الاقلية الصغرى فيها لوجود ستين عضواً آخرين فيها.

هذا من جهة اشخاص الذين امضوا ذلك الاحتجاج الفارغ ولم نكن لنعبأ باحتجاجهم لولا التعريض الذي ورد فيهِ عن سوءِ نية حيث اتهموا الذين شرعوا في هذا المؤتمر بانهم يقصدون منهُ استدرار النفع لأنفسهم فخدعوا الحكومة واخفوا عنها كيفيَّة تاليف مجلس موظفي المؤتمر.

فأنا اشدد النكير على هذه الدعوى الكاذبة فان الأطباءَ امضوا ذلك الاحتجاج لا يجهلون ان الذي خدم مصر منذ نصف قرن يأنف من المشاركة في امر كهذا.

نعم ان اللجنة التي بدأت بالمؤتمر لم تجعل الحكومة تعتقد انها ستحقق الأمر الوهمي الذي لا يتيسر تحقيقهُ وهو ان تجمع جميع اطباءِ مصر لاختيار موظفي المؤتمر منهم. اننا لم نعرض على الحكومة امراً وهميًا كهذا وانما اخبرناها باسماءِ اوجه الاطباء المختلفي الجنسيَّة المنتخبين على نسب متساوية بقدر الامكان واعربنا عن املنا ان مجلس موظفي المؤتمر يؤلف منهم فصادقت الحكومة على ذلك تمام المصادقة.

فإن كان قوم من الناقمين يأبون اليوم الانضمام الى نخبة اطباءِ مصر فذلك لا يهمّنا كثيراً لانهُ من خصائصهم لا من خصائصنا. ولكن يشقّ علينا ان قوماً من الاطباءِ يقدّمون أمر المناظرات والمنافسات التي تكون بين أهل الصناعة الواحدة على الاهتمام بامر العلم الذي يجب ان يكون بمنزلة العبادة عندهم وعلى تضحية كل مرتخص وغالٍ في سبيل المصلحة العموميَّة التي يجب ان تكون غاية مطامعهم. واقول بالاصالة عن نفسي والنيابة عن مجلس موظفي المؤتمر اننا لا نقصد بهِ خدمة شخص من الأشخاص ولا حزب من الأحزاب بل ان غرضنا الوحيد منهُ عمل ما يكون مفيداً صالحاً حميداً وهو السعي في ترقية العلم بما في طاقتنا وعلى قدر مقدرتنا وتحسين الصحة العموميَّة في هذه الديار المصريَّة التي هي لنا بمنزلة الوطن الثاني وساحة الجهاد والقتال وذروة الانتصار ان شاءَ الله.

هذا ولست أقصد بما تقدم توسيع الخرق والقاءَ الشقاق وإنما اقصد تسكين الخواطر وتوطيد السكينة والسلام إذا كان ذلك في الامكان ويقيني اننا ما دمنا قد اقدمنا على هذا الأمر

غيرِ مترددين التردد الذي كان يضعفنا فيه فاننا قد ألينا على انفسنا ان نفرغ كل قوتنا وجهدنا فلنطرح عنا الأمور الذميمة ولا نترك احكام الاهواء تتغلب فينا على احكام العقول. فاين الروح الذي يمتاز به اولئك الذين نسميهم رصفاءَ لنترك الماديات ونطلب الأدبيات. فان الأدبي هو الذي يحمل الإنسان على التساهل والتسامح والاتحاد.

هذا ما اقولهُ اولاً وآخراً ردًّا على احتجاج الذين اعترضوا على المؤتمر وعلى اقوال الذين يحتمل انهم يتسلون بالاحتجاج عليهِ ايضاً ولست اعود الى ذلك فيما بعد.

الدكتور ابات باشا

فصل الخطاب

[المقطّم، ١٨ يوليو، ١٩٠١ ص ٢]

حضرات الافاضل اصحاب المقطم المحترمين.

بعد السلام ارجو من حضرتكم نشر ما يأتي ولكم الفضل.

نشر المدعو سقراط مقالةً تحت عنوان «ا. ب» في عدد يوم الثلاثاء بتاريخ ١٦ الجاري من جريدة الاهرام الغراء اعتبرناها في جملتها مسيئة بنا فكتبنا الى الجريدة المذكورة بتاريخ امس صباحاً الكتاب الآتي:

الى ادارة جريدة الاهرام الغراء

بعد السلام اقول انكم نشرتم في اهرام امس رداً عليَّ من كاتب يدعى سقراط وبما ان ردَّهُ لا يخلو من مطاعن شخصيَّة لا يسعني السكوت عنها ولا يجوز له بعدها ان يبقى مستتراً تحت هذا الاسم الوهمي فارجوكم ان تصرحوا لي باسمه الحقيقي او تخبروني عن المسأول عنه واقبلوا فائق احترامي.

مصر في ١٧ يوليو سنة ١٩٠١

الامضاء

فكتبت الأهرام في العدد الذي صدر أمس تحت عنوان المؤتمر الطبي ما يأتي:

«أما المناقشة التي دارت بين «سقراط» وحضرة الدكتور الفاضل شبلي أفندي شميل فإنّا نختمها بكلمة واحدة وهي إنّا نعرف الدكتور شميل رجل الفضل والعلم والمبدأ لا غاية له غير نصرة زملائه الأطباء والمحافظة على مبداه دون جرّ مغنم ولا مقصد غير ما قدمناه. وهو ما يشكر عليه. فالرسائل التي جاءت في الأهرام بهذا الشأن قد ضربنا صفحاً عنها».

فالأهرام لم تجد من المناسب ان تصرح باسم سقراط وكتبت ما تقدم فكأنها تحملت المسؤولية عنه وأتت بهذه الترضية ونحن نقبل ذلك منها ونعتبر أن الخلاف قد انحسم ولولا انها أغفلت ذكر الكتاب الذي بعثنا به إليها لما أتينا على هذا البيان. واقبلوا فائق احترامي.

الدكتور

شبلي شميل

في ١٨ يوليو سنة ١٩٠١

المؤتمر الطّبي

[المقطّم، ٢٢ يوليو، ١٩٠١، ص ١ و٢].

من ضروب التهويل التي لجأ اليها المؤتمرون هذه المرة ـ وهو لعمر الحق منتهى التضليل ـ ما جاء في احدى الجرائد المنتصرة لهم قالت: «ومن العجب العجاب ان بعض الاطباء المستخدمين في الحكومة يحتّون على هذا المشروع الذي نال رضى الحكومة ومساعدتها».

ماذا تريد بهذا القول؟ أتريد ان تلقي الرعب في قلوب الاطباء الذين هم في خدمة الحكومة وتهدّدهم ضمناً بالفصل والعزل؟ وهو كلام في منتهى الغرور. ففي اي عقل تريد ان تدخل ان الطبيب المستخدم في الحكومة لا يجوز له ان يحافظ على استقلاله في غير وظيفته وان يدافع عن حقوقه العمومية؟ ألا يخشى ناشروا هذا الكلام في الصحف من مؤاخذة العالم المتمدن الذي لا تنطلي عليه مثل هذه السفاسف؟ فإن كانوا لا يسألون عن حكم الناس فيهم فالبلاد التي ينشر ذلك فيها هل تسمح بان تظهر للجمهور بالمظهر الذي يمثلها به مثل هذا القول؟ بل أيّ دخل للحكومة في مشروع حرّ كهذا قائم على رضى جمهور الاطباء الذين هم اساسهُ الوحيد غير دخل سائر الحكومات في الدنيا وهو المصادقة والمساعدة. فالحكومة اذا كانت فعلت ذلك لغاية الآن فلأنها ظنت ان المؤتمرين الذين تقدموا لها ينوبون عن جمهور الاطباء ويعربون عن رضاهم اذ لا يدخل في ذهنها انهم يتقدمون اليها بمثل هذا الطلب.

الحكومة والمؤتمر الطبّي

[المقطّم، ٦ اغسطس (آب) ١٩٠١، ص ٢].

صادق مجلس النظار على تأليف المؤتمر الطبّي وعلى تعيين لجانه وبيان اعماله فقال قوم قطعت جهينة قول كل خطب ـ وقال آخرون بل ان اطباء العمران وقعوا في نفس الخطأ الذي ارتكبته فئةٌ صغيرة من اطباء الابدان. وذهب فريق الى ان خطأ الاولين اعظم من خطأ الآخرين يكن عن ذهول منهم فقد يكون عن غرور وان لم يكن عن غرور فقد يكون عن قصد يلتمسون من ورائه جرَّ منفعة. ففي خطأ انما هم يخدمون انفسهم او غاياتهم ولكن اين عذر الحكومة في تسخيرها نفسها لقضاء او طار قوم وإحباط مساعي آخرين عوضاً عن اصلاح ذات البين بينهم ولو كان في ذلك ما يحسم الخلاف ويدعو الى الوفاق او يطفىء النار المشتعلة ولو بالعدول عن جادَّة الحق لحمدنا المسعي ولكن اين ذلك مما نرى فكأن الحكومة بفعلها هذا قد صبَّت زيتاً على نار موقدة فزادتها اشتعالاً ووسعت الخرق وهي التي كان يطلب منها رتق الفتق. وفي يوم واحد ارتكبت خطأين واوقعت في المحتجين اهانتين مصادقتها على تعيين لجان المؤتمر ورفضها قبول عريضة احتجاجهم. فاظهرت بذلك من عدم الاكتراث بهم وعدم الاعتداد بموضوع احتجاجهم ما لا يليق بحكومة دستورية في عصر الحرية. ولو كان ذلك جائزاً لما قبل العريضة منهم نائب. تمد أعظم دول الارض في احترام الحقوق الشخصية. ولكن ما العمل وحرية اهل الشرق مغتصبة لا «مكتسبة» غير طبيعية لا يستطيع الحاكم مهما ارتقت حكومته الانصياع لها ولا المحكوم مهما بلغت حريته العمل بها. واي برهان تريده على ذلك أعظم من قلة عدد المحتجّين

من الاطباء الوطنيين مع ان الجانب الاعظم منهم مستاؤون ويحق لهم الاستياء لان حقوقهم اهتضمت اكثر من حقوق سواهم فان المال مالهم والبلاد بلادهم والمؤتمر مسمى باسمهم ولم يتح لهم الحظ بان يكون الرئيس منهم لا لانهم غير شاعرين بهذا الاهتضام ولكنهم لا يجسرون ولا يثقون بان الحكومة تصغي لهم وربما صادرتهم كما جرى للمحتجين من الاطباء المستخدمين. فالصمت حفظاً للكرامة اولى من الشكوى لئلا تزيد الاهانة.

وربما عدَّ بعض الذين يأخذون الاشياء بظواهرها من المنتصرين للجان المؤمر ان المحتجين متحملون لغايات في النفس مغالون في طلب حق موهوم فلا يجوز الاهتمام بشكواهم الى الحد الذي أوصلوها اليه. وهذا هو سبب اندفاع بعض الجرائد عليهم باللوم ولا شك انه هو السبب الذي لاجله صادفوا من جانب الحكومة هذا الاعراض. اما من جهة التحمل فربما صدق على البعض ولا نحب ان ننفيه نفياً تاماً لئلا نرمي بالانحياز الى فريق دون آخر بعامل الغرض. واما من جهة الحق فهذا من المباحث الاجتماعية والحقوق الشخصية التي لا يجوز لشعب طامع في الارتقاء ان يهمل النظر فيها لان الشعب الذي لا تكون فيه حاسة الحق الشخصي الادبي نامية لا يعدُّ شعباً مرتقياً فلا يلام شعبٌ او افراد قليلون اذا جاهروا بهذا الحق بل يلامون اذا ادركوهُ وتقاعدوا عنه لان ذلك يعدُّ منهم جبناً والجبن هنا من صفات الانحطاط.

والمحتجون هل لهم الحق في الاعتراض على كيفية تأليف هذا المؤتمر وهل يجب الاصغاء لشكواهم ـ مسألتان لا بدَّ من بسطهما بسطاً كافياً لحلهما حلاً شافياً يسهل على أولي الامر وضع حد لهذا النزاع الذي طال امره وأوشك ان يجر الى ما لا تحمد عقباهُ.

وقبل كل شيء يلزم القول بانه ما من احد من المعترضين يعترض على المؤتمر نفسه بل على كيفية تأليف لجانه. ولقائل يقول ان هذا المؤتمر ليس الوحيد في بابه فلماذا لا نجتهد في حل مسألته بالقياس على سائر المؤتمرات التي من نوعه والتي نراها او نسمع عنها في اوربا واميركا. والحق يقال انه يصعب تطبيقه عليها فالمؤتمرات الطبية التي تقام في اوربا كانكلترا او فرنسا او المانيا هي مؤتمرات تمثل البلاد وطبها واطباءها لا يشوبها عنصر غريب ويقوم بها غالباً بضعة إحاد لهم مراكز علمية معدودة ومعترف بها يمثلون بها طب بلادهم واطباءها. اما مؤتمرنا وان يكن اسمه مصرياً فهو بالحقيقة لا يمثل البلاد ولا يمثل طبها ولا اطباءها والاَّ اقتضى ان يكون مؤلفاً كله من اطباء مصريين ولا يمثل هيئتها الحاكمة بصفتها المختلطة والاَّ لاقتضى ان يكون مؤلفاً من اطباء مصريين وانكليز فقط. وفي هاتين الهيئتين لم يكن يجد معترضاً خصوصاً من الاطباء الاجانب فبقي انه مؤتمر يمثل طائفة الاطباء الذين يمارسون الطب في القطر المصري وهم من اجناس مختلفة ومصالح مختلفة ولا يمكن انه يمثلهم الا برضاهم وهذا لا يكون الا بالانتخاب.

واذ قد تبين ذلك نقول ان الحكومة كان يلزمها ان تتروى جيداً في هذه النقطة المهمة من المسألة قبل ان تصدر قرارها بتأييد لجان هذا المؤتمر ضد حق واضح فان حق المحتجّين لا يجوز لاحد ان ينكرهُ عليهم او يصادرهم فيه بل كان ينبغي عليها ان تساعدهم لتأييده لكي تنمي هذه الحاسه في عواطف الامة فان في انماء هذه الحاسة فيها فائدة اجتماعية اعظم جداً من فائدة المؤتمر نفسه في الوقت الحاضر لقلة الوسائل العلمية عندنا. ولعل الحكومة لا تعدم وسيلةً لاصلاح هذا الخطأ وجمع كلمة الاطباء لانجاح اعمال هذا المؤتمر على قدر ما تسمح به الحال.

الدكتور شبلي شميّل

هل ينجح المؤتمر

[المقطّم، ٧ اغسطس ١٩٠١، ص ١]

أبنّا في مقالة أمس ان المؤتمر الطبي المصري لا ينطبق في ترتيبه الحاضر على شيء معروف من المؤتمرات التي من نوعه والتي تقام كل سنةٍ في البلاد المتمدنة فهو لا يمثل البلاد لان الاعضاء الذين يؤلفون لجنته الرئيسيَّة ليسوا كلهم مصريين ولا صفة لهم علميَّة او رسميَّة تربطهم بمصلحة البلاد وتكسبهم هذا الحق ولا يمثل حكومتها في هيئتها المعروفة والاَّ لاقتضى ان لا يكون يدٌ لغير المحتلين في تأليف هذه اللجنة مع المصريين فهو اذاً لا يستطيع ان يدَّعي انهُ يمثل غير طائفة الاطباء الذي يمارسون صناعة الطب في القطر المصري ولكنه يمثلهم على نوع ما غصباً عنهم او من دون اقل اعتدادٍ برأيهم. وهذا امر غريب لم يسبق له نظير حتى بين طائفة الفحّامين. ولهذا قلنا ان هذا المؤتمر لا ينطبق على شيء معروف من المؤتمرات التي من نوعه. فالحكومة عوضاً عن ان تنظر الى هذه النقطة المهمة وتعترف للمحتجين بهذا الحق الادبي الاجتماعي الذي هو اقوى جداً واشرف من الحقوق الشرعيَّة المدونة في القانون وتتلافى الامر بالحسنى انحازت الى جانب المؤتمرين وايّدت خطأهم لتكسبه صفة رسميَّة لا تغتفر لتجعله فوق كل شرع بعد ان كان عرفيّاً تكفي للحكم فيه محكمة الرأي العام فقط على ان الرأي العام له سلطة ايضاً لان يحكم في اعمال الحكومة نفسها ولكنَّ اعتداد حكومات المشرق بالرأي العام لا يزيد عن اعتدادها بالحق الشخصي الادبي من الحقوق الاجتماعية التي لا يعبأ بها الاَّ الحكومات المرتقبة والشعوب المرتقية مع حفظ التكافؤ بينهما. ولا احد ينكر ان الحكومة يحق لها بقراراتها ان تجعل الشيء الغير القانوني قانونياً ولكن ذلك لا يمنع احداً من ان يسمي مثل هذا العمل مصادرة ويحق لها كذلك ان تضغط على هذا الواحد وتمنعه من ابداء مثل هذا الرأي ولكن بمصادرة اخرى ايضاً.

ولا شك ان الحكومة لم تقصد بتأييدها لجان المؤتمر الاَّ حسم هذا النزاع حرصاً على فوائد المؤتمر. على انَّا نشك جداً في ان هذا الطريق الذي سلكته توخياً لهذه الفائدة هو الطريق القويم لانَّا نخشى كثيراً ان يكون عملها هذا بتأييد اغراض فئة ضد حقوق آخرين سبباً لتجسيم الخلاف وضياع هذه الفوائد وانما قلنا «اغراض» لان الذي يوغر الى احدى الجرائد بان تكتب بعد قرار مجلس النظّار هذا الكلام: «واما نحن فقد كان انتصارنا يوم السبت» لا تصح ان تكون اعمالهُ مجردة عن «الاغراض» نذكرها بسيطة مجردة عن «النعوت» التي لا يتكلف القارىء عناءً كبيراً لتطبيقها عليها. فكأن الحكومة بتأييدها لجان هذا المؤتمر لم تخدم مصلحة المؤتمر العلميَّة بل مصلحة فئة نالت حظوة لديها.

ولقد احسنت الحكومة بالمصادقة على اقامة المؤتمر وتقديمها له المساعدة المالية. فان ذلك من خصائصها بل من واجباتها. على ان قرار مجلس النظار على تأييد لجان المؤتمر وبيان اعماله يعد غريباً في بابه لانه يترتب عليه حينئذٍ ان كل تغيير او تحوير يطرأ على هذه اللجان او لاعمال يلزمه قرارٌ آخر من مجلس النظار وهذا شيءٌ لم يسبق اليه في امر المؤتمرات وكل المشروعات التي من هذا القبيل.

ونحن نود من كل قلبنا نجاح هذا المؤتمر لانَّا وان كنا نشك في فوائده العلميَّة في الوقت

الحاضر لا لضعف في الرجال بل لقلة الوسائل العلميّة المتيسرة لنا في بلاد لم ترتقِ كثيراً من هذا القبيل بحيث لا يتيسر لها البحث الّا في الكليات وهذه لا تصحُّ الا بعد تدقيق البحث في الجزئيات الّا اننا مع ذلك نصوّب مثل هذا العمل أملاً بان يكون مقدمة لاحسن منه ودافعاً للافراد للاجتهاد وللحكومة نفسها لنشر التعليم الحقيقي واخذها بيد الباحثين لتسهيل طرق البحث عليهم والانتفاع بمواهبهم لئلا يصرفهم عدم استعداد المكان واعراضها عنهم وما يعرض لهم من العراقيل في معايشهم باسباب ذلك الى القهقرى مكتفين بقول الشاعر: «ذكاءُ المرءِ محسوبٌ عليه» ـ الّا انّا نخشى كثيراً ان الطريقة التي اتبعتها الحكومة بعد الاحتجاجات الكثيرة تكون سبباً لبلوغ هذا الخلاف مجسماً الى البلدان الاخرى فلا تفي دعوة ولو رسميَّة لازالة اثر الاحتجاجات الحقة واهل اوربا يحترمون الرأي العام ويحترمون الحقوق الشخصيَّة فيحجمون وان لم يحجموا فقد يرون هنا غير ما ينتظرون والحكمة تقتضي تدارك كل مشروع مفيد بازالة كل الاسباب التي قد تحول دون نجاحه وتكون سبباً لتكدير صفوه بالطرق التي تجمع القلوب حولهُ لا بنطاق من حديد. وما اجمل الاتفاق في جميع الاعمال الحسنة وهو وحده دليل على نبالة القصد فيها الّا ان ذلك لا يكون بتكليف جانب واحد تضحية كل حق له دون ان يمس الجانب الآخر في اقل امتيازاته بشيء. وما اسهل الاتفاق متى كانت الغاية حميدة.

الدكتور شبلي شميّل

المؤتمر وتأثيرهُ في البلاد

[المقطّم، ٩ اغسطس، ١٩٠١، ص ١].

ان لم يكن في الخلاف القائم بين الاطباء بسبب تأليف المؤتمر الّا تنبيه الافكار الى الحقوق الادبية الاجتماعية الخصوصية والعمومية وتأثيرها في الافراد والجماهير وعلاقتها باحوال الامة والحكومة ودلالتها على مبلغهما من الارتقاء لكفى به نفعاً وكفى الاطباء فجراً بانهم نافعون حتى في خطأهم. فان هذه المسألة التي طال النزاع فيها وسيطول ايضاً كما تدل عليه الظواهر قد نبّهت الافكار الى امر لم يكن احد يظن انه بالمكانة التي أوصلهُ الاطباء اليها ـ الى امر صغير في حد نفسه ربما عدّهُ جمهور ممّن لا ينرون في العواقب شيئاً تافهاً لا يجوز لعاقل ان يقف عندهُ الّا ريثما يمر على مخيلته مرَّ السحاب. ولكنَّ الاطباء الذين لهم المقام الاول في ترقية شأن البشر في العمران لا يكتفون بالوقوف عند هذا الحد مما يوغر الصدور الضيقة ويزيد الضغائن في النفوس الصغيرة، بل يعرفون كيف يستخرجون منه النفع للهيئة الاجتماعية باسرها لان علومهم الطبيَّة لارتباطها بسائر العلوم وخصوصاً العلوم الطبيعية تجعلهم قادرين على تشخيص امراض العمران كما يشخّصون امراض الابدان. واذا رجعنا الى الانقلابات التي اثّرت في الاجتماعات البشرية تأثيراً حسناً فدفعتها من السكون الى الحركة ومن الوقوف الى النهضة ومن الاستكانة في ظلال الذل والمسكنة الى المطالبة بالحقوق المهضومة، نرى ان للاطباء اليد الاولى فيها فلولا «لامتري» الذي عاش طريداً شريداً في القرن الثامن عشر لما قام فولتير وديدرو ودلامبر وغيرهم من كِبار الرجال الذين هيأوا تلك الثورة الاجتماعية التي لولاها لبقيت اوربا والعالم معاً زماناً طويلاً تحت نير الاستبداد ولما عرف المحكوم ما له من الحقوق ولا الحاكم ما عليه من الواجبات.

وقد يظن الانسان ان اسباباً صغيرة تنتج احياناً نتائج كبيرة والحال ان اعظم الانقلابات التي حدثت في الدنيا انما كانت باسباب ظاهرها كذلك. فمن كان يظن في تلك العصور المدلهمّة ان ذلك الرجل الفرد الذي لم يجرّد سيفاً ولم يجيّش جيشاً والذي كانت حريّة افكاره سبباً لشقائه في وسط نظامات طافحة بالمظالم وبين اناس لا همَّ لهم الاَّ التقرُّب بالدسائس ونصب حبائل المظاهرات لذرّ الرماد في العيون لاصطياد الناس يستطيع ان يمهد السبيل لذلك الانقلاب العظيم واطارة الشرارة التي كانت نارها على العالم برداً وسلاماً بكتاب بل بكتيِّب ليس فيه شيءٌ الاَّ احتمال كون الانسان غير ما يعتقدون.

فمسألة تأليف هذا المؤتمر ابانت للجمهور اموراً كثيراً لم يكن الانسان لولا ذلك ليدقق النظر فيها ويستجلي منها اموراً مهمة بعضها ناقص وبعضها في طور الكمون وبعضها لا يعبأ به مع كونه موجوداً ولكنه غير ذي فعل نافذ في الجموع لانه مشتّت بين المجموع كأنه لا يزال في حيز النظريات لا ينقاد اليه الحاكم ولا يعمل به المحكوم. واهم هذه الامور الرأي العام والحق الشخصي ولا يخفى ان ذلك الصوت وهذا الحق ناميان جداً ونافذان في البلدان المتمدنة على اختلاف بينها بحسب مبلغها من الارتقاء. فالامة التي لا تكون فيها هاتان الصفتان ناميتين جداً لا بد ان ينالها الحيف ولو من الحكومات التي تعترف بذلك وتراعيه حق المراعاة. والانسان بالطبع ميال الى الاثرة والظلم من شيم النفوس فان لم يجد من معارض في سبيله عاث ولم يقف في عيثه عند حد.

وقد ظهر لنا من سلوك البعض في هذا المؤتمر ان الحق الشخصي الادبي الاجتماعي في هذه البلاد اثرٌ لا يحترمه الغافل ولا يهابه المتغافل الجسور ولولا ذلك لما غفلت الاعتداد به فئة صغيرة حملها الاعتداد بنفسها على العمل بالاستئثار، ولما قابلت الاعتراض بالاهانة استغراباً عن ذهول او ايهاماً عن غرور لئلاّ توقظ باعترافها بهذا الحق الاثر الكامن منه في النفوس. ولقد وافقها البعض ممن هم واقفون امام الامة موقف المرشد مما يدل على ان هذا الحق غير نام نموَّهُ اللازم في البلاد ولولا قوَّة حجة المعترضين لخسروا دعواهم امام الجمهور الذي كان في اول الامر اميل الى جانب المعترض عليهم مستمالاً بظواهر هذا المشروع بالقياس على امثاله في البلدان الاخرى غير مراعٍ فيه احوال الزمان والمكان. واما الآن فلم يبق من منكر على المعترضين لهذا الحق حتى من خصومهم ولا سيما بعد ان ظهر للجميع ان المشروع ربما كان سابقاً اوانه لا يفيد البلاد فائدة تذكر بجانب ما يكلفها من النفقات وما اثار فيها من المشاحنات التي لا بد ان يتصل صداها الى اقصى مداهُ فيؤثر تأثيره المعروف في البلدان التي تجلُّ الحق الشخصي وتحترم الرأي العام فلا يسعها الاَّ الاعتراف بها والانقياد لها. ولا سيما اذا تنسمت ان من وراء ذلك مقاصد ربما لا تنطبق على نبالة المشروع وعرفت ان فوائده قد تقتصر على مظاهرات ومجاملات فقط على نفقة الامة. ولو كان للرأي العام في هذه البلاد تلك القوة التي له في البلدان المرتقية اكثر منا لاضطر القائمون بشأن المؤتمر الى الامتثال او الاعتزال ولما استطاعوا ان يجذبوا الحكومة الى موافقتهم على خطأهم وايقاعها الاهانة ايضاً في المعترضين عليهم. على انه وان ظهر ايضاً من هذه الحادثة ضعف الرأي العام الاَّ انه ظهر ايضاً من التأثير الذي اثَّرته فيه احتجاجات المحتجين انه لا يبعد لزمن الذي يصير له بيننا شأن عظيم وربما لا يطول حتى يظهر اثره في الحكومة نفسها فتعمد الى اصلاح ما وقع من الخطأ ويكون ذلك العمل مقدمة

لاصلاح اهم من الاصلاحات المعروفة حتى اليوم يتناول قلب الامة نفسها فترتفع معه حاساتها الادبية وتتأيدبه حقوقها الاجتماعية. والمنافع المادية التي تترتب على ذلك لا تقف عند حد في العلوم والصنائع فتنتقل من حالتها الاثرية وبهرجتها الظاهرة الى حالة تمدن حقيقي تصير فيه قادرة بمصنوعاتها واكتشافاتها واختراعاتها ان تلبس ثوباً منسوجاً في معاملها وتخيطه بابرة مصنوعة في مصانعها وتصبح اقامة المؤتمرات حينئذٍ نافعة لفائدة العلم الحقيقي ويكون ذلك مقدمة لنهضة جديدة الفضل فيها للاطباء المخطئين والمتحجين على حدٍّ سوى. ولا غلو في ذلك فان الاسباب الصغيرة كما تقدم قد تنتج نتائج كبيرة.

الدكتور شبلي شميل

أهـذا خبركـم في مصـركـم

[المقطّم، ١٤ اغسطس، ١٩٠١ ص ١ و٢].

الحديث ذو شجون. ولكن من يقرأ ومن يسمع. على اني اخط حبراً على ورق ان لم اقل اكتب على صفحات الماء قانعاً من الجزاء باثر المداد الذي يبقى على اصبعي بعد التحرير وما اجمل القناعة لو كان الناس يعلمون.

«الكتب غذاء النفوس»، عبارة وجيزة اللفظ كثيرة المعنى كتبها المصريون (الاقدمون) على باب اول دار جمعوا فيها الكتب وارسلوها بين الملأ حكمة دلّوا بها على ان النفوس تجوع كالاجساد والعلوم والآداب طعامها وشرابها. هذا كان سرّ نجاحهم في تلك العصور الخوالي وبه صارت مصر منتجعاً لفلاسفة اليونان يؤمونها لارتياد العلم من شاسع الاقطار. قال تيودروس المؤرخ بل انه كتبوا: «هنا طِبُّ العقول»، وهو قول لا يقلّ عن القول الاول بلاغفة».

هذا قول المقتطف الاغر في بعض اعداده. اما انا فاقول ألاّ رَحَم الله تلك الايام الخالية. . .

ينكرون على اللجنة الاولى استبدادها في العمل ويطالبونها بالاهانة التي لحقت بهم من كتاب رئيسها فاما انهم مخطئون فان كانوا مصيبين فإقالة الرئيس وحده لا تكفي لان الخطأ انما هو في كيفيّة تأليف اللجنة كلها ولا ترد الاهانة لان اللجنة لا يسعها ان تتنصل من تبعة كتاب رئيسها فان كانت قد ظنت انها بذلك تنجي سفينتها من الغرق كما فعل اصحاب يونان اذ زجوهُ في اليمّ. فهي في خطأ.

فالمحتجون لا يهمهم الاشخاص ولا يهمهم الاَّ المبدأ فهم لا يزالون مقيمين على احتجاجهم مطالبين بحقوقهم بكل الوسائل التي لهم ولا يرجعون عن المطالبة بها حَتى تجري الامور مجراها القانوني الاَّ اذا شاءت الحكومة ان تضع حداً لذلك وتجعل تأليف هذا المؤتمر فوق كل اعتراض بتأليف لجنته من اطبائها الخصوصيين لا بمصادقتها عليه كما هو والاَّ لزمها ان ترجع فيه الى الانتخاب اذا كانت تحترم الرأي العام وتجل الحقوق الشخصية وتحب حسم هذا النزاع بالعدل والانصاف بعد ان بلغ مبلغه المعروف وترغب حقيقة في اقامة مؤتمر تكون منه بعض الفائدة للبلاد.

الدكتور شبلي شميّل

المؤتمـر الطـبّـي والحكـومـة

[المقطّم، ١٥ اغسطس، ١٩٠١، ص ١]

حضرات الافاضل اصحاب المقطم المحترمين

قرأت اليوم في مقطمكم الاغر ان وفداً من الاطباء المحتجين توجه اليوم الى الوكالة البريطانية حيث قابل جناب السر رنال رود وكلّمه في مسألة كيفية تأليف المؤتمر وان جنابه اعتذر عن التعرُّض لامر يراه متعذراً الآن. واستنتجتم من ذلك ان جنابه يأبى ان يتداخل الآن في الامر بصفة رسمية كما انه لم يكن له هذا الدخل من اول الامر. والذي يستنتج من ذلك ان الوكالة البريطانية لا تنكر هذا الحق على المحتجين ولكنها لا تريد في الحاضر ان تتداخل مع الحكومة في امر قرَّرته من دون ان يكون لهذه الوكالة ادنى دخل معها فيه.

على ان المسألة بسيطة لا يلزم لحلها الاَّ الاعتراف بالحق سواءً كان من جانب لجنة المؤتمر او من جانب الحكومة نفسها. وهذا الحق لم يبق احدٌ يجهله لا من العامة ولا من الخاصة فكلٌ يعلم ان كل طائفة لا يجوز لواحد منها او لاكثر من واحد ان يدَّعي انه يمثلها وينوب عنها ويتكلم بلسانها الاَّ اذا منحته هي - اي هذه الطائفة - هذا الحق. فانتحال هذا الحق بالخديعة او بالقوة او بأيَّة طريقة كانت يُعدّ تعدياً لا يعوَّل عليه خصوصاً اذا وجد من يعترض عليه. وفي مثل هذا المقام كل من يحترم حقوق الجمهور لا يسعه الاَّ الاعتزال. فاذا كانت لجنة المؤتمر لغاية هذا اليوم لم تعتزل مع انكار الجمهور عليها هذه الصفة التي انتحلتها لنفسها استبداداً من دون اخذ رأي اصحاب الشأن فيها، اي من دون انتخاب قانوني فلأنها لا تحترم هذا الجمهور وليس لان لها وجهاً يسوّغ لها البقاء في هذا المركز الذي يعد بقاؤها فيه تعدّياً على حقوق الجمهور ولا يحق لاحد في هذا المقام ان يسلب هذا الحق من الجمهور ويهبه لفرد او افراد معينين ولو انه الحكومة. خذ طائفة غير طائفة الاطباء كطائفة المحامين مثلاً فهل يجوز لفئة صغيرة او كبيرة ان تدعي انها تمثل سائر الطائفة ان لم تهبها هي نفسها - اي هذه الطائفة - هذا الحق. كلاَّ. واذا لم يجز ذلك فهل يجوز للحكومة حينئذٍ ان تتداخل في الامر وتؤيد هذه الفئة بالرغم عن معارضة اصحاب الشأن فيه. فمن البديهي انه لا يجوز. فمصادقة الحكومة على لجنة المؤتمر الطبي حيف لا نظير له حتى في عصور الاستبداد ولم يسبق بعد لحكومة من حكومات الدنيا ان تتداخل مثلما تداخلت حكومتنا في مشروع علمي حرّ خارج بالكلية عن اختصاصات الدوائر الرسمية ومتعلق بطائفة معلومة لها هي الحق وحدها في تدبير شؤونه وما الذي كان يجبرها على ذلك يا ترى. فاذا كانت الحكومة قد اخطأت والحكومات كسائر الناس غير معصومة عن الخطأ ففي اي شرع لا يجوز الرجوع في هذا الخطأ لاصلاحه. على ان الرجوع في الخطأ لاصلاحه اذا كان يعد من الافراد عملاً شريفاً فهو من الحكومات يعد أشرف واجلّ ايضاً. واقبلوا فائق احترامي.

مصر في ١٥ اغسطس ١٩٠١ — الدكتور شبلي شميّل

السير الى الامام

المقطم ١٩٠٨/١/١٥

حضرات الأفاضل أصحاب المُقَطم المحترمين

قرأت في أخبار الاستانة أن في نية حكومتنا أن تستعين بأوروبا لإنشاء محاكم في البلاد العثمانية على نسق المحاكم المختلطة في مصر. فأرجو من صميم قلبي أن لا ينفذ هذا الفكر لا حرصاً على استقلال البلاد فقط بل خوفاً مما يكون له من الأثر الاجتماعي السيء خصوصاً وأفكاري في ذلك معلومة.

فإن كان القصد من ذلك إزالة الامتيازات فهو لم يزلها من مصر وإن كان القصد إقامة العدل فليبحثوا عن أعدل الطرق وأقربها منالاً وأقلها ضرراً ولا يندفعوا بكليتهم اندفاعاً أعمى للتشبّه بأوروبا في كل نظاماتها مع ما فيها من النقص. وماذا يمنعنا من أن نجعل نظاماتنا أرقى من نظامات أوروبا ونحن في طور النشوء يسهل علينا ذلك ويجعلنا في مأمن من السقوط في العثرات التي سقط فيها سوانا باتخاذ هذا السوى مرشداً وعبرة معاً.

ولماذا لا نتشبّه بعض الشيء باليابانيين أنفسهم فكأني بهم ينتخبون من نظامات أوروبا أحسنها ويعدّلونه مطابقة لأحوال البلاد ومراعاة لروح العصر ويحفظون معه استقلالهم. ونحن في مقام إذا عرفنا كيف نسير فيه لا يصعب علينا أن نفضلهم جميعاً في ذلك. فلنستعن برجال أوروبا إذا لزم الحال ولكن ليكن لنا متسع لنجعل نظاماتنا أرقى أيضاً. لئلا نتمسك بأهداب نظام لا يلبث أن يغدو عقبة كبرى في سبيلنا. فالانسان في الاجتماع مهما كان ماضيه لا يجوز له أن ينظر إليه إلاّ ليعتبر به فقط. وأما غايته العظمى التي يجب أن يضعها نصب عينيه فلتكن دائماً «السير إلى الأمام».

شبلي شميل

أجهل أم جبن أم نفاق

[المقطم، ٣ أغسطس (آب) ١٩٠٨].

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم المحترمين:

أرجو ان تنشروا ما يأتي باسمي وعلى مسؤوليتي ودمتم:

قرأت أمس في المؤيد: «ان سعادة صاحبه خطب في بيروت خطبة ضافية في احتفال الأهالي العام شارحاً الحكومة النيابية فصفقوا له كثيراً وحملوه على الأكف». فقلت هذا ما كنت انتظره من مواطني في اعلاء شأن الضيف واكرام أهل الفضل.

ثم قرأت في الختام: «ان الجمهور ميال إلى السلطان»، وليس من كلمة اطراء للجيش العثماني الحر ولضباطه البواسل فقلت: أجهلٌ من القومِ أم نفاق.

وقرأت في الجريدة «ان سعادة الشيخ خطب وأغرق في مدح السلطان فاستاء الحاضرون». فقلت: هذا أقل ما كنت أتوقعه منهم.

وقرأت لمكاتب البصير في العاصمة في وصف حفلة برنتانيا «إن العثمانيين في القاهرة اجتمعوا ليؤدوا فروض الشكر لجلالة السلطان على منحه الدستور» فقلت: انظر كيف يكتب التاريخ.

وقرأت تلغرافاً لجمعية سورية خيرية: «بعرض فروض العبودية لجلالة السلطان لتنازله ومنحه الدستور» فقلت: قاتل الله حب الظهور بلا روية ولو كان بكسر ميزاب العين.

وقرأت في المقطم «ان السوريين في احدى مدن القطر عقدوا النية على ان يحتفلوا احتفالاً باهراً بعيد الجلوس الهمايوني». فقلت: مسكين الدستور، ومساكين رجال الاصلاح، ورجال الجيش. ماذا أبقوا لعيد ٢٤ يوليو؟ ولعلّهم أبقوا الاحتفال به للجواسيس.

ثم قرأت في تلغرافات الاستانة: «ان الرأي العام شديد ضد السلطان في أدرنة التي هي مركز الفليق الثاني فإن الأهالي مزقوا اعلانات نشرت فيها عبارات الولاء والاخلاص لجلالته وعقد اجتماع في حديقة عمومية احتجاجاً على الدعاء والهتاف له وأرسلت تلغرافات إلى الاستانة قيل فيها ان الجيش لا يطيق التلاعب بالدستور». فقلت: حيّا الله القوم هناك، وحيّا رجال الفليق الثاني. هؤلاء هم حماة الدستور والخليقون به.

مضى على الأمة العثمانية ٣٢ سنة وحكومتها في يد أعوان السلطان من رجال السوء فقامت للجاسوسية دولة لم يشهد لها مثيل في التاريخ وأقتم جو البلاد بعصر المظالم وقُتل وزُجّ في أعماق السجون عشرات الألوف من المظلومين ونفي مئات الألوف من الأبرياء وصودروا في أموالهم واعراضهم وتشتت في أربعة أقطار الدنيا مئات الألوف من الناس هرباً من الظلم وانتشرت دولة اللصوصية الرسمية في عرض البلاد وطولها. وسلخ من البلاد أكثر من ثلثها واشتريت رؤوس الرجال المصلحين لا ببذر الأموال فقط بل بولايات كاملة بأمّها وأبيها واشتري حلفاء الظلم بكل مرتخص وغال ومعرقل للاستقلال واتخذ من اختلاف عناصر الأمة سلاح للتفريق بينها حتى لا تجتمع لها كلمة. وناهيك بأمة تتكلم بزهاء ثلاث عشرة لغة وتدين بكل الأديان بما فيها من الملل والنحل والشيع والمذاهب. كل ذلك لكي يتمتع رجل واحد بما يظن ان

سعادته لا تتم بدونه مع نفر من المقربين إليه حتى انحطت نفوس الأمة وأصبحت مضغة في أفواه سائر الأمم.

هذا هو العصر الحمدي [الحميدي] الأنور الذي تغنت به ألسنة الشعراء وهذت بذكره أقلام الكتاب مدة ٣٣ سنة. غفر لهم، وأين عصر تيمورلنك ونيرون منه. ولولا اعجوبة من أكبر عجائب الدهر هي احدى مفاخر القرن العشرين لكان مصير هذه الأمة إلى الدمار.

أقول اعجوبة لأنه لم يكن من الممكن ان يتم للأمة العثمانية ما تمَّ لها اليوم بمحضٍ ارادتها لتفرق عناصرها واستحالة اجتماع كلمتها بسبب ذلك. ولم يكن يمكن ان يتمّ لها ذلك إلّا بالقوة التي طالما اتخذها انصار الاستبداد سلاحاً لإذلالها.

فهذه القوة التي كانت بجهلنا في الماضي عوناً علينا صارت اليوم بفضل ضباطنا الأذكياء وجيشنا الباسل عوناً لنا.

فالدستور ليس منحة من السلطان بل قد أُخذ منه بحد السيف. فما معنى هذا الهتاف الآن. أجهلٌ ذلك أم جبن أم نفاق. أفلا يكفي الإذلاء أن تنسى الأمة ما لحق بها من المساوىء كل هذه السنين فلا تذكره.

وكأني بقائل يقول: ألم يحقن السلطان دماء كثيرة لقبوله منح الدستور. نعم، حقن دماء ولكنها غير مأسوف عليها. فإلى متى التغرير والتضليل.

والأمل معقود بحزم ضباطنا القساور ان لا يغفلوا طرفة عين حتى يأمنوا على الدستور ولا يوجد لذلك طريقان.

فليحيَ الدستور وليحيَ الأحرار وليحيَ ضباطنا الشجعان وليحيَ جيشنا الباسل وليسقط الأذلاء والمنافقون.

الدكتور شبلي شميل

أهكذا يكون الجند
يا أهل لبنان

المقطّم ١٩٠٨/٩/١٢

سَجَّل هذا الجند العار على نفسه بيده وسجله على رجال حكومته. ولم يكن سلوك الجند في إثارة هذه الفتنة بأقبح من جواب ميرالاي هذا الجند وهو على قمة صوفر لمكاتب المقطّم كما قرأناه في عدده الصادر أول أمس بقوله مازحاً إنه سيطالب ملحمة باشا بالألف ليرة التي رشاه بها للحصول على وظيفة لا يستحقها. فإن في مثل هذا الكلام في مثل هذا المقام من الاستخفاف ما لم يصدر مثله في هذه الثورة الجميلة السلمية إلّا من عزت باشا العابد في محادثته مع مكاتبي الجرائد الانكليزية. ومن الأسف أن هاتين النغمتين القبيحتين لم تصدرا إلّا من قوم ينتسبون بلغتهم وعاداتهم إلى الأمة العربية. وإذا قابلنا هذا الكلام بكلام منير باشا سفير الدولة في باريس لمكاتبي الصحف الفرنسوية وما فيه من الرزانة والحصافة مع أنه من أشد أنصار دولة الجواسيس في عهد الظلم، تبين لنا الفرق بين الأتراك وبين قوم طالما كان المظنون أنهم أرقى علماً وعقلاً ولكن الاختبار أظهر لنا أن التركي لما ارتفع الغشاء عن عينيه أبصر جيداً ودل عمله على عقل كبير وأخلاق عالية. ومن الأسف أني لا أقدر أن أقول ذلك الآن عن الأمة التي تنطق بالضاد.

فبينما الأتراك يفكرون في كيف يغلّون يد السلطان عن تعدي الدستور نرى الناطقين «بالضاد» يفنون البخور حول أعتابه. وبينما اولئك يريدون أن يجعلوا من السلطان سلطان العثمانيين ليؤلفوا بين العناصر المختلفة صيانة لمصالح الدولة وحرصاً على المملكة، نرى هؤلاء يقولون لنا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ليوسعوا مجال التفريق. وبينما الأتراك يقولون أخذنا حريتنا من سلطاننا عنوة وأعرضنا عن المساوىء فلا نذكره الآن بها كرماً وترفعاً، نرى المتكلمين بالعربية يلقون الخطب ويحبّرون المقالات وينظمون القصائد بالتغني بمكارم السلطان على تنازله ومنحه أمته الدستور. وسواء في ذلك مصر وأميركا وسوريا. ولم يشذ عن ذلك إلّا القليلون. وبينما نرى التركي والبلغاري والأرمني واليوناني يتصافحون ويتآخون وينسون ضغائنهم الماضية فرحين باجتماعهم تحت لواء الوطنية العثمانية لم تبدر منهم بادرة تكدّر على الأمة هناءها في عيدها الجديد، نرى المتكلمين بالعربية ينقرون لنا على دف اختلاف الأديان تكديراً للسلم. كما حصل في بعض الولايات العربية وكما حصل أخيراً في جبل لبنان.

وإنه ليسؤني جداً أن أرى هذا الجبل ختم مظاهراته بهذا الختام السيىء وبفتنة

صادرة من رجال النظام ومن مركز الحكومة المحافظة على الأمن. ولولا تعقل رجال الأمة الخارجين عن الحكومة لأفضى الأمر إلى مجزرة هائلة ترتاح إليها نفوس الخَوَنة الأشرار من أهل الفساد وتصم لبنان وصمة عار لا يستحقها. أليس أبناء هذا الجبل المنتشرون في الأقطار من مشارق الأرض إلى مغاربها أصحاب الفخر الأول في دولة القلم وبث روح الحرية والإقدام بين الأمم العربية. فكيف يجوز أن يكونوا ضد ذلك في داخلية بلادهم.

إن هذه الفتنة دلتنا على أن المتصرف الجديد هو دون وظيفته وان رجال الحكومة لا يخلون من أصحاب الرؤوس البالية والذمم الخَربة الذين يؤلفون حزب التقهقر وان (وهو الشر الأعظم) يد المفرقين من زعماء الطوائف لا تزال سلطاتها كما كانت في الربع الأول من القرن الماضي. والحق يقال إن التوفيق بين النصارى والمسلمين في المملكة العثمانية لأيسر جداً من التوفيق بين طوائف هذا الجبل من دين واحد.

فعلى اللبنانيين عموماً أن يحققوا المأثور عنهم من الذكاء والعلم والنشاط ويغتنموا هذه الفرصة لإصلاح خلل الحكومة ووضع نظامات الجبل بحيث تتوفر معها لهم المنافع والضرب على أيدي أصحاب السلطة من الرؤساء الذين خانوا الله وخانوا الأمة في ما أؤتُمنوا عليه أشباعاً لنهمهم.

وإنه لمن العار بعد حصولنا على ما حصلنا عليه من نعمة الحرية الكبرى أن تبقى حالة الجبل الاجتماعية دون ما يقتضيه له ذكاء أبنائه وهمتهم وسائر امتيازاته الطبيعية من موقع بديع وهواء عليل وماء أرقّ من السلسبيل. فحقّ الجبل أن يكون في بضع سنين جنة سوريا بل جنّة المملكة العثمانية. وما ذلك على أبنائه بالأمر العسير إذا لم تنقصهم الشجاعة الأدبية للقيام في وجه بالعي البلاد وهاضمي حقوق العباد.

الدكتور شبلي شميّل

«النغولة في السياسة»

«أرسل حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميّل رسالة بهذا العنوان إلى جمعية الإخاء العربي العثماني في الآستانة رداً على منشورها الذي أرسلته إليه. وهذه صورة رسالته:»

المقطّم: ١٩٠٨/٩/٢٦

قرأت بلاغ جمعية الإخاء العربي العثماني المؤسسة في الاستانة وقرأت في متنه الكلام الآتي:

«فمنح صاحب الجلالة أمير المؤمنين . . ما طلب منه لحقّ للأمة».

وقوله «واتحادهم بغاية الصدق والاخلاص حول . . مقام الخلافة الاسلامية».

وقوله «لشدّ الروابط بين الولايات المتحدة العربية ودار الخلافة».

واعتراضي على هذا الكلام انه لا ينطبق على معنى الحكومات الدستورية.

فأولاً: أصحاب هذا النص كيف يوفقون بين «المنهج» المغصوب و «الحق» المسلوب.

ثم أن العثماني قد يولد نصرانياً أو يهودياً أو مجوسياً وقد ينشأ ملحداً لا نصيب له في تلك اللذائذ المرتقبات في دار السعادة في الحياة الأخرى. فكيف يكون هذا الرجل في اعتبار هذا البلاغ وطنياً بمعنى الكلمة الحقيقي له من الحقوق ما عليه من الواجبات وتابعاً لحكومة دستورية شعارها الإخاء والمساواة ما دام سلطانه ليس سلطان العثمانيين بل أمير المؤمنين وصاحب الخلافة الاسلامية، وما دامت عاصمة بلاده ليست عاصمة وطنه العثماني بل دار الخلافة.

هذا لعمري زواج في السياسة منكم لا ينتج إلاّ نتائج عقيمة كالزواج بين أجناس الأحياء المختلفة في الطبيعة لا تنتج إلاّ نغولا لا تثمر.

أَفَيلام مثل هذاالرجل إذا قال إني لا أصدق أن وطني دستوري في عرف هذا البلاغ. وأنا نفسي لا أصدق حتى أرى كتابنا يفقهون معنى الدستور ويضربون لنا على غير هذه النغمة. ولا أصدق أيضاً حتى أرى عاصمة بلادي الاستانة الاسلامية مثل رومية النصرانية السلطة الزمنية فيها منفصلة انفصالاً تاماً عن السلطة الروحية. وإلاّ جاز لنا نتمثل بقول الشاعر العربي:

أيها المنكح الثريّا سهيلاً
عمرك الله كيف يلتقيان

وإني لأعجب من أنفسنا كيف انا نتغنّى بمحاسن الدستور ثم نقول ما لا ينطبق عليه كأننا لا نفقه ما نقول أو نقول غير ما نبطن. ولقد أخطأ الفاتحون الأولون في أنهم لم يوحدوا الأديان في الوطن الواحد ولو بالسيف حتى لا يبقى في سبيل دنيانا مثل هذه العقبات ما دمنا لا نستطيع أن نزيلها بالتعليم ولعلها شنشنة عربية.

القاهرة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٨

(حاشية) قرأت في مقطم أمس كلاماً في هذا الموضوع من قلم تحريره ذهب فيه كاتبه مذهباً لا أوافقه عليه. قال إنه يجمل بالطوائف الأخرى أن تتحاشى الكلام في هذا الموضوع وإن كان حقاً وتدع الخوض فيه لأصحابه مراعاة للمصلحة العامة في زعمه من وراء مجاملة عواطف الخاصة. وهو عذر ضعيف ويأتي بعكس المقصود لأنه بمراعاة عواطف وهمية لقوم تعرض مصالح حقيقية لأقوام بل نعرض الوطن كله للخطر. وفي تدبير نظام الممالك لا يليق بالعاقل أن يعمل بعض اللازم أو يقول نصف الحقيقة. فإن لم تسر الحكومة اليوم بالحزم اللازم فإن مستقبل وحدة الوطن يكون مظلماً للغاية وتقع في خطأ أشد من خطأ خلفاء عثمان. لا أقول في عدم توحيدهم الدين فإن هناك صعوبات ربما كانت فوق طاقتهم بل في عدم توحيدهم اللغة مما جعل التآلف بين عناصر هذه المملكة صعباً جداً وجعلها على الدوام مرسحاً للقلاقل الداخلية حتى اليوم.

فعلى الحكومة الحاضرة أن توجه اهتمامها أولاً إلى أمرين عظيمين عليهما يتوقف صيانة المملكة العثمانية. أحدهما تجريد السلطان من السلطنة الروحية وحصر الخلافة في شخص آخر. والثاني توحيد اللغة بجعل تعليم التركية اجبارياً في كل مدارس البلاد ومن الطبقة الأولى. وإذا تراخت في هذين الأمرين فلا يطول بنا الأمر حتى نرى المملكة عادت إلى القلاقل الداخلية. ومن يضمن لنا حينئذٍ أن الدول المحازبة لنا اليوم لمصلحة لا تنقضّ علينا حينئذٍ لمصلحة جديدة تبدو لها من وراء ذلك. فتقع علينا المشاكل الخارجية أيضاً. ولقد انقضى الدور الذي كانت الأمة العثمانية تتكلم فيه كالأطفال. فلا يليق بنا اليوم إلاَّ أن يكون كلامنا كلام رجال إذا كنا نريد أن نحفظ لنا مقاماً ممتازاً في مجامع الأمم.

شبلي شميّل

«هذا الوحل من ذاك المطر»

المقطم ٨/١٠/١٩٠٨

قَبَّحَ الله حكومة تركت البلاد على شفا هاوية وجعلتها مطمحاً للمتناظرين ومرسحاً للاعبين.

تركت تلك الحكومة الباغية ميراثاً من المشاكل لحكومتنا الحرة بدت طلائعها اليوم.

سرّت تلك الحكومة الغاشمة في سرّها من أن الصعوبات بدت تعترض حكومتنا الجديدة لعلها تعكر عليها فتصطاد في الماء العكر وترجع عصراً لا أعاده الله ولن يعود بإذن الله.

يظن حزب التقهقر أن مثل هذه المشاكل لم تكن لو أن قياد البلاد بقي في أيديهم وما دروا أن هذا الوحل من ذاك المطر.

عبثت حكومتهم بمصالح الأمة فاستخفت بها الدول وحركت عليها مطامعها.

جعلت البلاد كرقعة الشطرنج فأخذ يتبارى عليها دهاة اللاعبين السياسيين.

سر تلك الحكومة التي كانت ضربة على عباد الله اختلاف مصالح اللاعبين وقالت إلى أن يتفقوا سوف تهطل أمطار غزيرة وتشرق الشمس أياماً طويلة، فأمنت شرهم عليها وتفرغت لإشباع نهمها بابتزاز ثروة البلاد والقضاء على العباد.

طمعت بنا روسيا ففتح لها نوابنا أبواب عاصمتنا ولولا ان كان ذلك مجحفاً بمصالح الدول لما وقفوا لها بالمرصاد وصدوها عنا.

احتالوا بالسياسة فوضعوا معاهدة برلين فحسموا مشكلاً في الظاهر وأعدوا لنا مشاكل في الواقع فسلخوا منا البلاد بالفعل وحفظوا لنا السيادة بالأسم.

رأت المانيا ضعفنا وما يمكن أن يستفاد منا فأخذ امبرطورها يتودد إلى سلطاننا بالسلام، وسلطاننا ينفح أمة الألمان بالامتياز أثر الامتياز حتى كدنا نصير مستعمرة المانية. هذا يسر بمحالفة القوة وذاك باستدرار الضرع، وبَقَرة الأمة تئن بينهما.

أوجست أوروبا من ذلك خيفة على التوازن الأوروبي وأحست انكلترا بما في ذلك من الضرر على مصلحتها وتوسمت في أحرارنا خيراً فمدت إليهم يدها حتى إذا استأنسوا بها وأمنوا شر الخارج قاموا على حكومة الظلم وقلبوها ووضعوا أساس

حكومة العقل والعدل وكتبوا في التاريخ صفحة جميلة لم يسبق لها مثيل، كتبت بمداد أشعة الشمس وغُبِّرت بغبار أجنحة فراش الحقل وادهشوا العالم المتمدن بحكمتهم.

فشكراً لدولة انكلترا ولو أن بذلك مصلحة لها ما دامت مصلحتنا نيلت مع مصلحتها.

رأى امبراطور الألمان أن الضربة قاضية على آماله وهو الأمبرطور العظيم الشأن الذي لا يهنأ له بال ولا ينهأ له عيش إلاَّ إذا رأى الناس يتحدثون به ولو بأي لسان فأخذ يفكر كيف ينتقم لنفسه من القاضي على آماله ولو جرّ ذلك وراءه خراباً عاماً. وهو مع ذلك يحب حسن الأحدوثة فأخذ يلاطف أحرارنا بالكلام ويعد بنا كل طارئة من طوارق الحدثان ولو أن به نصراً للظلم وقضاء على العدل. وهو دهاء في السياسة - اسأل السياسيين أنفسهم - عظيم الشأن.

نَفَخَت المانيا في البلغار روح الانتفاض على الدولة لعلها تعرقل مساعي الأحرار وتعيده عصراً يسهل لها الصيد فيه ولو أودى ذلك بالأحرار. هذه هي الامبراطورية العظيمة التي يُعد التاريخ لعاهلها العظيم صفحة عظيمة.

الأحرار اليوم يحفظون فيهم صورتين لا تفارقانهم. ولكن صورة ملك الانكليز في فؤادهم وصورة عاهل الألمان في خيالهم. ذاك يتعوذون به وهذا يتعوذون منه.

ولكن البلغار - يا انصار حزب التقهقر - فائدتها نزعت منا بفضلكم منذ زمان. فإذا كنتم لم تحاربوا على الجسم فهل نحارب اليوم على الاسم.

فلندع الدول ومصالحها. فالضربة عليها أشد. ولننتبه نحن إلى داخليتنا حتى إذا صلحنا فالزمان منصف وفي البلاد الباقية متسع لمطامعنا.

وأما إذا أُلجئنا إلى الحرب فجوابنا في قول الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنّة مركباً
فليس على المضطر إلاَّ ركوبها

الدكتور شبلي شميّل

«السياسة»

المقطم ١٠/١٠/١٩٠٨

كأني خلقت فظاً بالظاء لا بالذال. ففي السادسة عشرة من سني ألقى عليَّ بعضهم أمثولة ـ وكان معدوداً فمن حنّكهم الدهر وطبخهم العمر ـ وقد ساءَه تعرّضي لما لا يعنيني في زعمه وخصوصاً فجاجتي في احتجاج على حديث في موضوع علم دار بين نخبة من رجال مجلس إدارة لبنان. كانوا مجتمعين في دار والدي. قال وقد وقف أمامي وخاطبني بصوته الخنّان وقد زاده حينئذٍ خنّة على خَنّة لزيادة ايلامي: «أنت تعلمت كذا وتعلمت كذا» (وأخذ يعدد من العلوم ما أعلمه وما لا أعلمه). «ولكن يوجد علم لم تتعلمه بعد وهو علم السلوك، وكأنه ظن أنه صعقني وأدار ظهره وكاد يولي ظافراً».

وبالحقيقة كانت الطعنة أليمة. والغصن وقتئذٍ رطيب وكاد يرتجّ عليَّ لشدة ما نالني من التأثير. ولكن انتقمت منه في الحال ولم أدعه يتمتع بلذة ظفره فأجبته على الفور بقولي: «إن كنت تعني بذلك علم النفاق فهذا لم أتعلمه ولن أتعلمه». وسري عني بذلك بعض الشيء، وكانت اللكمة الأخيرة لي.

وقد مضت السنون وتوالت عبر الدهر بما يهد الجسم ويميت النفس وكأني لم أُطبَخ ولم أنضج. فأنا أنا ذلك الفظ اليوم.

فمن أين لي أن أتكلم في السياسة وهي علم سلوك الأمم والدول. ومن أين لي أن أقدّر حكمها قدرها وأدرك مداخلها ومخارجها، وأعرف ما يلزم لذلك من الحنكة وتوقد الذكاء وعظيم الدهاء مما رفع شأن ذلك الداهية الكبير والسياسي الخطير امام السياسيين في النصف الثاني من القرن الماضي حتى انتشر مذهبه وعمّت مدرسته في كل الأقطار وأصبحت السياسة في مقدمة العلوم الاقتصادية بل فوق سائر العلوم الاجتماعية.

وكأن مصر اليوم لم تحرم منها بدليل قول بعضهم ـ وقد انتقدت عليه أن المصريين لم يستفيدوا كثيراً في عصر الاحتلال لا في العلوم الحقيقية ولا في الصناعات. وكأنهم في ذلك تأخروا عما كانوا في الماضي ـ فأجاب وهو يحتد ويجد بقوله: «وهل ينكر علينا انّا تقدمنا كثيراً في السياسة.» فسكتّ وأنا أرجو له ولقومه أن لا يكون قوله حقاً خصوصاً واني اعتقد أن غلّو السياسيين في علم الاحكام كغلو اللاهوتيين في الأديان: لاهوت بلاهوت. والفضل لمن لا يفهم.

أليس منتهى الكياسة في السياسة حسن التعبير عما ليس في الضمير. أولاً هي التخدير بالكلام قبل مفاجأة الحسام كالتخدير بالكلوروفورم في جراحة الأجسام للتمويه والتضليل حتى تؤخذ (أنت) على غرة فلا تحسن الكرة. أوَ ليست هي كما يقول الخاصة: السم في الدسم. أو هي كما تقول العامة: الضحك على الذقون.

وإن كنت لا تصدقني فأقرأ تلغراف رويتر الذي لخص فيه أقوال جريدة كولونيا الالمانية بين التلغرافات العمومية المنشورة اليوم في المقطم. وقل لي أيها القارىء بعد ذلك هل فهمت منه شيئاً. أما أنا فلم أفهم أو أني فهمت ما لا يريد الكاتب أن أفهم.

شبلي شميّل

«أحرب أم سلام»

المقطم ١٤/١٠/١٩٠٨

لقد نفد صبر قيصرنا الجديد، قيصر البلغار، على رواية بعض الصحف من عدم اعتراف تركيا باستقلاله فأخذ يحك بعضه ببعض ويكثر من التهديد والوعيد. وقيصرنا الجديد مهما كان مغرماً بقيصريته الجديدة فهو أعقل من أن يجسر على تهديد السلام بما لديه من السلاح والكراع. والمسألة أهم من أن تنحصر بينه وبين تركيا، فشيطان المسألة الشرقية التي أعيا الدول حلها رابض وراء كل حركة من حركات الأمم البلقانية ونارها إذا أوقدت امتد لهيبها إلى سائر أوروبا وتطاير شررها إلى كل المسكونة. فلا يعقل أن يكون هو وحده العامل في إيقاظها.

ومن هو يا ترى هذا النافخ لها من وراء الجدار. انكلترا أرغت وأزبدت وسيرت أساطيلها إلى المياه التركية وأقسمت الإيمان المغلظة انها لا تدع أحداً يمد يده إلى حكومة الأحرار العثمانيين بسوء ومصلحتها الظاهرة تقضي بذلك وسلوكها مع أحرار العثمانيين حتى اليوم يحمل على الاطمئنان والامتنان. وفرنسا مؤيدة لها وهي أطوع لها من الظل وليس لها مصلحة قريبة في النكث بالعهود. وروسيا قد أظهرت استياءها من تصرف الذين جنوا ثمرة انتصارها في حربها الأخيرة على تركيا حال كونها عادت منها بخفيّ حنين. فاقترحت عقد مؤتمر وهي بذلك متفقة مع فرنسا وانكلترا وإن كانت أبدت ما تطمح إليه نفسها من حرية المرور في الدردنيل وفتح هذا السد الذي أقامته أوروبا في وجه أساطيلها. وإيطاليا متذبذبة متنظرة على انها وحدها لا تستطيع أمراً كبيراً.

فلم يبقَ إلاَّ النمسا والمانيا وسلطان العثمانيين نفسه. أما السلطان فقد حلف اليمين ولا يُظن أنه يحنث بها ولا سيما أن اللعب بالنار لا يكون سليم العاقبة دائماً. وفي التاريخ الحديث عِبَر قد بدت له مقدماتها فلا يُظن أنه يهملها ولا يعتبر بها إلى أن تتحقق كل نتائجها. وأما المانيا فقد أرسلت التأكيد تلو التأكيد تتودد إلى حكومة الأحرار بأنها لا تنوي لهم إلاَّ خيراً وانها بريئة من كل هذه القلاقل براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

فلم يبق إلاَّ ذلك الشيخ الجليل المحب للسلم والذي يكره كل حركة عدوانية والذي تسعة أعشاره في الحياة الباقية وعشر لم يزل في هذه الحياة الفانية. ففرنسيس يوسف الحكيم الحليم هو وحده المضرم لهذه النار والباعث على هذه الدماء. فيا لجناية التاريخ.

ولولا انه انقضى في أوروبا الزمن الذي كان فيه الملوك يتصرفون بمصالح الشعوب كما يشاؤون وتشاء أهواؤهم لقلنا قد يدفع تهيج الأعصاب بعضهم إلى إضرام نار حرب كثيرة الأهوال تنقرض فيها أمم وتتقهقر أمم أجيالاً عديدة. ولكن شؤون شعوب أوروبا اليوم في أيديهم فلا يرضون أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكمة حتى أصبح في حكم المقرر بعد حرب السبعين إن الحرب الشعواء لا خوف منها بين دول الغرب ولذلك يفضون مشاكلهم بالتحكيم والحسنى وهو فضل لا يُنكر لمدنية اليوم. فالمؤتمر لا بد منه ولا بد من أن ينتهي كل شيء فيه بلا حرب.

ولكن كيف ينتهي هذا الشيء. وهل الدول جميعها ليس لها يد في تحريك هذه المسائل لتصفية حسابات قديمة لا هي بالمعلقة ولا هي بالمطلقة. فالعقل يميل إلى ذلك منعاً لزيادة الإشكال إذا رسخت قدم الأحرار وأصبحوا قوة يخشى منها على سواهم كما يُخشى من سواهم اليوم عليهم. ويجمل بحكومة الأحرار اليوم أن تخلد إلى السكينة حرصاً على كيانها مهما كانت التضحية كبيرة ولا سيما أن أكثر المسائل التي قد يظهر انها ستغبن فيها هي إرث رَثّ لا يجر لها منفعة بل يزيد عليها المشاكل. فملك صغير عزيز خير من مملكة متسعة الأردان متداعية البنيان.

الدكتور شميِّل

الاصلاح. الاصلاح. الاصلاح.

سبعون لصاً يبرأون وصحافي يُعَاقَب كلصّ

[المقطم، ١٩٠٨/١١/٢٠].

منصّة القضاء مقدسة لا يجوز مسّها كمحراب المصلّ ولكن هذا لا يمنعني هنا من ترديد هذين البيتين:

طعن امرىءٍ في عمل جريمة لا تُغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نَظَر

سطا اللصوص على قطار بأمّه وأبيه فقلبوه وجرحوا ونهبوا وضُبط ما نهبوه عند كثيرين منهم فَعَفا القضاء عنهم لأن هفوة في الشكل منعت القضاء عن النظر في الأصل فضحّى القضاء الجوهر على مذبح العَرَض. وهذا كرفض سماع كلام المحامي القانوني إذا لم يكن مرتدياً ذلك الثوب «الكرنفالي» أمام مذبح المرافعة. قامت قيامة الجرائد على ملّة بأسرها وأكثرت من البذاء كلام الهراء والسبّ والشتم والتقبيح بما لو حصل نصف مثله في وسط شعب غير الشعب المصري المتّصف بالدعة والسكون لجرّ ذلك إلى ثورة داخلية جرت فيها الدماء انهاراً. ومع ذلك لم تتحرك الحكومة لهذا الأمر ولم تجد النيابة مسوّغاً للتداخل فيه لإيقافه عند حدّ وللضرب على أيدي تلك الجرائد الساقطة التي كانت بعملها هذا كمدرسة تعلّم فيها أنواع الشتائم لأن المحافظة على الآداب العمومية ليست من الأمور التي يستدركها القضاء وينهض لها من نفسه.

تقوم دعوى بين اثنين ولكن كلاً منهما يجد في ثنايا هذا القانون متسعاً لأن يتخاصما ويتشاكلا ويتجادلا في هذا المضمار اشهراً وسنين. وربما تركا هذه الدعوى بعد أن اكلت عمريهما إرثا لا عقابهما. وقضاؤنا يعدّ نفسه مع ذلك رحمة للعالمين. ومع ذلك فهذا القانون الحازم العادل الواسع وجد مسوّغاً لأن يقضي على صحافي انتقد رجلاً أو رجالاً في وظائفهم العمومية انتقاداً حاداً ولكنه لم يتخطّ فيه دائرة المعقول، ويحكم عليه كلصّ بالحبس والاشغال الشاقة. وإني لأستغرب بعد ذلك كيف انه لم يحكم عليه بالاعدام. أقول ذلك غير متحامل على أحد أو منتصر لأحد، بل كمُستقبح لمثل هذا الحكم الذي لا يستطيع ان يصبر عليه رجل فيه ذرّة من العقل إلاّ مُكرهاً.

وبعد هذا، إذا طلبنا اصلاح القضاء في شكله وفي أصله وحتى في قضائه، فهل نُلام؟ وهو حق للجمهور وواجب على ولاة الأمر. ولكن على اولئك الولاة الذين يهمهم أمر العباد، وأين هم بعد أن يتربّعوا في مناصبهم، ولفعلوا لو دروا ان محاكم اليوم سخريّة الغد. وأما الحكم بالقرش الصاغ فهذا منتهى اللياقة في العياقة.

د. شبلي شميّل

ما هو الاصلاح المطلوب

يوسف شكري يرد على مقالة شميّل

[المقطم، ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٨، ص ١ و٢].

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم:

قرأت ما كتبه حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميل تحت عنوان: «الاصلاح. الاصلاح. الاصلاح». ونشر في المقطم أمس ولم أن أعنى بالرد على حضرته لو كان من عامة الناس لأن كلام العامي لا يؤثر في الجمهور شيئاً من تأثير الأقوال التي يقولها عالِم مطّلع محقّق مثل الدكتور الفاضل. ولكن قال العلماء العظام منذ قديم الزمان: «لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوَة ولكل عالِم هفوة». وخافوا شرّ زلّة العالِم حتى قالوا: «زلّة العالِم زَلّ بها العالَم». فلا يعتب حضرة الدكتور عليَّ إذا قلت انه زلّ في هذه المقالة فشارك العامة في أوهامهم وخالف الخاصة في بحثهم وتحقيقهم. ففي انتقاده الذي نحن بصدده يطلب اصلاح القضاء في شكله وفي أصله حتى وفي قضاته. ولماذا؟ ـ لأربع مسائل ذكرها: احداها ان اللصوص سطوا على قطر فجرحوا من فيه ونهبوه وضُبط ما نهبوه عند كثيرين منهم «فعفا القضاء عنهم لأن هفوة في الشكل منعت القضاء عن النظر في الأصل فضحى القضاء الجور على مذبح الغَرَض». فهل بحث حضرة الدكتور ودقّق حتى علم وتحقّقف ثم قال ما قال. وهل مَن كان مثله يجاهد في نصرة الحرية ويحترم صوت الضمير والذمّة ينتقد تبرئة قوم لم ترتح ذمّة الحكمة إلى تبرئتهم ولم يستحل قضاتها أن يجعلوا ذمّتهم تبعة الحكم عليهم بالعقوبة لما رأوا آثار التلاعب ظاهرة في التهمة. وهل من مبادىء الدكتور الحر أن يحكم المرء بما لا يوافق اقتناعه ولا يرتاح إليه ضميره وذمّته. وهل من مبادئه انتقاد نظام يضمن السلامة والأمن لكل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية ولا يُجيز معاقبته ما لم تقم عليه الأدلة التي تقنع العدول الذين لا غرض خصوصي لهم في عقوبته أو تبرئته

أسأل حضرته هذا السؤال وأطلب منه الجواب عليه صريحاً حتى نعلم ان كان حضرة الدكتور يصرّ بعد التروي على ما قال أو يعترف انه زلّ في قوله وان النظام الذي لم يعجبه في هذه المسألة هو النظام الذي يطابق مبادئه وتعاليمه في سائر المسائل.

وهكذا نقول في مسألة الحكم على الصحافي. فقد قلتم يا حضرات الأفاضل عند ذكركم هذا الحكم انه حكم غيابي. فلا مجال للأخذ والعطاء فيه. وأرى انه كان الواجب على حضرة الدكتور الفاضل ان يقول قولكم لأن المحكمة لم تسمع إلاّ أقوال المدعي ولم تطّلع إلاّ على دعاويه وحججه، إذ المدَّعى عليه لم يحضر للدفاع عن نفسه، ولم يرد حجج المدّعي، فحكمت المحكمة بحسب ما تأثرت به مما سمعت. والقانون أي النظام الذي ينتقده حضرة الفاضل ترك الباب مفتوحاً للمدّعى عليه ولكل من يدافع عنه أن يدافع ويمحو تأثير أقوال المدّعي عن ذهن المحكمة.

فما الذي ينتقده حضرة الدكتور الفاضل في ذلك؟ وما الذي يطلب اصلاحه فيه؟ أَيطلب من المحكمة ان تقول للمدّعي اني لا أسمع لك دعوى؟ أم يطلب ان تقول إني سمعت دعاويك وعرفت كل شكاويك ولكني لا أحكم لك لأن المدّعى عليه صحافي ولو كان قد قال فيك ما

قال. ولم يحضر ليدافع عن نفسه ويدفع حججك؟ هذا ما أسأله حضرة الدكتور الفاضل وأطلب منه الجواب صريحاً عليه أيضاً.

ولست أدري كيف ينتقد حضرة الدكتور نظام القضاء الحالي ويتضرّر منه لأنه يسوّغ الحكم على صحافي ثم يعود فينتقد هذا النظام وينحي عليه بأشد الملام لأنه لم يزجّ النيابة وسط جماعة من الصحافيين يتخاصمون بالكلام ويتبارزون بالأقلام، هؤلاء انتصاراً للمسلمين واولئك انتصاراً للأقباط. أتُرى لو فعل القضاء ذلك وعاقبت المحاكم اولئك الصحافيين على منازعتهم الكلامية. فهل كان نظام القضاء يفي بالحاجة التي يطلبها حضرة الدكتور لحريّة الصحافة وحرية الكلام.

وكذلك يحسب حضرة الدكتور من عيوب القضاء ان الخصمين قد يجدان في ثنايا القانون متسعاً للمدافعة عن حقوقهما اشهراً وسنين ويعدّ ذلك منافيا لاعتقادنا ان القضاء رحمة للعالمين. فما الذي يستصوبه حضرته في القانون: الاستبدادي في القضاء وسدّ الباب في وجه الانسان قطعياً ظالماً كان أو مظلوماً. ألا يرى حضرة الدكتور ان ما يعيبه هنا هو من أعظم الأمور الفارقة بين الاستبداد والدستور، وان فصل الخلاف بالطرق الدستورية يستغرق عادة أضعاف أضعاف الزمان الذي يفصل الخلاف فيه بالطرق الاستبدادية؟ فهل ينتقد حضرته النظام القضائي الحالي لأنه يفسح للانسان مجال الدفاع عن حقوقه بكل واسطة قانونية؟ وهل يعيبه لأنه يبعد الهيئة الاجتماعية عن الطرق الاستبدادية ويربّيها على الطرق الدستورية؟

أرجو الجواب من حضرته صريحاً على ذلك أيضاً. حتى نعلم ان كان الدكتور شميل، صاحب هذه المقالة هو الدكتور شميّل الذي عهدنا فيه مقاتلة الظلم والاستبداد.

هذا، وإني أذكّر حضرة الدكتور ان العلوم القانونية ليست كالعلوم الرياضية وحضرته يجب أن يتذكر ذلك أكثر من سواه، لاشتغاله بالعلوم الطبية التي لا يزال مجال الرأي واسعاً فيها كالعلوم القانونية. ولذلك نسمع الناس ينتقدون العلوم الطبية كل يوم بحجة ان الطبيب الفلاني لم يشفِ فلاناً أو لم يشخص داء فلان، أو ان علاجه لم يأت بالفائدة المطلوبة. فماذا يقول حضرة الدكتور متى سمع الناس ينتقدون العلوم الطبية أو تطبيب الأطباء بمثل هذا الكلام؟ ولا يعتب عليَّ إذا قلت له إن ما يقوله عن اولئك الناقدين هو مثل ما يقوله رجال القضاء والقانون اليوم عن انتقاده الذي قرأوه في المقطم أمس.

يوسف شكري

في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠٨

رئيس جمهورية أميركا والقضاء

المقطم ١٩٠٨/١٢/١٠

إن الذي يعجبني من قول الرئيس روزفلت ليس تنديده بالقضاء لتمسك قضاته بسخافات فنية اصطلاحية تتأخر بها الأحكام وتضيع معها الحقوق، بل صدور ذلك من رجل في وظيفة عمومية هي أعظم المراكز شأناً. والعادة أن الذين يشغلون مثل هذا المراكز في الهيئة الاجتماعية تضرب الوظيفة على عيونهم حجاباً كثيفاً. ولكن الرئيس روزفلت ليس موظفاً كسائر الموظفين ولا ملكاً كسائر الملوك. بل هو الرجل الاجتماعي العظيم الذي عرف أدواء الاجتماع. وكم حاول أن يجد الدواء لها خصوصاً قيامه ضد شركات الاحتكار التي تفشّت جداً في هذا العصر، ولا سيما في العالم الجديد. ولا يخفى أن هذه الآفة من شر الضربات الاجتماعية التي إذا لم تتدارك قبل تفاقم شرها جَرَّت إلى ثورة ليست الثورة الفرنسوية (وهي قيام الشعب على النبلاء) بالنسبة إليها شيئاً يذكر لانحصار تلك إذ ذاك في بقعة معلومة. وأما هذه فهي قيام العمل ضد المال، فشرّها لا ينحصر اليوم في بقعة معلومة وفي قوم معلومين، بل سيمتد لهيبه إلى كل العالم المتمدن. ومن يعش يَرَه.

شبلي شميّل

الثورة الآتية: قيام العَمَل ضدّ المال

حاشية: أعاد شميّل نشر هذا التعليق في الجزء الثاني من مجموعته (١٩١٠). وفي البرقيّة التي بعث بها إلى ثيودور روزفلت اثناء زيارته لأفريقيا في رحلة صيد (انظر ص ١٢٧) تتردّد اصداء الحملة التي خاضها روزفلت خلال ولايته الرئاسيّة ضد شركات الاحتكار في اميركا. ويتّضح اكثر موقف شميّل من الثورة الفرنسيّة إزاء ثورة العمل والعمال ضد المال وأرباب المال.

موقظات

المقطم ١٤/١٢/١٩٠٨

لست من المفتونين بقراءة الاعلانات فإذا عرضت لي مررت بها كما تمر بالانسان أحلام الصبا. ولكني صحوت أمس باكراً جداً والصدر كما في قولي:

وفوق صدري جبل يهوي به ثم يثب

والسوداء في النفس متسلطنة كما في قوله:

وسادت به السوداء كلاً من الحشى
مذ امتلكت عزاً غدت فيه قيصرا

فأخذت أضرب في مجاهل الخيال لعلي أبدد ما بي من غيوم الهموم كما يضرب الحاسب الخطأ في الخطأ ليستخرج من المجهول المعلوم وإذا بجريدة الأخبار الصباحية ـ وهي أبكر الجرائد وفوداً ـ أقبلت عليَّ فتهافت عليها كما يتهافت الجياع على القصاع والتهمتها من أولها إلى آخرها. وكدت أقرأها حرفاً حرفاً كما أخذ ذلك القسيس يهجىء انجيله على رأس رجل به شيطان، ليخرجه منه حتى ضجر الشيطان فأسرع في الخروج نافراً من حيلته الشيطانية أكثر من خوفه من أسرار كتابه الالهية. ولم أهمل ما فيها من الاعلانات حتى اللزوميات وكنت ظننتها كلاماً في لزوميات المعري وإذا هي لزوميات ألزم منها إذ لزوميات المعري غذاء كمالي للنفوس وأما هذه فغذاء حاجي للمعد وبها من كل فاكهة أزواج لا زوجان.

وما استوقفتني أخبارها الادارية إلّا ريثما تذكرت أن الحكومة تعد الجرائد كالميسر إثمها أكثر من نفعها فأخذت تحذر رجالها منها تحذير الطب من الأجرب وإن كانت هي الصلة الوحيدة بينها وبين الأمة. وإنما هي في اعتبارها صلة الرأس بالذنب. فالحكومة ليست ممثلة للأمة تعرض عليها قراراتها وتقبل فيها اعتراضاتها، بل هي راع لرعية، والرعية مشتقة ليس من الرعوى بل من الرعي. والحق يقال إن من الجرائد ما يشوش ولا يسوس وان في الرعية مَن يرعى ولا يرعو، ولكن في نظامات الحكومات أيضاً احتياطات لا تعقل، فالحرص فيها إثمه أكثر من نفعه أيضاً.

وقرأت بين الاعلانات القضائية اعلان بيع في ثلاثين سطراً ورد فيه من أصناف المأكولات بالأرطال ما يشكل به دكان بدّال لتحصيل مبلغ «مائة وستين غرشاً ونصف بخلاف ما يستجد». ولا شك أن ما يستجد من نفقات قانونية وغير قانونية سيربو أضعافاً مضاعفة على الدين الأصلي. فقلت في نفسي: ألا توجد طريقة أخرى أبسط

تُصان بها الحقوق وتقتصد من الزمان والنفقات وتقلل من تغرير المتقاضين إلاَّ وهم مفترشون الغبراء وملتحفون السماء. ثم قلت ولكن إذا وجدت فكيف يكون نظام القضاء... قضاء حقيقياً حتى قيل فيه:

قضاء الله أيسر ما لقينا إذا كان القضاء كما منينا
فذاك يجيئنا في العمر يوماً وهذا كل يوم ما حيينا

ثم مر بذاكرتي ما حدث معه القضاء لأول مرة وهو أن طبيباً من سلالة بيتاغورس إلاَّ رأيه ـ وإن شئت إلاَّ راءَه أيضاً ـ ممن ألفوا الأسفار وجابوا الأقطار وفتنوا بالبحث عن الحقيقة لا بحبِّ النضار حتى قال فيه بعض الظرفاء إنه اكتشف في أسفاره في بعض البقول أسباب الرياح ولكن في بعض المواطن لا في الجبال ولا في البطاح، أقام دعوى على مريض يطالبه فيها بمبلغ ستين فرنكاً لما بذله له من العلاج الشافي. ولكن المريض لم ير ذلك بالسبب الكافي. فما مر الحول حتى كان الحجر قد تم وكانت النفقات قد بلغت ستين جنيهاً إيجابية دفعها الطبيب من جيبه الخاص فوق أتعابه السلبية. ثم جاء دور التنفيذ ولما لم يفِ المبيع بمصاريف البيع غرّم الطبيب بالباقي وفاز القضاء بذلك على الطب فوزاً باهراً ضحك منه القضاة في سرهم وتركوا الطبيب يمتعض وهو يشتغل بما اوتيه من الذكاء بحل مسألة التكافؤ بينه وبين القضاء.

الدكتور شميل

تحيّتي وامنيتي

المقطم ١٩٠٨/١٢/١٧

تحيتي للأمة العثمانية في هذا اليوم البهيج ليس لهذا الدستور الذي يحتفل به اليوم في كل المملكة بشكل يفوق حدّ الوصف يدل على أن في الأمة حياة كامنة لم يقتلها الاستبداد الذي رسفت في قيوده مئات السنين والذي بلغ منتهى الظلم في الثلاث والثلاثين سنة الأخيرة.

ولا لهذا الاستقلال الذي تطمح نفوسنا إليه بهذا النظام الجديد كأمة عظيمة نافذة الكلمة في مجامع الدول تخشى بأسها ويخطب ودّها ويجعل كل عثماني يتمسك بعثمانيته ويرفع رأسه بالانتساب إليها بعد أن كان يحاول أن يهرب منها والخجل لدى سائر الأمم يكاد يذيبه والتصاغر أمامها يكاد يقتله.

ولا لمظاهر هذا التآلف بين عناصر الأمة المختلفة وقيام شيخها يعانق قسيسها بعد أن كان كل عنصر فيها عدواً للآخر لا يسره إلاّ الاجهاز عليه ولو أجهز به على ثروة بلاده وكرامة أمته واستقلال وطنه وراحة جسمه وصحة عقله.

ولا للأمل بزوال الرشوة وانقراض الصنيعة وانقضاء الظلم ومكافأة الاستحقاق بهذا النظام الجديد. فالناس كيفما كانت نظاماتهم لا يزالون ناساً في عيوبهم ولا يعدمون وسيلة لتنفيذ اغراضهم والميل مع أهوائهم ولو ضمن الدستور نفسه.

ولكن الذي أحيي به هذه الأمة العظيمة اليوم إنما هو ارتفاع الضغط عن أقدس ما لها من المواهب حتى باتت به أذل من الحيوان لا تقدر أن تقول ما تفتكر ولا أن تجول حيث تريد. فأنا أحيي بها نيلها تلك الحرية الشخصية الطبيعية التي سلبتها خرقاً وظلماً خصوصاً في السنين الأخيرة، والتي أتمنى دوامها لها في مستقبل الأيام بقطع النظر عن الاسم والجامعة. وكأني بها لن تفقدها منذ اليوم مهما كانت النتيجة في المستقبل. ولا يتوقف حفظ الاسم والحدود إلاّ على سلوك اولئك الذين يهمهم ذلك.

وأمنيتي لهذه الأمة أن يعرف نوابها الكرام كيف يحافظون على هذه الحرية وأن يبثوها في صدور كل الأمة بأفعالهم وأقوالهم وتوجيه منتهى قواهم إلى شر النظام الوحيد الذي يعلي في النفوس هذه الحاسة النبيلة التي تجعل الانسان انساناً حقيقياً ويجلو من العقول صدأ الأوهام فينظر البشر بعضهم إلى بعض نظرتهم إلى أسرة واحدة. وذلك بنشر العلم ما أمكن وجعل التعليم حراً بكل معنى الكلمة الحقيقية. وإذا فعلوا ذلك

فإنما هم يحققون رغائب نبهاء الأمة وخصوصاً مساعي الذين قاموا بهذا الانقلاب العجيب من رجال الجند العظام وشيخنا الجليل شيخ الاسلام غزّالي هذا العصر.
فتحيتي لهؤلاء اليوم فوق كل تحية.

الدكتور شميّل

﴿ سيادة الأمم ومستقبل الملوك ﴾*

رأيت أن أتشبه بالأنبياء وأنا أجهل صناعتهم لكي أقول قولاً يكثر مجازه ليتسع تخريجه فلا تكذبه الوقائع وترضى به العقول الحريصة على المأثور ولو انها تأنح في تأويله كالمعضل فانبأت منذ ربع قرن أن أوروبا لا ينقضي عليها القرن التاسع عشر حتى لا يبقى فيها ملك يلبس البرفير والارجوان ويحمل الصولجان ويسوق بها حمر الانسان. وها نحن الآن في العقد الأول من القرن العشرين والملوك كالآلهة على عروش مجدهم والناس كالسائمة في حقول جهلهم. فكنت بنبوتي الكاذبة نبياً كاذباً حلت له أحلامه فاعتبرها حقائق. وأثبت بذلك على نفسي جهلي بطبائع الناس كما أني اثبت عليها خلوها من الذكاء الشرقي فلم أراع أثر الدهور في مقوسي الظهور ولا وطأة المداس في مطأطئي الرأس كما اني لم أراع في مقالب الدهاء نعومة ملمس الرقطاء لاستطلاع مناجع الكلاء.

على أني لا أكون عادلاً إذا جرت كل هذا الجور في الحكم على نفسي. لأن نبوتي إن لم تصح كلها صورة فقد صح جلها معنى وما خطأي إلاّ في ضربي الأجل وتعييني الزمان ولو قلت بعد زمان لا يطول لإمنت الانتقاد ولحاكيت بالحصافة أرباب السياسة ولكن الناس طبائع فهذا يستمسك بالأعراض وذاك لا ينظر إلى الجواهر وأنا ممن لا يقفون عند الصور بل ينظرون إلى المعاني لا كما ينظر بعض كتابنا من قادة الأمة فيستحصلون من التبر تراباً ثم ينبشون القبور ويسيغون من السم شراباً يخدرون به أعصاب الأمة لئلا تنشط من العمى فتبصرهم في صور أجدادهم قبل العصر الحجري قروداً تقهقه وعجائز يلطمن. بل أنا أنظر من خلال ذلك إلى الزُّبَد ولو انها كما في الخرنوب درهم دبس في قنطار خشب. فكأنني حر كأحرارنا ولكني غير دستوري فلا أقيد الحرية بالقانون ولو سن القانون لها لئلا أكون به حراً في استبداد أو مستبداً في حرية. وما أغرب هذا القول في هذا العصر الدستوري خصوصاً بعد هذا الانقلاب الأخير الذي كنت المتمنين له ولكن آخر الحالمين به حتى قلت فيه لشدة يأسي مه - في مقال عنوانه وكما تكونون يولَّى عليكم - «لا يأتي الدواء من العراق حتى يكون العليل قد فارق» وهذه نبوة ثانية لي كاذبة - على الأقل الآن - فكأني العاطوس في معطس الدهر فكلما قلت قولاً كذبتني الحوادث حتى صرت أتمنى أن تنفتح لي أبواب الجحيم لأكون على يقين من الفوز بجنات النعيم.

---

* نشرت في البصير سنة ١٩٠٨. وأعاد الشميّل نشرها في المجموعة الثانية من فلسفة النشوء والارتقاء (١٩١٠)، ص ١٩٩ - ٢٠٣

وهذا هو السبب الذي لأجله لم أقبل أن انتظم في جمعية مشروعة انتظاماً قانونياً ولو انضممت إلى مبدأها وكنت في طليعة الذائدين عنه لأني أُريد أن تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ إليه غير مقيد فيه بنظام أو زمان ولقد غُرَّ بي بعضهم من كتاباتي في أول نشأتي وظن أن الذي يكتب ما أكتب لا يمكن إلاّ أن يكون عضواً في تلك الجمعية الكبيرة السرية التي عفا جوهرها تقادم العهد ولم يبق منها اليوم إلاّ تلك السخافات التقليدية والتهويلات الارهابية والتي فاقت في الاحتفاظ بها كل تقليد فكتب إليَّ يطلب مني أن أدخله في الفرع منها الذي أنا منه وما كان أشد حيرتي حينئذٍ للجواب بما يدحض الظن ولا يؤلم العواطف لأن تحويل الظن نفسه جرح وإن كانت الكهولة لا تتألم منه إلاّ أنه في الناشئة أليم فكتبت له واقتصرت على هذا القول كأنه جملة انشائية «أما أنا فلا أختص بجمعية دون أخرى وإنما أنا عضو في جمعية كبرى من ضمنها جمعيات» فلم يبطيء أن كتَبَ إليَّ أن أدخلني في هذه الجمعية فكان استغرابي حينئذٍ أشد من حيرتي وفضلت هجر الصمت على ألم التقويم بالرد والرجل لا أعرفه ولا أعرف اسمه اليوم فليطمئن من ذكر الحادثة.

وما ذكرتها إلاّ بياناً لسطوة النظامات الموضوعة على العقول ولو المتنورة حتى انه ليزول جوهرها ولا يبقى إلاّ عرضها ولا يزول سلطانها فكم من نظام وضع لمبدأ حسن ثم كان النظام نفسه مزيلاً لحسناته مطفئاً لنوره وبقي نظامه راسخاً لا يتقلقل حتى تهب عليه عواصف الثورات فتقتلعه عنوة كلما تقتلع الأعاصير بواسق الأشجار من جذورها ولكن بعد إضاعة الزمن الطويل أي إلى أن تبلغ الأفعال المتجمعة ضده مبلغها الهائل من الانتشار والشدة ولولا ذلك لسار الاجتماع في ارتقائه على وتيرة واحدة مع الطبيعة في نظامها الطبيعي الذي هو بالحصر لا نظام إلاّ قدر المنفعة. وسرعان ما اسمع المعترضين من أحرار ومتقهقرين مقيدين وغير مقيدين دستوريين وغير دستوريين إلاّ الذين استهواهم نظام الطبيعة المطبوع ولم يفتنوا بنظام الاجتماع الموضوع يصخبون ويقولون متعوذين كأنك تدعو الاجتماع إلى أن يكون الناس فيه فوضى لا سراة لهم وما هي إلاّ ألفاظ وضعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان وإلاّ فاللانظام الذي ندعو إليه ليس بدعة أوَ ليس هو رائد أبدع قوى الطبيعة كما هو شأن الحياة أوَ ليست مركباته أبدع مركباتها كما هو شأن الأحياء فكما أن الطبيعة ترقى إليه فالاجتماع لا بد من أن يتحول كله إليه وما وقوفنا في سبيله بمحض إرادتنا وبنظاماتنا إلاّ جناية فوق جناياتنا الأخرى عليه.

وعدم احتفالي بالاعراض هو سبب عدم احتفائي بالنظامات الموضوعة غير ناظر من خلالها إلاّ إلى المبدأ والجوهر ولا يراد من ذلك اني أبدي احتقاري لها في غير مقام

الانتقاد بل بالضد أنا من أشد الناس احتراماً لها في مواقفها فإني لأدخلن الجامع والكنيس والكنيسة وفي نفسي تأدب فوق خوف المتقين ومع ذلك فلم أسلم من شرها فقد وقفت مرة أمام قاضٍ ـ غير موقف المتهم ـ فما عتم ان نظر إليَّ مقطباً فبسطت له وجهي لعله يحل قطبة من قطب جبينه وكأنه استعظم سلطته فأراد أن ينتقم بها لأجداده عن خمس عشرة ألف سنة مضت فانتهرني كأني أجير في باب أمير وما علمت اني أسأت الأدب بحضرته إلاَّ بعد أن دلني على أن يدي التي كانت هنا يجب أن تكون هنا فصدعت بالأمر صاغراً صوناً لكرامتي من أعظم في هذا المأزق الحرج ثم مرَّ بخاطري بسرعة البرق التاريخ الطبيعي والاجتماعي وأثر الماضي في الحال وسرعة هذا الانتقال وترحمت على الخليل فعذرته وعلمت لأول مرة أن التأدب غير الأدب الحقيقي.

واللانظام الذي ندعو إليه ليس كاوس الأقدمين ولا فوضى المحدثين وإنما هو نظام أيضاً ولكنه متحرك فلا يستقر على مر الأجيال حتى تضيع به الغاية التي وضع لأجلها بل يتغير لكل حال صوناً لهذه الغاية ولو راعى الناس في شرائعهم ذلك لما بدا فيها كل هذا الوهن ولما سببت كل هذه الحروب بين منكر ومقرٍ وكافر ومؤمن وناقم وراضٍ وبين الشيع من كل حزب ولما بدا مصلح الأمس رزءاً على مصلح الغد. ولكن هي الأعراض أربت على الجواهر وكان ضررها في الاجتماع لأن الاجتماع عاقل فأضاف إلى تباطيء سير الطبيعة المطبوع تثاقل نظامه الموضوع.

ولكن نواميس الاجتماع كنواميس الطبيعة مصيرها فيه إلى الارتقاء ولو أدت به إلى الوقوف والتقهقر أحياناً وسرعتها فيه كسرعتها بالقلب كمربع البعد واستخدام الانسان قوى عقله الصائب فيه تزيد هذه السرعة سرعة على نفس هذه النسبة. ومن يوم خطت أوروبا خطاها في سبيل العلم الحقيقي وأخذ ظل الأوهام يتقلص من العقول صار الأمل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء ولا نريد بهذا القول إنها على وشك بلوغ الغاية القصوى فيه وإنما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية ولا ريب في انها ستكون الأولى في الاستفادة وسيكون شأنها شأن المنارة التي يستضيء العمران بها في العالم أجمع لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة وأول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الأمم سيادة حقيقية وسقوط سيادة الملوك ولا يستتب لها ذلك على قواعد متينة حتى تنتشر وتتأيد فيها الاشتراكية الصحيحة المبنية على تقاسم المنفعة على نسبة الاشتراك في العمل لا كما يفهمها البعض من خصومها. وإن من يقابل بين حالة أوروبا قبل حرب السبعين وما آلت إليه بعدها من الارتقاء الحقيقي في كل شيء يرى أن سيادة الملوك في احتضار من

ذلك اليوم. بل من يقابل بين حالة الشعوب الجرمانية من عهد غير بعيد وما هي عليه اليوم من الاشتراكية العظمى يستعظم مجرى الأفكار فيها لخلع تلك السيادة ولا يتوقف تقريب أجل ذلـك إلاّ على حـركات عـاهلها اليـوم لأن شدة الضغط تسـرع الانفجار وهي حركات لو كانت في عصر نابليون لألهبت العالم ولسجد لهـا كل معجب بسلطان الفرد ولكنها اليوم حركات يزدري العاقل بها وقد لا تضر إلاّ مؤتيها.

الصفح أولى

المقطم ١٩٠٨/١٢/٢١

تحتفل الأمة العثمانية اليوم بأعظم عيد في تاريخ حياتها الاجتماعية ألا وهو افتتاح مجلس مبعوثاتها. فبعد أن كانت مسوقة بقيد الظلم إلى حيث تدفعها الأهواء لقضاء مصالح فرد أو أفراد صارت اليوم بحكم هذا النظام في عداد الأمم الرشيدة التي لها مطلق الحرية للنظر في شؤونها وتدبير مصالحها بنفسها. وبعد أن كانت حكومتها حكومة الجهل والاستئثار والتشفي والانتقام صارت اليوم حكومة الرشد والتروي وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

ولكن لما كان الناس كما في الأمثال المأثورة على دين ملوكهم أي تابعين لنظام حكوماتهم كان أكثر الأمة في عهد الحكومة الماضية مسوقين بالضرورة إلى مجاراة ذلك النظام ومراعاة أحوال الزمان في مصالحهم ولو أنهم ممن لا تخفى عليهم العيوب. ولكن ماذا ينفعهم التأنف وهم لا حول لهم وفي نظرهم أن تأففهم لا يقوم معوجّاً ولا يجني إلاَّ عليهم. ومن الخرق أن يظهر الانسان بمظهر العدو لنفسه. هذا هو شأن أكثر الناس في كل مكان وزمان ومع كل نظام. ولا يشذ عن ذلك إلاَّ النذر اليسير ممن لا يغويهم الباطل وربما لم يتجاوزوا في كل أمة عدد الأصابع. فهؤلاء لا يثنيهم عن مبادئهم وعد أو وعيد وكثيراً ما يذهبون ضحية استمساكهم بعروتهم الوثقى وهم بالحقيقة أعداء أنفسهم ولكنهم فخر كل أمة بل فخر كل زمان بل فخر الانسانية في العالم قاطبة. وأما الناقمون الباقون ممن يظهرون بمظهرهم فكم يكون سبب تأففهم وخروجهم على كل نظام نفس مصالحهم الخصوصية حتى إذا عادت إليهم عادوا إلى حظيرته مستأنسين للاشتراك معه بأسلوب الظلم. وما مثال الناقمين على الحكومة الماضية والمرتدين إليها ببعيد وما كان خروجهم عليها وارتدادهم إليها إلاَّ تجارة كان الغرم فيها على الأمة وحدها.

وأي برهان أدلّ على صحة ما تقدم وهو أن مجموع الأمة على دين حكامها من حالتنا اليوم. فقد كان أحرارنا الحقيقيون على عهد الحكومة الماضية الذين جاهروا بمساوئها وعملوا على قلبها عدداً قليلاً جداً مشتتين في الأقطار يتأبّاهم الجمهور ويصمهم بأهل الطيش والتهور وباقي الأمة كان يظهر بمظهر الرضى عنها. وأعظم أمانيه أن ينال التفاتاً منها. فما انقلب ذلك النظام المستبد إلى هذا النظام الحر حتى انقلب الحال إلى الضد وقد قابل مجموع الأمة هذا الانقلاب بالحذر في أول الأمر ليحفظ له خط الرجعة حتى رأى لمعان الأسنة وصفوف الجيوش تريد النظام الجديد

بالقوة فقام ينصره ويتغنى بمحاسنه. والسابق السابق منهم الجواد. وصار الذين كان يتأباهم محجّة أمانيه وكعبة آماله وصار الذين يرميهم بالطيش والتهور أرباب ومثال التعقل والحكمة. ولم يبق من ذلك الحزب الذي يسمونه بحزب التقهقر إلاّ أناس قضى عليهم سوء الطالع ان كانوا يوم هذا الانقلاب في خدمة تلك الحكومة الغاشمة. وكم كان فيها قبله أناس لم يسلم منهم عرض من هتك ومال من مصادرة. ثم قضت الأحوال لأسباب خاصة بفصلهم أو نفيهم فلما أبرق حكم النظام الجديد حتى ضموا إلى الأحرار وأطلق سبيلهم وحمل الناس بعضهم على الأكف. وكم من أناس سواهم لم يسلم منهم قوم من شلبة تزلّفاً للقديم ثم انحازوا إليهم في هذا العصر الجديد وعرفوا كيف يفتنونهم ونالوا بهم كل وطرٍ في الحالين.

وما قدمت ذلك إلاّ لأبينّ أن العيب لم يكن في الرجال بل في النظام وإذا كان المثل القائل: «الناس على دين ملوكهم» صحيحاً فالقول القائل أيضاً «وكما تكونون يولّى عليكم» أصح. فإذا كانت حكومة الخرق والطيش والاستبداد والأثرة هي نظام السلب والنهب والتشفي والانتقام فأولى بحكومة العقل والرشد والتآخي والتآلف أن تكون نظام الحكمة والصيانة والتسامح والصفح ونفي الأحقاد. فإن ذلك ادعى إلى العماريّة. فالاحسان أجدى من الظلم والحلم أجمع للقلوب من العدل والصفح أرد للضال من الانتقام. وإلاّ فأي فضل للعقل على الجهل وللحكمة على الخرق وقد قال شاعرنا:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذ فعلت عظيم

والحق يقال إن أحرارنا أظهروا من الحكمة في سياستهم الداخلية والخارجية ما ادهش العالم المتمدن اليوم وسيكون موضع اعجاب التاريخ بل عنوان فخره الذين لم يسبق له أن يسطر لعمل الانسان فخراً أعظم منه ويحفظ لرجال الشرق المقام الأول بين كبار المصلحين. فقد حصل في الشرق ثورتان اجتماعيتان سلميّتان في هذه السنين الأخيرة لم ينسج ناسج على منوالها حتى اليوم، وهما ثورة اليابان وقد جاء الاصلاح فيها من فوق إلى أسفل أي من الهيئة الحاكمة إلى الهيئة المحكومة من غير طلب من هذه أو فهم سابق منها لمزاياه. وتكاد تكون الوحيدة في بابها من أول تاريخ العمران حتى اليوم. والثانية ثورة الأمة العثمانية وهي كسائر الثورات في أنها جاءت من أسفل إلى أعلى أي من الأمة التي قلبت الهيئة الحاكمة. إلاّ انها تختلف عنها في انها سلكت فيها مسلكاً بديعاً بلغت به الغاية ولم تهرق فيها قطرة دم.

فحكومتنا الحرة أبدعت حتى اليوم في اتقاء المشاكل الخارجية والداخلية معاً فلم تعمد إلى أقسى الشدة ولا إلى أوهى اللين، بل اعتصمت بالحزم في الحالين. وكان رائدها الحكمة في كل أعمالها فاتّقت بذلك شروراً خارجية وداخلية كان لا بد منها

لـولا ذلك، ولم يقتصر سلوكهـا ذلك عـلى الكليات بـل تناول الجـزئيات. فلم تشـدّد العقـاب على الـذين أفحشوافي السلب والنهب بـل تـركت أكثـرهم يعـاقبـون أنفسهم بالفرار من وجهها ولو شـاءت لما عـدمت وسيلة توصـل بها أذاهـا إليهم، ولو أنهم في أبعد الأقطار وفي أمنع حمى ولم تمثل بأحد من الذين هم حتى الآن في قبضة يدها.

ولكن هذه الحكمة البالغة في سلوك أحرارنا لا يفهمها مجموع الأمة. فالـذين لا يزال عندهم شك في ثبات نظامنا الجديد ينسبون ذلك إلى تـذبذب حكـومتنا الجـديدة لضعفها فيتذبذبون هم أنفسهم لا يستقرون على سـاق يمسكونـه متراوحـين في أمانيهم بين الموجتين. وهم في اضطرابهم هذا يكونون سبباً للاضطراب والذين وثقوا بالجديـد يطلبون في الحكومة أن تمثّـل بحزب التقهقـر أعظم تمثيـل ثم هم ينظرون إلى كـل من غايرهم ولو في مصلحتهم الخاصـة كأنهم من هـذا الحزب. وستـرد على نـوابا الكـرام مـطالب كثيرة من هـذا القبيل يـرفعها إليهم مُنيبوهـم وسواء أُجيبت أو لم تُجب فهي موضوع للتشويش.

فالمطلوب من مجلس مبعوثاننا وقد تعلقت بـه الآمال وصـار بيده مصـير الأحوال أن يزيل من عقول العامة هذا النظر وتلك التهمة، فيثبت للملأ أجمع وجمهور الأمة ان حكومتنا الحرة حكومة حزم ومنفعة لا حكومة تشفٍ وانتقام وتقيم في مجامع الأمم درساً اجتماعياً سياسياً جديداً تتوفر معه المنافع العمومية بتوفر كل قوى الأمة فتتناسى الماضي وتضرب عليه حجاباً كثيفاً وتصرف كـل قوى الانســان إلى إتيان المنفعـة بما تبـديه من مكافأة الاستحقاق ولو على مزية حتى تبث هذه الروح في صدور كل الأمة وتعلو بذلك أخلاقها فتقل الوشايات والسعايات ويصير كل فرد رقيباً على نفسه.

وهذا القول ليس فيه شيء من الغلو لأن الانسان في كـل أعمالـه وأخلاقـه ابن نظاماته. فإذا كان النظام الفاسد يربي الأخلاق الفاسدة، فالنظام الحر العادل يربي الأخلاق العالية. وأي إنسان لا يبذل مهجته ومـاله في سبيـل أمته وحكـومته إذا كـان يعلم أن حكومته وأمته تبذلان ما في مستطاعهما لراحته وسلامته كما تفعـل أرقى الأمم اليوم مثل أمة الانكليز. وليس على مثل هذا النظام أن يخشى شر الشرير وإنمـا شـره حينئـذٍ، يكون عـلى نفسه. ثم أن النـاس مهما ارتقت نـظاماتهم لا يصيـرون ملائكـة ولكن الحكومة العادلة الحازمة تستطيع أن تصيرهم في أفعالهم كالملائكة. فإنـه لا شيء يرهب الانسان مثل العدل. يرهبه لأنه يحترمه، وأما الظلم فلا يـرهبه إلاّ بمقـدار ما لا يستطيع أن يرضي به مطامع ظالميه.

فإذا شاء نوابنا الكرام أن يخدموا الأمة خدمة تستأصل الفساد من أعماق قلبها، فإني أرى أن تكون باكورة أعمالهم استصدار عفـو مطلق عن كـل من أخذ شـريكاً في

أعمـال الحكومـة الماضيـة حتى لا يبقى أثر لأسم حـزب التقهقر ولا يبقى ذكـره ذريعة لخصومهم لبذر بذور الشقاق ولا يبقى هذا الانقسام في عناصر الأمة لـدس الدسـائس واحداث القلاقل وهم بعملهم هذا وأن تسامحوا كثيراً مع أفراد قليلين إلاَّ أنهم يرحمون كثيرين ممن يؤخذون اليوم وسيؤخذون غداً تحت هذا الاسم ظلماً. كـما أن كثيرين من الأحرار اليوم لولا حزم الحكـومة الجـديدة لما انحازوا إليهـا. وأما الـذين عاثـوا كثيراً واثـروا من مـال السّحت فـالعفـو شملهم أيضـاً ولكن يجب عليهم أن يكفّـروا عن ماضيهم بأن يردوا إلى الأمة ما ابتزوه من مالها لاستخـدامه في المنـافع العمـومية. وإن أبوا فلا حرج على الأمة أن لعنتهم وسجلت لعنتهم في التاريخ.

شبلي شميّل

عبد الحميد في نظر الطبّ

بحث فزيولوجي بسيكولوجي

(من حيث حالة الأعصاب وأفعال العقل)

[المقتطف. ج ٣٤ (يونيو ١٩٠٩) ص ٥٦٥ - ٥٧٠]

إذا كان في مستطاع الطب اليوم أن يحكم في أخلاق مشاهير الرجال الغابرين وسائر أطوارهم بسيكولوجياً وفزيولوجياً بالنظر إلى علاقتها بحالاتهم العصبية من نفس أفعالهم التي وصلت إلينا خلال التاريخ في القرون البعيدة كموسى وعيسى ومحمد من الأنبياء والاسكندر ونابليون من الفاتحين وتيمورلنك ونيرون من الجبابرة السفاحين فبالأولى أن يستطيع ذلك في الرجال الحاضرين بقطع النظر عن درس طباعهم ومراقبة حالاتهم العصبية عن قرب بل من مجرد البحث في أفعالهم فقط.

لا ريب في أن عبدالحميد من أشهر مشاهير هذا العصر وسيعد له التاريخ صفحة كبيرة. والشهرة لا تدل دائماً على العظمة وكبر الصفحة ليس دائماً دليل المجد.

إن عبدالحميد بين ملوك هذا العصر يكاد يكون نادرةً لا لأنه لم يقم له شبيه في التاريخ الماضي أو لا يوجد له شبيهٌ في التاريخ الحاضر. فإن جميع الملوك في الماضي البعيد كانوا مطلقي الأيدي مستبدين إرادتهم قوة تشريعية وتنفيذية معاً. وملوك الصين اليوم ليس فوق سلطتهم سلطة يرضخون إليها. بل لأنه كان سلطان مملكة شاغلة أهم بقعة في الأرض بمركزها الجغرافي ذات شعوب متباينة من حيث التربية والاستعداد. فبينا هي في أقصى الهمجية في بعض الجهات إذا هي تفقهُ أرقى مزايا المدنية في بعض الجهات الأخرى. وبينا هي من أصول نشأت في حضن الحكم المقيد في بعض الأقوام إذا هي لم تعرف غير الحكم الاستبدادي في بعض الأقوام الآخرين. قال أبقراط: «إن أهل أوروبا تحكمهم شرائعهم وأما أهل آسيا فتحكمهم ملوك». والمملكة التي كان يحكمها عبدالحميد تمتد أملاكها في هاتين القارتين. ونظراً إلى مركزها هذا المتوسط في قلب الممالك والذي هو الصلة بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى هي مرتبطة ارتباطاً شديداً بمصالح الأمم الأخرى مما يجعل أمرها ذا شأن عظيم جداً في أمور تلك الأمم وممالكها بحيث لا يمكن لهذه الأمم أن تنصرف عن الاهتمام بها اهتماماً كلياً حيوياً لحفظ كيانها سليماً من الطوارىء والأمم المتمدنة على قيد شبر منها. ومع كل ذلك فعبدالحميد استطاع أن يعيش كل مدة حكمه سلطاناً

مطلقاً دائساً على كـل الشرائـع الوضعيّة حتى الالهيّة نفسهـا وان يكن قد تـذرع بهذه الأخيرة أحياناً كثيرة إلى تأييد حكمه ودعمه بدعائم دينية قوية.

يقول جمهور الاخلاقيين اليوم أن عبدالحميد تمكن من كل ذلك لأنه عـلى جانب عظيم من الذكاء والدهاء حتى أجاز على رعاياه وسائر الأمم فوز أغراضه وسيتبعهم في هذا القول المؤرخون أيضاً بلا ريب بل هو في نظر البعض أعظم داهية في هذا العصر ويريدون بهذا القول إنه ذو مدارك عقلية فائقة. ولا ينكر عليه أن قواه العقلية مترابطة في مراميها متناسقة في استنباطها وإنما هذا وحده لا يجعله في مصاف أصحـاب العقول الكبيرة حقيقة إلاَّ في نظر الذين يحكمون في أعمال العقل بالنـظر إلى جسامـة الحوادث المترتبة على تدبيره بقطع النظر عن ماهية الحوادث المترتبة على هذا التدبير.

عبدالحميد يعتبر اليوم في قوة فهمه أعـظم ممثل للذكـاء الشرقي الفـطري الذي قضت عليه التربية العلمية الحديثة وفي سلوكه أعظم ممثـل للسياسـة القديمـة الشرقيـة المكتسبة من تربية الشرق الاجتماعية والتي كان آخر ممثل عظيم لها في الغرب السياسة البزماركية مع الفرق بأن السيـاسة البـزماركيـة لم تتذرع بتلك الأسبـاب المشجوبـة إلاَّ التوصل إلى النتائج الحميدة في مصالح المملكة العامة. وأما سياسة عبدالحميد فواحدة في التناسب بين أسبابها القريبة ونتـائجها السيئـة البعيدة غـير قاصـد فيها إلاَّ مصلحـة نفسه الخاصة.

عبدالحميد ورث عن أجداده ومجتمعه طبائع مختلفة فهو نسيج من أخلاق الجبان الحاذر والمداجي الماكر والغليظ القلب القاسي وهذه الصفات وإن كانت عامة في جميـع الأمم إلاَّ أن الشرق هو الأسبق فيهـا لنوع أحكـامه المـطلقة كـما تقدم. وهـذا يؤثر في أخلاق الأمم تأثيراً سيئاً أقله ذل النفـوس واتقاء الشر بـأنواع الحيـل ولا يزال السـابق فيهـا حتى اليـوم لفقـد العلم منـه. واكتسب من نـوع تـربيتـه البيتيـة التي شب فيهـا كـالسجين بـين جدران قصـره قلة ثقته بغـير نفسه وحـذره من كل من سـواه واعتقاده الراسخ فيه أن مصلحته لا تتفق مع مصلحة غيره. وتربيتـه العلمية لم يكن فيهـا شيء ينزع منه مثل هذا الاعتقاد ويزيل منع تلك الاثرة الناشئة عن تربيته العرفية المتسلسلة أباً عن جد والمحفوظة في قلوب حاشيته ومهـذبيه والمنقـولة إليـه بلسانهم من أن الملك الذي سينتقل إليه إنما هو له وحده لا لله ولا للناس فيه مصلحة من ورائه إلاَّ مصلحة نفسه وليس في عمله واختباره نظراً لمعيشته المنقطعة عن العالم ما يرشده إلى أن مصلحة نفسه تكون أضمن وأجل إذا أتت من وراء مصلحة أمته.

والملوك الذين يتربون هذه التـربية لا يستغـرب منهم أنهم يخالفـون في سياستهم وسلوكهم مع رعـاياهم المعقـول والمنقول بـل العجب منهم أن يسلكوا هـذا السبيـل

السوي لمصلحة الرعايا أنفسهم. ولذلك كان كل الملوك الذين تربوا هذه التربية في كل العصور وفي كل الممالك ينشأون على هذه الأثرة وهذا الترفع عن سائر الناس وقلة الاعتداد بهم إلاَّ لأغراضهم. لا ذمام لهم غالباً ينكثون عهداً ولا يحفظون وداً. حتى أنك لترى صحة هذا القول في تربية ملوك أوروبا الراقية اليوم بحسب درجة تقيدهم بامتيازاتهم أو انطلاقهم منها فإن نعرة تلك الامتيازات لا تزال تعمل فيهم عند أقل عارض يعرض لهم كأنهم في اعتقادهم من طينة فوق طينة سائر الناس ولا ريب أن أرقى الملوك اليوم علماً واختباراً هو ملك الانكليز الحالي لأنه اختلط بالناس كثيراً قبل أن تبوأ عرش الملك فهو أقرب إلى عامة الناس منه إلى آلهة الملوك وأعرف بطبائعهم فهو أقرب إلى رؤساء الجمهوريات المنتخبين من الشعب منه إلى الملوك النازلين من فخذ جوبيتر.

ما عدا هذه الأمور العامة فإن هناك أموراً خاصة اتفقت لعبدالحميد جعلته في منتهى الخوف والحذر والامتناع عن مخالطة الأمة وهي تبوُّءه الملك بعد خلع سلطان قُتِل أو انتحر وآخر جنَّ أو استجنَّ وحصول كل ذلك بمساعي طائفة من أصحاب النفوذ ما زالت محيطة به في أول الأمر. ورأى تلك العبر فاشتدت به المخاوف من كل من حوله ولم يعد يرى في المقربين منه إلاَّ كل يد أثيمة. واشتد حذره من كل شيء حتى من الهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه والطعام الذي يأكله. ووقع من جراء ذلك في حالة عصبية تهيجية أشبه شيء بوسواس المضطهدين فلم يكن له هم سوى التفكير في وقاية نفسه والتخلص من كل من توهم أنه سبب في الانقلاب السابق وان وجوده خطر عليه. وقد أحسن التدبير حتى فتك بأولئك المقربين متدرجاً من العزل فالأبعاد فالنفي إلى القتل وحتى أنه قلب النظام الجديد الذي كانوا قد وضعوه وأعاد النظام القديم.

ولكن وسواسه الاضهادي لم يقف به عند هذا الحد بل استمر به على تزيد فلم يأمن على نفسه حتى من النظام القديم الذي كان معمولاً به على عهد سلفائه والذي يجعل الحكومة في أيدي رجال مسؤولين. ولم يطمئن له بال حتى جعل كل شيء في يده فقلبه شيئاً فشيئاً حتى صارت إدارة الأحكام كلها له وصارت موارد الدولة كلها ترد إلى خزينته فاستخدمها لقضاء مآربه صوناً لحياته يغدقها على هذا المقرب ويقصي بها ذلك المبعد ويتخلص من ذلك الذي اشتد قلقهُ منه. يضرب الواحد بالآخر حتى يكون الواحد رقيباً له على الآخر. ولم يقتصر به ذلك على رجال الوظائف الادارية بل اشتد به الوسواس حتى لم يعد يأمن على نفسه حاشيته التي تقيم معه في قصره ولا خدمه الذين يخدمونه ولا نساءه أنفسهن فكان يستعمل معهم جميعهم نفس سياسة التفريق التي كان يستعملها بين رجال دولته. ولم يكن يستنكف أن يقتص منهم بنفسه حتى لم

يكن يفارقه مسدسه يقتل به أياً كان منهم لحركة تصدر منه توقع عنده الريب فيه. وما أسرع تسرب الريب إليه وكم قتل به أبرياء لمجرد الوهم فقط حتى انه قتل يوماً ابنته الصغيرة لأنها استغفلته ورأت على طاولته مسدساً فأخذته لتلعب به شأن كل الأطفال فتوهم انها مغراة على الفتك به فأودى بها وهو مع ذاك كان يحبها محبة شديدة وإنما الوسواس الاضطهادي كان به أشد من ذلك الحب الأبوي فهو مغرّى به ومدفوع إلى العمل بموجبه بقوة تفوق كل عاطفة أخرى.

ثم اشتد به هذا الوسواس حتى تجاوز بطانته إلى مجموع الأمة كلها فأقام بعضها على بعض وألقى العداء بحجة الدين يستميل بذلك قوماً ويرهب آخرين ويشغل البعض بالبعض بالمجازر التي أمها في أول الأمر وجلاً قتلاً في الأفراد ثم ألفها مذابح في الجموع حتى صار الفتك به طبيعة. وخاف من كل واحد من أفراد الأمة فجعل بعضها جواسيس على بعض. وصادف من الأمة أعواناً خونة لقضاء أغراضه في سبيل مخاوفه حتى لم يعد يأمن الواحد على نفسه من أهل بيته أنفسهم. وهو كلما زاد إيقاعاً بالأمة زاد استهواء في وسواسه واسترسالاً في استنباطه أساليب الشر الوافية وليس يبعد أن تكون الحال قد انتهت به إلى أنه لم يكن يستطيع أن يفكر كيف أنه سيمضي وفي المملكة بعده ديار ونافخ نار لأن هذا الضرب من الوسواس معهود خصوصاً في أصحاب السلطان كنيرون رومية الذي أحرقها ليقوم وحده متفرجاً عليها.

وربما كان في أول الأمر يتأثر بعض الشيء من القتل لأنه لم يكن يقدم عليه بتلك العزيمة التي لم تعد بعد ذلك تعرف حذراً ولا ندماً والتي اشتدت به في مجازر أرمينيا وكان في نيته أخيراً أن يشبك المملكة كلها بها غير مقدر العواقب فيها لولا انها نشبت بفعل التقادير قبل أن نضجت معداتها كلها كما كان يرغب والتي لو تمت لكان بها القضاء التام على المملكة. وذلك لميله هذا إلى الفتك أكثر مما إلى استرجاع نفوذه المطلق الذي فقده بالنظام الجديد لأن مثل هذه الحالات العصبية التي تدفع الانسان إلى القتل لمجرد القتل فقط كثيرة تشاهد حتى في النساء الوديعات فيقتلن الأطفال ويتسترن وربما بكينهم بعد ذلك. ويشاهد أيضاً في الأمهات انفسهن فيقتلن أولادهن يفعلن ذلك مع اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة ليجعلن المقدمات تنطبق على النتيجة مما يحمل على الاعتقاد بأن قواهن العقلية سليمة وهي على هذا الحال من الخلل.

ولا يعقل أن يكون الأمر بعبد الحميد غير ذلك وإلاّ فلو كان الدافع له على هذا التدبير الأخير استرجاع ما فقده من النفوذ فهو لم يفقد بالحقيقة بعد الانقلاب الأول إلاّ متاعب الملك وتوفرت له امتيازاته الحسنة حتى كاد الناس يتناسون مساوئه الماضية مما يحسن بكل عاقل الاستمساك به لا سيما وان هذه الطريقة لم تكن مأمونة لنيل ما

يتوخاه بها من ذلك بل كل عاقل يرى بها زوال سلطته ومملكته وتعريض حياته للخطر أيضاً وهو في أعماله الماضية لم يأت عملاً يكون من ورائه مثل هذا التعريض بحياته حتى انه لما رأى أن لا قبل له بالمقاومة في أوائل الانتقاض عليه سلم بكل مطالب الأمة معتذراً بأن الخونة هم الذين كانوا يحولون بينه وبين هذه المطالب التي كان يرغب فيها من كل قلبه. وما فعل ذلك إلاّ حرصاً على حياته لاعتباره أن السلطة التي فقدها بذلك ليست مما يستمسك به ما دامت غايته الكبرى من سلامته متوفرة له فكيف ينكث أخيراً العهد الذي أعطاه على نفسه ويحنث باليمين التي أقسمها وسلطته لم تمس في جوهرها. فلو لم يكن حب سفك الدم هو الذي دفعه إلى ذلك منقاداً إليه بتلك الهواجس ومدفوعاً إليه بذلك الميل المكتسب الذي تأصل فيه وصار من طبعه لغير غاية إلاّ غاية سفك الدم لما أقدم على هذا التدبير وغرر بنفسه إلى هذا الحد وهو غير آمن من العواقب ولا هو مضطر.

فمدارك السلطان عبدالحميد كانت كل أيام حكمه منصبة لخدمة هواجسه وهي من هذا القبيل كانت محكمة ممتازة متناسبة تامة الارتباط بين المقدمات والنتائج كما في كثيرين من أصحاب الوسواس الذين ينحصر وسواسهم في موضوع واحد وكما أن هؤلاء لا يعدون من أصحاب العقول الكبيرة فهو لا يفضلهم أيضاً وإن كان قد سلم له ثلثا ملكه مدة حكمه بخسارة الثلث فقط فليس ذلك لحسن تدبيره وحصافة رأيه بل لاختلاف مصالح الدول الطامعة. وإذا كانت الأمة قد صبرت عليه كل هذا الزمان الطويل وهو يعيث ويخرب فليس من حسن تدبيره بل لأن اختلاف أجناسها وأديانها ولغاتها وجهلها ساعده عليها.

فإذا نظرنا إلى الأسباب التي حفظت عبدالحميد سلطاناً على هذا الملك المتداعي الذي أرهقه كل هذا الزمان الطويل فهي من قبله أسباب سلبية فقط إذا جاز لنا أن نستعمل مثل هذا التعبير وما عهدنا بأن ذلك من صفات العقول الايجابية. وأما الأسباب الايجابية الفعلية فهي خارجية من تنافس الدول وداخلية من حالة تربية الأمة الاجتماعية.

هذه هي حالة عبدالحميد البسيكولوجية الفزيولوجية مع أمته مستنتجة من أفعاله مدة حكمه الطويل فما بالك بالأمة التي كان هذا سلطانها المطلق مدة ثلاث وثلاثين سنة والتي لا يزال كثيرون منها اليوم يكون حسرة عليه! ـ وأما ماذا يكون من أمره بعد أسره فقد تتغير أطواره من الضد إلى الضد ويذوق راحة من هواجسه لم يعرفها من قبل. إذ ليس علاج أنجع في مثل هذه الوساوس من الانتقال بصاحبها من مركز إلى ضده وإن لم يكن بالعلاج الشافي دائماً. أما مسؤوليته الحقيقية من وراء ذلك

فمختلف فيها وفي نظرنا أنه إذا كانت المسؤولية الأدبية تجد مخففاً لها عنه من حالته هذه فالرزايا المادية التي لحقت بالأمة من جرائها تبعتها في مثل هذا الموقف تلتصق بالأمة وحدها لأن المال السائب يعلم الناس الحرام. وقد تحملت الأمة عاقبة جهلها. وأما المسؤولية الحقيقية فعلى الدول الراقية المسؤولة وحدها لدى الانسانية المتضامنة.

الدكتور شبلي شميل

إلى نقولا أرقش

المقطم ٦/١/١٩٠٩

[كتب حضرة الفاضل نقولا أفندي أرقش المحامي إلى حضرة الفاضل الدكتور شبلي شميّل كتاباً عن ترشيحه لمجلس الأعيان، فأجابه بكتاب جاء فيه بعد الديباجة:]

إن مظاهرة مواطني اليوم بما لم أفطن له ولم أدفع أحداً إليه واندفاعهم فيه من أنفسهم كليهما أعظم تعزية لي على ما نابني من التقلبات بعد أن ألقيت أساس مبدأ منذ أول نشأتي كثيراً ما تألمت في باطني من ان الناس لم يفطنوا له. وكثيراً ما حملني اليأس على الانصراف عنه والاعتزال حتى إلى الموت الأدبي الحقيقي. والناس ـ ولا يخفى عليك ـ مذاهب كالأحياء الطبيعية لا يعيشون إلاّ في الوسط المعدّون له فيموتون إذا أخرجوا منه كالسمك إذا فارق الماء.

أما الآن فمهما كانت مساعي مواطني فإن سروري بهم لا يوصف لا طمعاً بالمناصب وأنت تعلم أن فخري لا بها ولا بما يحلّي الناس به صدورهم من الأوسمة بل بانتصار فكر حق يعظم الفخر به كلما عظم سلطان الأفكار الشائعة المقاومة له. وهذا لا يتم في دائرة هذه المناصب غالباً بل خارجاً عنها وهو ميسور لكل ذي استعداد وكأني شعرت بذلك منذ أول ما أُشيع الاقتراح فقلت مدفوعاً به عن غير تعمّد ولغير قصد النشر:

أريد لك العلى وتريد قتلي ... فهل هذا يجوز بشرع عدل
وكم حاولت اطلاق «البلايا»[1] ... وأنت تريد تعقل فيّ عقلي
وتدفعني إلى «قفص» المعالي ... وهي في جانح النسر المعلّي

فسروري ليس للمنصب. أقول ذلك لا من باب الاتّضاع أو المداجاة أو الرياء فإني وحقّك طروب فخور أكثر من كل انسان. بل لانتصار مثل هذا الفكر الحق الذي داسه الاجتماع في نظاماته بأرجله وما داس به إلاّ نفسه والذي يُعرف الانسان به انه انسان حقيقة فيمزق ويعرف كيف يمزق ويضرب ولا يخاف ويعرف كيف يضرب. وفخاري بهذا الفكر كان لي أكبر تعزية في ما قضى على اندحاري في ما سواه.

---

(١) لا تؤاخذني إذا عمدت هنا إلى تفسير اللفظة لأنها غير مشهورة: فالبلايا جمع بليّة وهي ناقة الحشر تربط عند القبر حتى تموت. أعني بذلك الناس في حكوماتهم وشرائعهم ونظاماتهم.

ولذلك لا أعرف اليوم كيف أقدم شكري لقومي الكرام على ما أظهروه لي في هذه النهضة من الانعطاف مع تجردي من كل ما يبهر ويغرّ مما يستهوي الناس عادة لعلمي أن ذلك منهم ما كان إلاَّ نصراً للفكر وهو غير كثير على استقلال نفوسهم وسمو مداركهم. وما لسان حالي معهم اليوم إلاَّ كما قلت في الأبيات المتقدمة:

فما عيني بمفتتنات عين ولو جار الزمان على المُقلِ
ولا همّي قبول أو إباءٌ ولكن كيف أشكر أهل فضلِ

وفي الختام أعيد شكري لمن تقدم وأتمنى لكم عمراً مديداً وعيشاً رغيداً.

صديقك الدكتور

شبلي شميّل

المدرسة الكلية
وبروجرامها

المقطم ١٩٠٩/١/٢٧

إني أتمنى من صميم فؤادي أن يكون التعليم في جميع المدارس حراً مجرداً من كل صبغة دينية. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول كلمة في المدرسة الكلية السورية الأميركية، وقد قام البعض يطعن عليها طعناً هو في شرع الحق غير جائز إلاّ إذا حُظرت على الانسان حرية الفكر والقول والعمل ضمن القانون العام.

فالمدرسة الكلية أسسها قوم يدينون بدين معلوم بل بمذهب من هذا الدين غرضهم نشر مذهبهم هذا في الأقطار لا بالسيف وغمّ العقول بل بالتبشير والتعليم معاً. وجمعوا في سبيل هذه الغاية أموالاً طائلة من أناس لولا ذلك لما استفادت المدرسة ببارة واحدة. فالمدرسة قيّمة على أموال هؤلاء الناس بحيث لا تخالف غرضهم.

فالمدرسة الكلية لا تمثل حكومة أميركا ولا شعبها ولا الحكومة العثمانية ولا شعبها وإنما هي تمثل جمعية معلومة لغرض معلوم كقوم معلومين يتجرون ببضاعة معلومة جائزة في شرع الأمم أجمع. ولا يلزمون أحداً بها إلزاماً بل يعرضونها عليه ويبينون له محاسنها ككل تاجر من غير أن يتعرضوا لبضاعة سواهم.

على أن المدرسة الكلية نفسها مع التصاقها كل هذا الالتصاق بالغاية التي تنفق الأموال عليها ولأجلها قد تجاوزت عن هذا الغرض لمصلحة العموم فوجهت عنايتها على نوع خاص إلى تخريج تلامذة مستقلين في العلم والصناعة. وأذكر أن مؤسسها الفاضل الدكتور بلسّ لما سعى فيها صادف مقاومات عنيفة من كثيرين لاعتقادهم أن غايتهم الدينية لا تسلم لهم مع هذا التوسع في العلم، على أنه جاهد جهاد الأبطال حتى صادف أخيراً من رجال الاصلاح الحقيقيين من نصروه وحققوا له الفوز.

وقد كان إنشاء المدرسة الكلية نعمة كبرى لا لسوريا وحدها بل لسائر الأقطار العربية أيضاً. وما من سوري على اختلاف نزعته إلاّ وهو مديون لهذه المدرسة بكل ما يفتخر به الانسان. ومزيتها على سائر المدارس الخصوصية بل والعمومية أيضاً انها تخرّج التلامذة منها مستقلين في أفكارهم وقادرين على أعمالهم لا تضغط على أحد في حريته. وأذكر اني لما كنت تلميذاً فيها كنت أناقش وأجادل حتى في موضوع الدين نفسه وضد مذهب أصحاب المدرسة أنفسهم. وما من معترض كان يمنعني هذه الحرية حتى أن جميع التلامذة الذين تخرجوا فيها كثيري التسامح ليس فيهم شيء من ذلك التعصب الأعمى البليد الذي يسد المذاهب على العقول ويجعل العلم نفسه عقيماً.

وإذا أنصف التاريخ هذه المدرسة بتلامذتها الذين انتشروا في الخافقين واعترف لها بالفضل العظيم لا على سوريا وحدها بل على سائر الأقطار العربية فقد كانت لها اليد الطولى في بث مبادىء الحرية الصحيحة بلسان أعظم الأقوام عدداً الذين تتألف منهم المملكة العثمانية وفي تسهيل هذا الانقلاب الحميد على حكومتنا الحالية ويا ليت كل الأفراد والجمعيات الخصوصية ينحون نحوها في أعمالها.

فإذا كان لهذه المدرسة مع ذلك كله نظام معلوم صريح واضح فبمَ يؤخذ عليها به وهي لا علاقة لها سياسية عمومية.

فالمحافظة على هذا النظام حق يجوز للمدرسة الكلية ويجوز مثله لكل المدارس الخصوصية. فإذا كان فيه بعض ما لا نوده، فعلى الخاصة أن تقابل بين ما تتوهمه ضاراً بها والمنافع التي لها من المزايا الأخرى. وتعمل مصلحتها لا أن تقوم بتثبيط عزيمتها وتضع العراقيل في سبيلها لتدفعها إلى حرمان البلاد من منافعها الحقيقية لأن جمعيتها المركزية إذا رأت نفسها مضطرة لأن تفقد غايتها الأساسية فقد تقفلها غير آسفة على الفوائد التي تضيع علينا وما من مدرسة لسوء الحظ في كل المملكة العثمانية تستطيع أن تقوم مقامها.

وإنما الذي يطلب من قادة الأمم أصحاب الجرائد أن ينتبهوا إليه إذا كانوا حقيقة مستقلين في أفكارهم ناظرين فقط إلى المصلحة الاجتماعية العمومية الحقيقية والذي لا يجوز هو جعل التعليم الديني إلزامياً في مدارس الحكومات التي تجمع مالها من المسلم والنصراني واليهودي والمجوسي والمُعَطّل ومن هذا المذهب وذاك، فهذا هو الذي لا يجوز خصوصاً اليوم في ظل الدستور إذا نظرنا إلى معناه الحقيقي لا إذا اعتبرناه صورة فقط كزينة نحلّي بها الصدور.

الدكتور شبلي شميّل

تلميذ المدرسة الكلية السورية الانجيلية

تعليق «المقطم:

لو تروّى مكاتبو الصحف قليلاً في هذه المسألة لأدركوا خطأهم فيها وعدلوا عن كتابة ما كتبوه إلى الصحف لأنه قد يضر ولكنه لا يمكن أن ينفع أحداً. نحن نتمنى مع سائر المتمنين لو تيسر للمدرسة الكلية السورية صاحبة الفضل العظيم على الأفكار العربية أن تفتح أبوابها لكل القصّاد من دون أن توجب على أحد منهم الحضور في صلاة ليست صلاة طائفته أو ملته حتى يقبل أهل الشرق عموماً على اختلاف الملل

والنحل على ارتشاف العلم من مناهلها. ولا يجد انسان مسألة الاختلاف في الدين أمراً مانعاً من تعليم أولاده فيها. ونقول للذين لا يعلمون تاريخ هذه المدرسة الشهيرة أن غيرهم سعى في هذا الأمر منذ نحو ثمانٍ وعشرين سنة، وان لم يخطىء علمنا فاستاذنا المرحوم الدكتور كرنيليوس ڤان ديك محيي المعارف في سوريا كان في مقدمة الساعين منا ولكن أوشك ذلك أن يفضي إلى ما لا يحبه كل من يحب نشر المعارف في الشرق لأن الذين يمدون تلك المدرسة بالمال يأبون إلاّ حضور تلامذتها الصلاة فيها. فهذا هو نظامها ولم نسمع أن تلميذاً دخلها وندم هو أو والده من حضوره الصلاة وصفوف التوراة فيها. وفي ما سوى ذلك فقد أغنانا حضرة الفاضل الدكتور شميّل عن الشرح وإطالة القول.

«حلم هو الحقيقة»

[... وإذا بعاصفة حملتني ثم وقفت بي على شاطيء بحر رمله كحصباء الدر فاجلت طرفي من «مفقش الموج الى مبسم الثلج» وقلت سلام عليك ايها الوطن الحبيب. وإذا اكمة كأنها كرسي الجوزاء قائمة تطل على ذلك البحر وعليها بناء فخيم او هو سلسلة بنايات تناطح السحاب سمواً وكأني فيها فرأيت ميازيب العلم تتدفق منها كالبحر الزاخر علوم المعادن والحيوان. علوم النبات والانسان. علوم الطبيعة والكيمياء. علوم منافع الاعضاء وطب الابدان. علوم الفلك والاحداث الجوية وعلوم اللغات بقدر ما يستطيع الانسان ان يفهم ما يعلم وان يعبر عما يفهم. فتذكرت عهداً مضى وقلت هذه مرضعة العلم الصحيح وذكرت قولي فيها يوم فصالي عنها:

ايا نسمات الريح مني تحمّلي سلاماً على ربع اطال تغزلي
ويا ربع بلغ في حماك تحيتي عروساً بكأس العلم في الشرق تنجلي
عزيزة امثال ودانٍ وصالها تقول وقد ماست بثوب التدلل
لقد طالما القى الرحيق محرماً ألا فاشربوا من ذا الرحيق المحلل

فسلام عليك ايتها المدرسة الكلية والف سلام
ثم صحوت - واذا الحقيقة كالمنام*]

* من مقالة نشرها الدكتور شميّل في البصير (١٩٠٩) وحيّا فيها المدرسة الكليّة متذكراً ايام الدراسة.

جمعيّة الشورى العثمانيّة

[الأهرام: ١٩٠٩/٣/٨]

وقد تجلى نشاط العرب في محاربة عبد الحميد وطغيانه في تأليف الجمعيات، وكان منها الجمعية الإصلاحية التركية ـ العربية بزعامة الأمير أمين أرسلان وقد عاشت ردحاً من الزمن. أما عبد الحميد فقد جزع من حركات الأحرار العرب ونشاطهم في محاربة نظام حكمه المستبد الظالم وطغيانه، واضطربت نفسه أشد الإضطراب عند سماعه بتأليف جمعية عربية بالقاهرة تحمل إسم «جمعية الشورى العثمانية The Ottoman Consultative Society» التي تأسست بعد عام ١٨٩٧ بقليل، وكان من مؤسسيها محمد رفيق العظم ورشيد رضا، وساهم في إدارتها وفاعليتها رجال آخرون من العثمانيين، من ترك وأرمن وجركس واعترف لحاشيته بأنه لم ينم ثلاث ليال حتى عرف من هم الذين أسسوها، وقد أطلق عليها اسم «الجمعية الفاسدة».

وكان للجمعية فروع خارج الدولة العثمانية وكانت وسائل دعايتها تطبع بالعربية والتركية، وترسل منشوراتها إلى الموانىء التركية على البحر الأسود بواسطة المسافرين وبحارة المراكب الروسية، ومن هناك يستلمها رسل سريون وتوزع في أنحاء البلاد. كما كانت مكاتب البريد الأجنبية ـ التي حصلت مختلف الدول الأوربية على امتياز إقامتها في أراضي الدولة من أجل مخابراتها الخاصة، بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثماني، للقيام بهذه المهمة ـ أسلم واسطة وأضمنها لإيصال صحف الأحرار ورسائلهم ومناشيرهم من الخارج إلى داخل المملكة، حيث يستلمها الرسل السريون ويوزعونها على أفراد الشعب، وقد ضاق عبد الحميد ذرعا بهذه المكاتب وصمم على إخضاعها لمراقبته، فلما اجترأ عام ١٩٠١ على الايعاز بفض أكياسها تظاهرت الدول بأساطيلها، أمام الموانىء العثمانية فاعتذر الباب العالي لها عن هذا العمل وتعهد بعدم العودة إلى مثل ذلك.

. . . .

«بلغ من إخلاص العرب للعهد الجديد أن بعض كتابهم تساهلوا حتى في أمر لغتهم القومية، ففي مقال للدكتور شبلي شميل(*)، من أعضاء جمعية الشورى

[توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ـ ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ (معهد الدراسات العربية العالية: ١٩٦٠) [ص ٥١ ـ ٥٢: ص ٧٧].

العثمانية، التي مر ذكرها، جاء قوله أن على الحكومة العثمانية الجديدة أن تفرض على البلاد لغة مشتركة تكون إجبارية، وفضل أن تكون هذه اللغة هي التركية ـ بالرغم من أن اللغة العربية أغنى ماضياً وأوسع أدباً من ماضي اللغة التركية وأدبها ـ باعتبار أن هذه تستمد آدابها من جميع اللغات فتتقبل بسهولة كل ما تجده صالحاً وتتمثله بسرعة فهي بالتالي أكثر ملاءمة لشكل الحكومة الحرة الجديدة.

وكان سليمان البستاني مؤيداً لهذا الإتجاه، فقد جاء في كتابه «**عبرة وذكرى**»: «إن أعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين، وأعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية، وجعل تعليم اللغة التركية إجبارياً، فإن هاتين الوسيلتين، مع تعميم أسباب العلم والتهذيب، يضمنان توثيق غرى التواد والأخاء». ولا غرابة في الأمر، ذلك أن العرب أجمالاً، بعد عودة الدستور، لم يكن لاتجاههم بعد مسحة الطابع القومي الصرف، بالرغم من أن هذه البذرة قد نبتت عندهم نباتاً محدودا قبل إعلان الدستور. فقد كان يكفيهم وقد اطمأنوا إلى جدوى الحكم الدستوري، أن تحفظ مكانتهم في العهد الجديد بصفتهم عثمانيين، وتراعى حقوقهم على قدم المساواة مع بقيّة العناصر».

(*) راجع مقالة «النغولة في السياسة» (ص ٦٣) من هذا الكتاب، حيث يتحدّث شميّل عن «توحيد اللغة بجعل تعليم التركية إجباريّاً في كل مدارس البلاد ومن الدرجة الأولى».

* * *

عضوية الدكتور شبلي شميّل
في جمعيّة الشورى العثمانيّة

[المنار. ج ١٢(١٩٠٩) ص ١٢ - ١٥]

كتب الشيخ محمد رشيد رضا فاتحة السنة الثانية عشرة من مجلّة المنار (١٩٠٩). مقالة لعنوان «المنار والدولة العثمانيّة»، جاء فيها ما يلي:

كان يصل إلينا قليل من أخبار الإستبداد، ووقائع العتو والافساد، وبعد وفاة الأستاذ الإمام [محمد عبده، سنة ١٩٠٥] صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالسه فيه إلى مجالسة اخواننا العثمانيين المقيمين في القاهرة فازددنا علماً بسوء الحال، وخطر المآل، فأسسنا **جمعية الشورى العثمانية** لأجل جمع كلمة العثمانيين، على استبدال حكومة الشورى بحكومة المستبدين، لعلمنا بأن جمعية الاتحاد والترقي خاصة بالمسلمين، وان العثمانيين ما داموا متفرقين شيعاً، ومتقطعين مِللاً وأمماً، فكلمتهم هي السفلى، وكلمة الإستبداد هي العليا، فتألفت الجمعية من المسلمين عربهم وتركهم وألبانهم واكرادهم، ومن النصارى عربهم وروههم وأرمنهم، ودعي بعض اليهود ولكن لم يكن في مجلس ادارتها أحد منهم، وقد انتخب هذا العاجز (صاحب هذه المجلة) رئيساً لمجلس ادارة اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية وكانت ترسل جريدتها ومنشوراتها السرية، إلى الروملي والاناضول بل والأستانة العلية.

اهتم السلطان بهذه الجمعية حتى هجر النوم مضجعه ثلاث ليال، كما علمنا من رواية العارفين الثقات، فقد كان - وأقر الله بالدستور عينه، ولا سهد في عهد الحرية جفنه، - كثيراً ما يشارك أحرار أمته في أرقهم، ويساهمهم في قلقهم، وان كانا في هذا الأمر كضيف عمرو وعمروا! ، وصار للجمعية لسان صدق عند جميع أحرار العثمانيين، فكانت مبدأ ما كان من وحدتهم بعد حين، وقدم أحمد رضا بك من باريس إلى مصر فرغب إلينا ان نضم جمعيتنا إلى جمعية الاتحاد والترقي فأبى مجلس الإدارة ذلك عليه، وكان مما قلته له ان تعدد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقاً ولا يحدث ضعفاً، واننا نرى انه لا نجاح للعثمانيين إلا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور، قال ان قانون جمعيتنا لا يمنع قبول غير المسلمين فيها، قلت نعم واننا لا نشكو من القانون ولكن من عدم تنفيذه فما قانونكم - وليس في جمعيتكم رومي ولا أرمني ولا سوري نصراني - الا كقوانين السلطنة «حبر على ورق» ولو نفذ السلطان قوانين الدولة على علاتها لما طالبناه بمجلس المبعوثان لإشراك الأمة معه في الأحكام.

هذا ملخص تاريخنا السياسي في السنين الخالية: سالمنا السياسة فساورت وواثبت، وأسلسنا لها فجمعت وتفحمت، وكنّا نهمُّ بها في بعض الأحيان، فيصدف بنا عنها الاستاذ الإمام، ولم ننل منها ما نهواه، إلا بعد ان اصطفاه الله، وليس للمنار حظ في السياسة العملية، وإنما همه أن يكون حراً فيما فرض عليه من الخدمة المالية، وإذا كان (كسائر الصحف) قد أمن على حريته واستقلاله من استبداد الدولة، فقد بقي عليه أن يجاهد مع غيره استبداد الأمة. فإن في الأمة أعداء للحرية والاستقلال، في العلوم والأفكار والأعمال، يحبون ان تكون الصحف كما يرون لا كما يرى أصحابها، وان ينشر فيها ما يعتقدون لا ما يعتقد كتابها، وما كتاب الصحف إلا معلمون ومرشدون، وهل يعلم الأستاذ تلاميذه ما يعلمون ويربي المرشد مريديه كما يريدون!!؟ وقد جرى على كثير من أصحاب الصحف المصرية وما كانوا مصلحين، ويجري عليه الآن بعض أصحاب الصحف العثمانية وما هم بمهتدين، وسيبقى المنار على صراطه لا يبالي بالمخالفين.

جمعية الاخاء العربي العثماني

[الهلال. ج ١٧ (اكتوبر ١٩٠٨) ص ٦٢]

جاء منشور من الاستانة يظهر منه إنه تأسست فيها جمعية لمؤاخاة العرب العثمانيين سموها «جمعية الاخاء العربي العثماني» واسمها يدل على موضوعها. وفي المنشور اسماء الاعضاء الذين انتخبوا لها وفيهم جماعة من الوجهاء والفضلاء وليس لهم رئيس. ويلي ذلك نص مقاصد الجمعية واستحثاث ابناء العرب على الإنضمام إليها وتشكيل الفروع لها في الخارج. ومع شدة رغبتنا في نشر روح الاتحاد والاخاء بين العرب لم نستحسن الصورة التي ظهرت بها الجمعية للناس ونتقدم إلى منشئيها ونحن نجل قدرهم ونحترم آراءهم ان يعذرونا إذا صرحنا بما يبدو لنا بشأن هذا المشروع فإننا شركاءُ في المصلحة ومسؤولون عن التبعة معهم ـ اننا لا نرى للاخاء العربي محلاً بعد الدستور وبعد ان رأينا اخواننا الأتراك اصحاب السيادة وأهل الدولة تنازلوا عن جنسيتهم التركية لنكون معاً امةً واحدةً عثمانية فلا يحسن بنا ان نفتح باباً لسوءِ الظن ونحن لا نزال في احرج المسالك. لا ننكر ان في بنود هذه الجمعية نصوصاً صريحة تستحث الاعضاء على التمسك بالوحد العثمانية وعلى ادخال سائر بلاد العرب في التبعة العثمانية وترقية شؤونهم والمحافظة على الدستور وغير ذلك ولكن فيها مواضع تحتاج إلى تعديل. وفي كل حال لا نرى تسميتها بهذا الاسم لأنهُ قد يؤول إلى التفريق بين عناصر الأمة ونحن احوج الاجتماع والتعاضد.

أخبار شميّل في جريدة «البَرق» ١٩٠٩ : ١٩١٠

«قدم الثغر العالِم الدكتور شبلي أفندي الشميّل».

[السبت في ٢١ آب (اغسطس) ١٩٠٩]
البرق، العدد ٥٠، ص ٤٠٢

«رَشَّحَ السوريون في مصر حضرة العالم
الدكتور شبلي أفندي شميّل للأعيان،
وفي الرجل كفاءَة تندر في سواه».

«كان الشميّل أول مَن طَعَن على جمعية الاتحاد والترقّي . . .»

[البرق، العدد ٧٣، ص ١٧٦
يوم السبت، ٢٩ ك ٢ (يناير) ١٩١٠]

رسالة الدكتور شبلي شميّل
الى جمعيّة الاتحاد السوري في نيو يورك

خطاب جمعية الاتحاد السوري
في نيويورك
إلى الدكتور شبلي شميل
في مصر

بروكلن نيويورك في ٣ آذار سنة ١٩٠٩

سيدي الفاضل المحترم

إن السوريين في العالم الجديد شديدو الاعجاب بوطنيّهم العالم العامل والكاتب الاجتماعي المشهور الدكتور شبلي شميل. وبالنظر إلى مكانته السامية في نفوسهم قررت جميعتهم الكبرى «الاتحاد السوري» بإجماع الأصوات أن ترسل عريضة إلى الاستانة في التماس تعيينه عضواً في مجلس الأعيان. ولما كانت هذه الجمعية قد عزمت على إقامة حفلة عمومية سيحضرها مئات من أفضل العيال السورية في هذه الديار فقد رأيت أن تكون هذه الحفلة مزدانة بشيء من نفثات قلمه البليغ ولذلك جئت ملتمساً من جنابكم كتابة بضعة أسطر (من باب الحث والتنشيط أو كما تريدون) لكي تتلى في الحفلة كرسالة منكم إلى المهاجرين من أبناء وطنكم الذين يتهللون إذا سمعوا منكم أو عنكم شيئاً.

إن جمعية الاتحاد السوري التي أُسست في نيويورك منذ سبعة أشهر هي أكبر جمعية سورية في العالم الجديد تضم نحو مئة وخمسين عضواً من نخبة الجالية فضلاً عن عدة فروع لها في الداخلية وقد أصبحت لسان حال المهاجرين. وغايتها تأييد الألفة والاتحاد بين السوريين المهاجرين والاهتمام بترقية شؤونهم ومصالحهم والمدافعة عن سمعتهم وحقوقهم وتمثيلهم بما يليق إزاء سائر الشعوب. ومن جملة ما ترمي إليه تقوية الصلات الحبية بينهم وبين اخوانهم في الوطن وفي المهاجر.

فلي الأمل أن تتكرموا بإجابة هذا الملتمس وأن يصلني جوابكم قبل الخامس عشر من شهر نيسان القادم وهو الوقت المعين للحفلة. وإنني لمقدم جزيل الشكر سلفاً.

واقبلوا سيدي في الختام أذكى تحياتي المخلصة مع فائق احترامي ودمتم الداعي.

رزق حداد

رئيس الجمعية

جواب الدكتور شبلي شميل

سيدي الرئيس الفاضل

وردني خطابكم الكريم وإذا هو يحمل إليّ أشهى ما تصبو إليه المنى وهو اعتباري آهلاً لأن أكون موضع ثقة كرام مواطنيَّ المهاجرين في العالم الجديد وموضوع كرمهم وفضلهم السابغ. وقد وقفت منه على عزم جمعيتكم المحترمة على ترشيحي لمجلس أعيان الأمة العثمانية إسوة بما فعله بعض اخوانهم الكرام في القطرين المصري والسوري تبرُّعاً منهم وكرماً. ولقد أطلق ذلك فيض قلبي فوق ما يتسع له نطاق قلمي أو لساني فلم أجد للتعبير عنه أبلغ من شكري البسيط. وهو فضل لهم عظيم. ومن أجدر منهم بهذا الشعور السامي الذي يستعظم الفضل ولو سجالة ويكافي الاجتهاد ولو ثمالة فيعلي النفوس ويشحذ الهمم ويحبب للانسان خدمة الانسان. أليسوا هم أصحاب النهضة الفطرية التي لا تباري والتي دفعتهم إلى الاغتراب في طلب المجد حتى وطئوا بأخامصهم كل بقعة في المشرقين ولم يدعوا منتجعاً لم يرودوه في العالمين. فشكراً لقوم اعتزُّ بالانتساب إليهم وان قلوا. شكراً لهم لا على ترشيحي لمنصب لا أعد الوصول إليه عزة إليهم بهم ولا أشعر في نفسي بأقل ميل إليه بل شكري لهم على تفضلهم بتوجيه التفاتهم إليَّ الذي لا استكثر شيئاً في سبيل الحصول عليه.

* * *

سيداتي وسادتي الكرام

أليس الأصوب أن تسمعوني لتعرفوا مركزكم ورأيي قبل أن ترشحوني لا سيما وان الوظيفة التي تدعونني إليها ليس للشعب فيها رأي يسمع في نظامنا الجديد. فكأنها بقية باقية من متوارث رث قديم لتكون سياج الحكومة الأتوقراطية الرابضة وراء النظام الدستوري لا مجلساً أعلى تنتخبه الأمة وتقيمه لصيانة حقوقها وأخشى أن تكون سراباً تتلألأ فيه أماني راقية فإذا هي عيون عث في اضمار أفكار بالية.

وإني ألتمس العفو - سلفاً - ان اخطأت نظر البعض منكم في ما سأقول. وشفيعي لديكم ولدى العالم أجمع اخلاصي الذي أرجوكم أن لا تشكوا فيه مطلقاً. وإن كان ما يوجب الملام فمن أولى منكم بتحمل عقبى ذلك وأنتم الذين فتحتم لي الباب.

أنا لم أقصد بذكري النهضة العريقة في عنصركم السوري على اختلاف نحله والتي أنتم في يقيني عنوانها الناطق أن أطرئكم اطراء شاعر. فما هو السبب الذي يحول بينكم وبين التمتع بأقصى مزاياها؟

لا شك أن السبب هو عدم وجود رابطة تربطكم بعضكم ببعض ربطاً محكماً وتجعلكم ترمون في كل أعمالكم إلى غرض واحد مشترك. ولهذا كان السوري كفرد أعظم جداً منه كمجموع. وهذا شأنه في كل مكان في وطنه الأصلي كما في بلاد غربته. وسهولة نجاح أفراده وتفوُّقهم في كل الأعمال التي يباشرونها في كل مكان وجدوا فيه لا تعادلها إلاّ صعوبة فوزهم في جعل كلمتهم عالية نافذة نافعة كمجموع. فالسوري ليس له جامعة قومية أو هي أثر فيه والذنب في ذلك على التربية الاجتماعية التي نشأ في وسطها.

* * *

وأهم الجامعات التي تعتز بها الأمم وتقوى هي بلا ريب الجامعة السياسية التي تضم قوماً أو أقواماً برابطة مصلحة تشمل الجميع لهم منافعها وعليهم مضارها. فلا يسع الأقوام المرتبطين بهذه الجامعة إلاّ أن يجعلوا نصب أعينهم في كل أعمالهم الخصوصية مصلحتهم العمومية. ثم يشتد ذلك فيهم بالعادة حتى يرسخ في طبيعة كل فرد من أفراد المجموع.

وينقلب الأمر إلى الضد إذا كانت الجامعة السياسية غير موزعة منافعها على السواء تستأثر بها فئة دون أخرى. خصوصاً إذا كانت الحكومة التي بيدها مصالح الأمة تحرم الأمة جميع المنافع وتحملها جميع المغارم كما كان شأن الحكومة العثمانية في العهد السابق مع رعاياها فلاغرو ان تتفكك حينئذٍ عرى الاتحاد من بين أفراد الأمة أنفسهم.

ومن منا كان يشعر بحقيقة مركزه في تلك الدولة العاتية مسلماً كان أم نصرانياً ومن هذا المذهب أو ذاك ولم يكن يحمر وجهه خجلاً عند ذكر جنسيته أمام الأمم الأخرى لما كانت تجلب عليه من المهانة. أم لم يكن يصفر وجهه وجلاً من مصادرات حكامه له المتعددة في حريته. في عمله. في قوله. في حياته بل في فكره حتى عافت النفوس الإقامة في أرض تنبت شوك الظلم وتحت سماء تمطر نار الغرم. فهجرها القانطون وقلوبهم تقطر دماً على بلاد أهلتها الطبيعة بمركزها الجغرافي وبطبيعة تربتها وسكانها لأن تكون في مقدمة البلاد الراقية. ولكن يد الانسان الغاشم الجاهل جعلتها في مؤخرتها بل إقامتها حجر عثرة في سبيل المدنية العامة.

* * *

هذا كان حال الأمة العثمانية على عهد حكومتها الماضية بسبب سياستها المدمرة: المدمرة للأرض. المدمرة للناس المدمرة للأخلاق. حتى لم تعد تجتمع لها كلمة

على أمر. وساعد على هذا التراخي فيها كونها مؤلفة من شعوب وملل ونحل مختلفة حفر الجهل بينها خنادق لا اتصال فيها إلاً على جثث القتلى. حتى صار الجهل نفسه رحمة يحسد العاقل الجاهل عليها. لا لأن الجاهل كان فيها أصلح حالاً منه بل لأن نفسه لم تكن تشعر بغضاضة مركزها نظيره. ولولا سيل العلم الجارف الذي لم يعد يمكن حصره اليوم في مكان لسهولة معدات نشره لما كان رجال الحكم الماضي سمحوا للأمة بنغبة منه لا إشفاقاً عليها لئلا تفقه فتتألم بل ليعيثوا فيها فساداً من دون أن يلاقوا منها مقاومة تكدر عليهم صفاءهم.

* * *

ولا شك أن الذين شعروا بحرج المركز أكثر من سواهم حتى كادت نفوسهم تزهق جمهور السوريين وخصوصاً المسيحيون منهم لا لأنهم صودروا وظلموا أكثر من سواهم بل لأنهم أقبلوا أكثر منه على الاغتراف من ينابيع العلم والاستضاءة بنوره. وليس أصعب على الطبائع الناهضة فضلاً عن العقول الراقية من تحمل الضيم الناشيء عن الحيف الناشيء عن الجهل المفضي إلى الانقسام الجالب للفقر الهادم للعمران. ولم يكن في وسعهم لقلة عددهم ولأسباب سياسية اجتماعية كانوا بسببها كالغرباء في وطنهم أن يأتوا أمراً ذا بال لقلب حكومتهم بالعنف فطفروا إلى الهجرة متمثلين بقول الشاعر:

وما بلد الإنسان غير الموافق   وما أهله الأدنون غير الأصادق

* * *

وكنتم أنتم الذين هجرتم وطنكم إلى العالم الجديد في طليعتهم عدداً. وما هجرتم بلادكم لضيق في الأرض بل هرباً من الظلم الذي ضيق على الناس المذاهب في معايشهم واستثماراً لمواهبكم الطبيعية والمكسوبة بالتربية الجديدة وفي مقدمة الذين يستحقون كل اعجاب بهم الأميون منكم والفقراء الذين خاضوا غمار هذه الرحلة ومطاياهم آمالهم ومهمازهم إقدامهم ورأس مالهم ذكاؤهم الفطري. وهم فوق ذلك يجهلون لغة بلادهم الجديدة. فلولا هذه النهضة الطبيعية فيهم لما ملوا الضيم وترامو في البلاد السحيقة غرباء متكلين على نفوسهم. واتكالهم هذا عليها وهي في معداتها تلك استسلام للأقدار. وليس ذلك عليهم بكبير. أليسوا من نسل الجبابرة في عصور ميتولوجية الأقدمين؟ فسلام عليكم أيها المواطنون الكرام من معجب بكم.

* * *

وما أنا راكب متن الغلو في ما أقول وإنما أنا أقرر هذا الأمر بملء الاعجاب كباحث طبيعي في الأخلاق والطبائع. ولا أنظر إليه باعتبارهم أفراداً لا يخلون من

معايب الأفراد سواء كان بالتنابذ أو التنافس من غير طرقه المشروعة فأية أمة تسلم من ذلك. خصوصاً إذا كانت لا تزال تحت عوامل التربية الاجتماعية التي علقت بها من أثر التربية السياسية الأولى. ولكني أنظر إليكم في مجموعكم كناظر إلى غابة يتأملها عن أمد بقطع النظر عما يتخللها من الأشجار المتهرئة.

نعم إني أنظر إليكم كذلك وبي أمل عظيم. أنا لا أشك في أن جوهركم الناهض يساعدكم على طرح مبادىء التربية القديمة والتحلي بأخلاق التربية الجديدة لا سيما وإنكم في بلاد مهما قيل في عيوبها فإن تربيتها الاجتماعية من أرقى ما توالى على الانسان من يوم وُجد على البسيطة إلى الآن. والسوري لا شيء أسهل عليه من اقتباس محاسن أخلاق الأمم التي يساكنها مما يدل على أن أثر هذه الأخلاق الراقية عريق فيه.

[التربية الجديدة]

فإلى هذه الغاية الكبرى يلزم توجيه العناية مبتدئين في البيت فالمدرسة لتربية الناشئة الجديدة حتى تشب على أخلاق تنسيها ما علق بها من أثر التربية الماضية. ـ نعم اننا جميعنا ورثنا من حالتنا السياسية الاجتماعية الأصلية إرثاً شنيعاً جداً هو سبب تحاسدنا وتنابذنا وتعصبنا الذميم وكل ما يفكك عرى جامعتنا القومية. ـ ولا أيسر علينا جميعاً وقد أعطينا العقل والتمييز بأن نغلب عقلنا على عواطفنا بالمقارنة بين ما يكسب الانسان فخراً حقيقياً ونجاحاً ثابتاً وما يكسبه ضده. فلا يقتلنا الحسد لنجاح سوانا فنقيم له العراقيل التي يرجع صدى ضررها إلينا. بل نتحداه في نجاحه ونضع يدنا بيده لنعينه ويكون هو نفسه معونة لنا أيضاً. ولا نبخس انساناً فضلاً أوتيه فنحاول الغض منه فإن مغاني الفضل لدينا كثيرة فليقصدها كل منا من سبيل. ولا نكظم الغيظ لذنب اقترفه أحدنا فنوقع به وفي إمكاننا أن نتدارك ذلك بالحسنى. حتى تقوى فينا روابط جامعتنا القومية ويرتفع شأننا في نظر الجميع. تلك الجامعة التي تبتدىء في البيت ثم ترتقي إلى الوطن والتي يجب أن تنتهي بالجامعة الانسانية التي هي غاية الغايات من التربية الصحيحة فالاقتصار في التربية عند حد احدى الجامعات لا ينطبق على غرض العمران الحقيقي. وتيار العمران بحكم الارتقاء وبقاء الأنسب سائر إلى ذلك. انظروا إلى النكبة الهائلة التي منيت بها أرض ايطاليا أخيراً فما أجمل تعاضد الانسانية فيها من مشارق الأرض إلى مغاربها على اختلاف المواطن والشعوب والنحل والملل. ثم الفتوا نظركم إلى التاريخ فهل رأيتم له نظيراً؟ هذا شيء قليل مما هو سائر اليه العمران وما تستطيعه تلك التربية الصحيحة ـ هذه هي الأخلاق الراقية التي يجب أن نحاول غرسها في ناشئتنا حتى تصير فيهم ملكة لصلاح حالهم كما اننا غرسنا فيهم ملكان التفريق للإساءة إليهم.

* * *

[التسامح]

إذا كان لا يجوز لأحد أن ينكر أخاه لأنه طويل أو قصير أو حسير البصر أو حاده فكيف يجوز له أن ينكره ويقصيه إذا كان يرى الصواب في غير ما يراه هو. وإذا كان يجوز الاختلاف على مسألة علمية أو فلسفية من دون أن نجرد سيفاً أو نعمد إلى الهجر في القول. فلماذا لا يجوز لنا ذلك في معتقداتنا بأمور معادنا فنتخاصم ونتغاضب ونتقاتل لأجلها مع أن أمورنا في معادنا يمكن أن تستقيم ونحن بها منفردون. وأما في دنيانا فهي لا تستقيم بالتقاطع. ومن غريب المفارقات ان الانسان إذا اكتشف كنزاً أرضياً فقلما يدعو أحداً إلى مشاركته فيه ولو بالاشارة وإما إلى كنوز سعادة فكم قد قام يدعوه بالسيف! كأن الأديان معايش.

سادتي! إني لا أوجه الخطاب على نوع خاص إليكم فإني أعرفكم كثيري التسامح وإنما هو كلام أعم من أن ينحصر في قوم وفي مكان.

الانسان العاقل يستطيع أن يمازج أياً كان ومن أي مذهب كان وإن خالفه في رأيه ولا يقاطعه ولا يشعر بأدنى غبن عليه. فما المانع أن نعلم الناس أو يكونوا كلهم كذلك. العاقل يسمح لكل انسان ولا يخطئه ولا يحقد عليه. فلماذا لا نعلم هذا الانسان أن لا يقابله بالفحش بل أن يحاول اقناعه بما هو الصواب. فإن كنا نريد أن نعد لأولادنا عيشة هنيئة قليلة الشقاء يجب قبل كل شيء أن نعلمهم التسامح وهو الخطوة الكبرى في سبيل الاصلاح الحقيقي.

قلت التسامح لأنه أساس العمران المتين وفقده من أي اجتماع كان مهما ارتقت معداته الأخرى لا بد من أن يؤدي به إلى الهلاك - آجلاً أو عاجلاً. وهو - أي فقده - السبب الأكبر للنكبات التاريخية التي قامت فيها أمم على أطلال أمم. وهو علة تقهقر وطننا الكبير وهجرنا له وصوله إلى ما وصل إليه من الدمار مع أن أرضه أغنى الأرض وسكانه أنشط السكان. - وهذا الكلام ليس من الأحلام بل المدنية سائرة إليه. وسيأتي زمن يبلغ فيه هذا التسامح أقصاه. وتقوم أمم بجنب أمم لا على اطلالها وقد بدت طلائع ذلك منذ أواسط القرن الماضي. ولعل وطننا ينال نصيبه القاصي من ذلك في نهضته الحديثة: «تسامح في الأديان. تسامح في المذاهب. تسامح بين الأجناس. تسامح بين الأوطان.

[حب الوطن]

سيداتي وسادتي. هجرتم البلاد من نحو ثلاثين سنة. هجرتموها وأنتم لا تلوون على شيء من فرط الظلم. ولكن تعلق الإنسان بوطنه وحنينه إلى مسقط رأسه أمر طبيعي ككل شيء ألفه الإنسان أو اعتبره ملكاً له فأحبه - ويشذ عن ذلك حكومتنا السالفة اللهم إلاّ إذا اعتبرنا محبتها لبلادها كمحبة الغولة لأولادها. - فمع بقاء

الأسباب التي دعتكم إلى الهجرة زماناً طويلاً بعدها كثيرون منكم حافظوا على وطنيتهم وعللوا أنفسهم بأمل الرجوع إلى وطنهم مدفوعين بذلك التعلق وهذا الحنين. ولكن الذي حافظتم عليه أنتم يرجح أن أولادكم المولودين هناك لا يحافظون عليه إذا قطنوا دار هجرتهم ولم يعودوا إلى وطن آبائهم إلاّ إذا زالت الأسباب التي حملت آباءهم على الهجرة. وقام على أثرها أسباب تحبب إليهم الاستمساك بوطنيتهم الأولى كما يفعل جاليات الأمم الراقية ـ وأهم هذه الأسباب أن يعتبروا وطنيين بكل معنى الكلمة لهم ما للجميع وعليهم ما عليهم بالفعل لا بالقول وإلاّ فلهم في وطنهم الجديد غنى عن ذلك وفي إمكانهم أن يتمتعوا بكامل امتيازاته كالمولودين فيه أباً عن جد من عهد واشنطون إلى اليوم.

يقال لنا إن هذه الأسباب قد وجدت اليوم في وطننا. فأنا أحب أن يكون الأمر كذلك لأني أحب وطني ككل انسان وأحب كذلك أن تستثمر أرضه ومواهب سكانه إلى أقصى ما يمكن وأن يبلغ الشأو الذي يستحقه بحكم طبيعته بين الأوطان وفي مجامع الأمم. وبقدر ما أحبه أن يكون كذلك أنا أكره اليد المخربة له وأحب أن أقصيها عنه ولو بأفراغه إلى يد أخرى يكون لي بها الضمانة الكافية لتحقيق الاصلاح المرغوب. فأنا لا أحب وطني محبة عمياء أتبجح بها كيفما كانت الحال بل أحبه محبة عاقلة تريد أن تراه في المقام الذي يحمد وهذا المقام هو ضالتي في وطني أنشدها كما تنشد ضالة العلم.

* * *

[إعلان الدستور]

من نحو عشرة أشهر نادى منادي الحرية في البلاد العثمانية ألا حي على الفلاح. لقد سقطت دولة الظلم والاستبداد وقامت على اطلالها دولة الحرية والعدل. ولا حاجة بي إلى أن أصف لكم الفرح الذي شمل الجميع حينئذٍ فقد كان كالانفجار الذي يعقب كل ضغط شديد. وقد تجاوبت أصداؤه من أقاصي البلاد العثمانية إلى أقاصيها لا فرق بين كردي وألباني وأرمني ورومي وتركي وعربي ومسلم ومسيحي. وبفضل المهاجرين السوريين تردد صداه في المشرقين خصوصاً في العالم الجديد. وهؤلاء كانوا أشد الناس ابتهاجاً في وطنهم الأصلي وفي جميع الأقطار المنتشرين فيها. وقد انشقت حناجر النافخين منهم في بوق الجرائد العربية وأكثرها في أيديهم وبحت أصواتهم هتافاً للحرية والمساواة والإخاء والدستور. وقد كان سرورهم مجرداً عن كل غاية إلاّ غاية استرداد الانسان حريته لأن السوري شعب مجاهد يريد أن يتفرغ لأشغاله ويخلص من كل ما يعوقه فيها ويؤلمه في عواطفه سواء كان في وطنه بإشعاره أنه غريب فيه. أو في الخارج بطعنه في قلبه بجنسيته التركية كأنها كانت عند القوم مهانة. ولأنه تعلم أيضاً أن يحب الحرية لأجل الحرية. ـ وفي وقت من الأوقات تناست

الأجناس الأجناس والأديان الأديان فقام كل جنس يصافح الآخر ويدعوه إلى التآخي. وقام رؤساء الأديان يعانقون بعضهم بعضاً يعلمون الناس التسامح والتغاضي وساد الأمن في أكثر الأقطار من غير حاكم يخشى بأسه. وكان أشدهم محافظة عليه الذين كانوا هم أنفسهم يعبثون به في العهد السابق. وقد كان ذلك كله لأن النفوس كانت محتاجة إلى هذا الفرج عند خروجها من المأزق الذي كادت تزهق فيه. ثم جاء تعدي الدول الطامعة في أملاكنا في البلقان التي كانت «لا بالمطلقة ولا بالمعلقة» على زمان الحكومة السالفة فبلغ تحمس المقاطعة من النفوس مبلغاً حفظ لحمة هذا التآلف بين العناصر المختلفة حتى اليوم.

* * *

أما الآن وقد انتهت مشاكلنا الخارجية أو كادت وسكن ثائر التحمس الانفجاري وجلس المبعوثان ومشطت اللحى لمجلس الأعيان فماذا يكون مستقبلنا؟

أنا أتمنى أن يكون باهراً ولكن التمني شيء والواقع شيء آخر. والحقيقة التي لا يمارى فيها أن المركز حرج جداً ينوء تحت عبئه المصلح الدستوري حتى المستبدّ المصلح. قلت المستبد المصلح لأن المستبدّ المخرِّب لا يعسر عليه شيء. ورأى بعهم أن الحكمة في المحافظة على الوحدة الادارية. وذهب غيره إلى أنها في الاستقلال الاداري. وكل له نظر يتراوح بين الصواب والخطأ. ومهما يكن من الأمرين فالنفع فيهما متوقف على إمكان إدخال الحرية الاصلاحية إلى أقصاها وبمنتهى الحزم. كلمتان لفظهما سهل ولكنهما من أصعب ما يمكن حتى بين الأمم العريقة في المدنية. لأن الإنسان يبقى حراً متناهياً حتى يصل الأمر إلى يده فينقلب وبغاية الحزم إلى أن تعترضه أغراضه فيتراخى. وهذا ليس بكثير الضرر في البلاد العريقة في المدنية والتي ألفت النظام الدستوري. ولكنه في الأمم الجاهلة والتي لا تزال تلعب فيها الأغراض الأخرى غير الأغراض الاجتماعية شديد الضرر قد يجعل بتفكيك عراها. خصوصاً وأن شعوبها المتباينة تجعل لحمتها بعضها ببعض صناعية أكثر منها طبيعية. وزد على ذلك أن ليس لهم لا جامعة دينية ولا لغوية بل لهم من ذلك جامعات مختلفة متناقضة. وكان يمكن الإغضاء عن ذلك كله لو أن لهم جامعة علمية فقط تسهل عليهم كل شيء ولكن هذه معدومة أيضاً أكثر من كل شيء آخر.

* * *

منذ ابتدىء بانتخاب المبعوثين بدأت حركة تدل على أن هناك قوة سرية تتلاعب بالانتخاب كأنها مملكة في قلب مملكة. ولا بأس من ذلك بل ربما كان وجود مثل هذه القوة لازماً في أول الأمر لصيانة الغاية الدستورية المقصودة من هذا الانقلاب. ولكن

الدلائل آخذة في التكاثر على أن هذه الغاية ليست المقصودة منها بالـذات. وإن كانت هي المقصودة فالواقع يدل على أن الغرض التوى عليها. وإذا استمر الحال يتزايـد على ذلك فلا يكون قد تغير على الأمة شيء إلاّ اسم الحكم فقط. وديست الحقوق ولم ينـل أحد من الشعوب الباقية شيئاً من الحرية المطلوبة إلاّ كما نال فم الدب من لبن القرد. ونتيجة ذلك وخيمة على استقلال المملكة خصوصاً اليوم كما لا يخفى.

وعلى أثر ذلـك الانتخاب أخـذ الناس يتـذمرون همسـاً في أول الأمر فكـأن كل عنصر رجع إلى نفسه وأخذ يفكر في قسطه من هذا الانقلاب الجديد. وكأن كل فريق يرى نفسه مغبوناً فيه. والظاهر أن أصحاب القلاقل تعبوا من الراحة فعادوا يضـربون على نغمهم الأول ثم ظهرت حركة تشم منها رائحة التفريق بل قـامت بعض الجرائـد تحرك مسألة التُرك والعرب. وحتم بعضهم على السوريين الاذعان للأتراك ولم يسمح لهم بالانحياز إلى جانب العرب لأنهم ليسوا منهم ـ فكأنهم في نـظر القوم إرث شـرعي لمن غلب من الفريقين ـ فشأنهم في الحكومة الدستورية كشأنهم في الحكومة الاستبدادية وأقل ولا فرق عليهم إلاّ في الحرية الشخصية. ولكن إلى متى؟

* * *

والسوريون ترضيهم هذه الحـرية كـما تقدم لـولا أنهم ككل انسـان يغفل بعض حقـوقه لاستغنـائه عنهـا مرتضيـاً بالأهم ـ لا يحب أن يسمـع مـا يشم منـه رائحـة قلة الاعتداد به. وهم من طبعهم لا يميلون كثيراً إلى الاستخدام في المصالح الأميرية لأنهم شعب مجاهد والخدمة تضع حداً للمطامع التي لا تنال إلاّ بالاندفاع في تيار العمل كـل بحسب استعداده وما طرأ عليهم من اقبالهم عـلى هذه المصـالح في وقت من الأوقـات خصـوصاً في حكـومة مصر كـان عـارضـاً وبحكم الاضـطرار المتبـادل لضيق أسبـاب المعايش في وطنهم الذي هجروه بسبب الظلم ولإضطرار الحكومة إليهم أيضاً خصوصاً في أوائـل الاحتلال. وإني لا أنسى مـا قالـه لي أحد ثقـات الانكليز من نحـو عشـرين سنة. قال إننا في أول الأمر حاولنا أن نبعد السوري عن كـل الخدمـات الأميريـة فلم نفلح ووجدنا أن لا غنى لنا عنه. وما من أحد ينكر عليه تفوقه في هـذه المصالـح حتى أضعفه في العلم.

* * *

ثم أن السوري لو أنصفته حكومته وجامعته العربيـة لاعترفت لـه بأنـه صاحب الفضل في اعلاء كلمـة الحريـة في البلاد العثمـانية وفي الأقـطار العربيـة عمومـاً بنشره مبادئها بلغـة أعظم الأقـوام عدداً الـذين تتألف منهم المملكـة العثمانيـة مما سهل هذا الانقلاب. ـ بل من ينكر عليه أنه أول رافع لشأن الصحافة العربيـة في سوريـا ومصر

وفي العالم الجديد نفسه وأنا أقول هذا القول عن ثقة لا عن هوى وقد شهدت بنفسي نشأة هذه الصحافة بمصر ونشر مبادىء الحرية فيها حتى على عهد حكومة اسماعيل نفسها. ومن أسبق منهم إلى نشر العلوم الصحيحة بهذه اللغة وتوجيه أفكار القراء إلى أعظم المسائل الفلسفية الاجتماعية التي لا تزال اللغة التركية خلواً من أكثرها حتى اليوم. ـ أقول ذلك لا لأبخس المصري حقه من هذه النهضة فقد ساعد فيها في أول الأمر بماله واقباله وقلمه وحسن وفادته وكثرة تسامحه وقد برز بها اليوم كثيراً. وإنما هو نفسه لا يرضى أن ينكر هذه الحقيقة التاريخية.

* * *

ومع إقبال السوري في العهد الماضي أي عهد جور الحكومة التركية على المصالح الأميرية المصرية كان يتهرب من الاستخدام في مصالح حكومته في ذلك الحين وما أمها منه إلاّ نفر يعدون على نصف أصابع اليد الواحدة وما هم من نابغة السوريين بشيء ومع ذلك فقد تمكنوا من أن يضعوا يدهم على زمام الحكومة التركية ويسيروا بها طبقاً لرغائب مخدومهم الأعلى والناس على دين ملوكهم. ـ والحمد لله انه لم يكن على دين الحكومة السالفة من السوريين إلاّ هذا النفر القليل. ـ فإلى هذا السوري ينظر التركي أو المترك اليوم شزراً ثم يقول له إنك غير عربي استنفاراً له إليه أو اشماماً بأن مركزه في حكومته مركز الدخيل كيفما كانت الحال. فأين هي الضمانة والحال كما ترى على أنا في حكومة وبين شعوب تفقه معنى الحرية الدستورية.

لا أنكر أن هذا التذمر الذي يشاهد اليوم في قلب الحكومة الدستورية أمر لا بد منه لكثرة تباين الأجناس واختلاف المصالح والمشارب وخصوصاً لأن رد الفعل بعد كل عمل متناهٍ أمر طبيعي لا بد منه. وهو كان منتظراً بعد كل ذلك التحمس. وما هو بالذي يستوقف نظري في هذه الحركة التي يشاهد مثلها دائماً في قلب أشد الأمم اندماجاً وأعرقها في الحرية. وإنما الذي يستوقفني وأريد أن أوجه نظركم إليه هو: هل هذا الانقلاب الذي حصل طبيعي مضمون. وما هو مستقبل الحكومة العثمانية به حتى إذا عرفنا المقدمات بنينا عليها النتائج.

* * *

لا شك في أن هذا الانقلاب وافق شعور الأمة على اختلاف أجناسها ومراميها. وما من أحد من ضفاف البوسفور إلى أقاصي بلاد العرب. وفي تركيا أوروبا حتى أقاصي تركيا آسيا ومن أعقل الناس حتى أجهلهم إلاّ وكان شاعراً بسوء الحالة في الماضي ويطلب الفرج منها ولو في سره. فهو من هذه الجهة ـ أي جهة رغبة الأمة فيه فقط ـ انقلاب طبيعي. وهو مضمون كذلك بالنظر إلى حرية الفرد لأن أسباباً كثيرة

داخلية وخارجية لا تسمح بأن تعود الحالة القديمة إلى عهدها المعروف. ـ ولكن هل تستطيع الأمة العثمانية أن تحافظ على وحدتها وتتمتع بكلٍ ما تخولها إياه الحالة الجديدة من الامتيازات التي تدفعها في سبيل الارتقاء شوطاً بعيداً؟

البعض لا يشكون وأنا أحب أن يكون الأمر كذلك ولكن هذا لا يكفي. ـ فإذا أعملتم النظر قليلاً معي ولم تدعوا لغلبة الهوى سبيلاً إليكم لا يسعكم إلاّ أن تعترفوا معي بأن هذا الانقلاب الذي حصل في تركيا سياسي أكثر منه اجتماعي. وخارجي أكثر منه داخلي. ومالي اضطراري أكثر منه استقلالي.

* * *

إذا نظرنا إلى حالة الأمة العثمانية فماذا نرى؟

لا ريب أن كثيرين من العثمانيين من كل الأجناس اليوم بفضل احتكاكهم بالأوروبيين والوقوف على تربيتهم بلٍ باطلاعهم على العلوم الصحيحة وبمطالعة مؤلفات كبار مصلحيهم قد اقتبسوا كثيراً من المسائل العمرانية الكبرى من مثل وجوب التعاون في أمور الانسان الاجتماعية وتقديم مصالح الوطن والاجتماع المشتركة على كل المصالح الأخرى والتسامح الكلي في المعاملات وخصوصاً في العبادات وإطلاق حرية الفرد ضمن دائرة القانون الاجتماعي لا المسنون حسب الأهواء إلى غير ذلك مما لو جرى الاجتماع عليه في أي مكان لبلغ الانسان في الارتقاء مبلغاً لم تبلغه أرقى الأمم اليوم. وبعضهم يدرك قوة هذه المسائل بعض الشيء ولكن الأكثرين يرددونها كحلي يحلون به الكلام كما يحلون جسومهم بالملابس الأنيقة والجواهر الفاخرة. فإن حككتهم رأيتهم لم يتغيّروا عن جهلة العوام ويفوقونهم أنهم يلبسون عملهم حلة موشاة ببعض زخارف مما اكتسبوه من العلم فيأتي وقعه على العامة أشد وعلى العقول الراقية أنكى.

* * *

هذه حالة الفئة القليلة الراقية في المملكة العثمانية. وأما سائر الأمة فعلى جهل مطبق لهذه الأمور حتى أن الواحد ليأنف أن يلمس الآخر لئلا يتنجس ـ وهذا صحيح في أكثر الأحيان باعتبار آخر ـ أو أن يدخل معبد الآخر لئلا يكفر. ولا شيء من المبالغة في هذا القول إلاّ إذا أراد أن ينظر البعض إلى نفسه ويقيس باقي الأمة عليه. وأما الناظر إلى مجموع الأمة بقطع النظر عن الأغراض والأهواء لا يسعه إلاّ الاعتراف به آسفاً. ولا يخفى على البصير شدة ضرر ذلك كله في التفريق بين عناصر الأمة وتآزرها في المسائل المهمة وتفكيك لحمة جامعتها.

ولا ينتظر حقيقة أن يكون مجموع هذه الأمة أصلح مما هو لأن الأسباب العاملة في اصلاح التربية الاجتماعية وهي التعليم وخصوصاً التعليم الحر مفقود بالكلية من بينها بفضل جهل حكومتها وخرق إدارتها وساستها. وبعض الكتاتيب الموجودة هي شر من عدمها لأنها ما أقيمت إلاّ لأحكام هذا الفصل بين عناصر الأمة المختلفة ولتعليمها الجهل على قواعده ولا أبالغ إذا قلت إنه لولا بعض المدارس الغربية في الشرق ـ ولا سيما التي هي من فضل البلاد التي أنتم نزلاؤها فاهتفوا لها معي ـ لما قام في المملكة حتى اليوم من يفقه بعض الشيء من معنى الحرية التي يتغنى بها اليوم كثيرون بعد الدستور والتي أخشى أن يكون تغنيهم بها ـ كما قال الاستاذ الشيخ رشيد رضا صاحب المنار ـ كهيام ذلك العاشق الذي عاش ولهاً بأم عمرو لسماعه أحدهم يتغنى فيها بقوله:

يا أم عمروٍ جزاكِ الله مغفرةً ... ردّي عليَّ فؤادي أينما كانا

ثم مات كمداً لسماعه الشاعر نفسه يرثيها بعد حين بقوله:

لقد ذهب الحمار بأم عمروٍ ... فلا رجعت ولا رجع الحمارُ

لا بل أخشى أن يكون تعانق الشيخ والقسيس ضرباً من المجاملة الشرقية ذهاباً مع تيار الحماسة الذي عم الأمة بناء على قوله:

تثاءَب عمروٌ إذ تثاءَب خالدُ

منقادة فيه بعواطفها السريعة التهيج كما هو شأن الأمم الضعيفة لا بتعلقها الذي هو عنوان الأمم الراقية التي تغلب رزانتها في أعمالها على الهوس.

كان لي صديق من الانكليز عرفته بعد الاحتلال بقليل. وكان يجتمع بي كل ليلة وهو من عمال حكومة الاحتلال واليوم هو قاض في بعض المحاكم. وكانت احدى الجرائد الفرنساوية في ذلك الحين تطعن في الاحتلال والانكليز طعناً مجونيّاً. فكنت أُطلع صديقي الانكليزي عليه كلما اجتمعت به على سبيل المداعبة فكان يقرأه ولا يحير جواباً. وما زلت أكرر ذلك عليه حتى فرغ صبره ذات يوم فبادرني بكل هدوء «نحن الانكليز جلدنا سميك» ولم يبتسم ولم يحتد في الكلام ولم يبدُ عليه أقل تأثر أو انفعال ا.هـ. هذا هو بالحقيقة سر نجاح هذه الأمة العظيمة لأن غلبة العقل على العواطف تجعل الأعمال أكثر احكاماً والانقياد للعواطف ولو كانت حسنة كثيراً ما يفضي إلى عكس المقصود ولا تتأتى هذه الغلبة للعقل إلاّ إذا ارتقى جداً.

فالتربية البيتية والتربية المدرسية والتربية الدينية والتربية المصلحية التي من مجموعها تتألف التربية الاجتماعية هي في أسوأ حالاتها في المملكة العثمانية ولا أظن أحداً ينكر ذلك. والتربية المدرسية خصوصاً أثرها في العقل لا يزول.

حكي عن المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية انه كان في لجنة النظر في اصلاح التعليم في الأزهر المعهد الاسلامي الديني العظيم في مصر. فمن جملة الاصلاحات التي كان ينويها اصلاح نظام التدريس نفسه فاعترضه بعضهم بقوله: أليس هذا النظام هو الذي تعلمت أنت فيه أيضاً؟ فأجابه نعم أنا تعلمت في الأزهر عشر سنين وقد مضي عليَّ اليوم عشر سنين أخرى وأنا أكنس من مخي الأوساخ التي علقت به منه ولم أنتهِ منها حان الآن ا. هـ.

نعم سيداتي وسادتي إن الشرق لفي حاجة كبرى إلى مكنسة الشيخ محمد عبده الذي كان أماماً في دين الاسلام ولكنه كان مع ذلك يعلم بنته في دير الراهبات ولو وجد مكاناً أرقى منه لبعثها إليه. أقول ذلك وأرجو أن لا يكون بينكم من يحمل كلامي على غير محمله فيفهم منه إني أريد كنس الدين من عقول البشر كلا لا أريد إلا أن يكون التعليم حراً نظيفاً نافعاً بحيث تحفظ للعقل حريته وهذه الحرية لا تكون إلا إذا بلغ التسامح الديني أقصى ما تفرضه المصلحة الاجتماعية المشتركة. والدين صلة بين قلب الانسان وربه فلا يليق بنا أن نتبذّل به وننزله إلى مصلحة اجتماعية كثيراً ما تكون سبباً لعرقلة أمورنا في دنيانا.

فإذا وعيتم ما تقدم فهمتم ان هذا الانقلاب الحميد في المملكة العثمانية لم يكن عن أسباب داخلية اجتماعية في قلب الأمة وإن قبولها له لا يكفي وحده للاحتفاظ به إلى حد الاستقلال التام. ـ وإذا عرفتم كذلك أن المملكة العثمانية منذ زمن بعيد كانت ولا تزال حتى الساعة نقطة تصادم مصالح الدول الكبرى. وتتبعتم مجرى الحوادث في الأيام الأخيرة وكيف أن المملكة أصبحت لقمة سائغة بخرق الحكومة لاحدى الدول العظام. وعرفتم أن ميزان السياسة الدولية يتقلب بحسب رجحان قوة هذه الدولة أو تلك. وإن سلامة المملكة العثمانية مسألة حيوية لبعض الدول العظام. ورأيتم كيف أن انكلترا التي كانت مقصاة كل تلك المدة من خاطر صديقتها القديمة أخذت تستميل الدول واحدة واحدة حتى إمالتها إليه فعزلت ذلك الخصم العنيد. علمتم سر هذا الانقلاب والاصبع القوية التي عملت فيه. أقول ذلك لا لأبخس أبطالنا حقهم بركوبهم ذلك المركب الخشن المحفوف بالمخاطر ولكن لأبين أنه لولا هذا العضد القوي لما اتسعت الآمال وأمنت شر العواقب الداخلية والخارجية لسحق سلطان الظالم وهي تحسبه كالجبال الرواسي وإذا هو صنم من خزف. وزد على ذلك تأخير دفع مرتبات الجنود واقصاء نبهاء ضباطهم إلى حيث كل حركة من حركاتهم مرصودة إلى الهلاك واعتبارهم بمن تقدمهم ممن عبروا السراط لا إلى جنة الدنيا بل إلى جهنم

الموت. أقول إذا علمتم كل ذلك علمتم لماذا هذا الانقلاب سياسي أكثر منه اجتماعي وخارجي أكثر منه داخلي واضطراري مالي أكثر منه استقلالي.

* * *

سيداتي وسادتي. ـ إن قيام الأمم وسقوطها ليس من أحكام القضاء والقدر. بل من قضاء الانسان على نفسه بأعماله ـ قام العرب بعصبية دين جديد وعهدهم قريب بأخلاق جاهليتهم كالفخار والشمم والاستقلال والاقدام والنجدة للحرب فسلبوا الروم والفرس ملكهم يوم بلغوا من الظلم والانغماس في الترف والترهل منتهى الضعف على ما كان لملكهم من الاتساع في الأقطار المترامية. وقد أظهر العرب بعد ذلك في أول الأمر من حسن الادارة ما وطد ملكهم بما أتوه من بسطة العيش حتى فاقوا سواهم في ذلك العهد ـ وكل شيء نسبي ـ وقد نشروا لغتهم حتى صارت جامعة قوية وهذبوها حتى وسعت كل العلوم. ـ ثم جاء الأتراك وسلبوهم ملكهم بنفس الأخلاق الجاهلية الناهضة وبنفس الأسباب حتى ارهبوا كل مجاوريهم وكان مجاوروهم في منتهى الضعف.

ولما توطد لهم الملك لم ينفكوا عن أخلاق الفتح بل ثابروا إلى هذا العهد على الحكم بأخلاق جاهلبتهم الأولى حتى كان لهم كل يوم في قلب مملكتهم نفسها فتح جديد فانهكوا البلاد وأرهقوا العباد. ولم يأتوا شيئاً من حسن الادارة في تدبير المملكة ولم يحكموا سوى سياسة التفريق. حتى أن لغتهم نفسها لم يعرفوا كيف ينشرونها لأحكام جامعة التفاهم بين رعاياهم. ولم يهتموا بتهذيبها لجعلها لغة إلاّ من عهد قريب. بينا الأم الأخرى المجاورة ارتقت في هذه الفترة من حضيض الجهل والذل إلى أوج العلم والعزة. ـ فإذا كانت الحكومة التركية لم تعرف أن تجاري الأمم المجاورة وهي ضعيفة. فهل تستطيع اليوم أن تجاريها لتثبت أمامها في ناموس التنازع العنيد ويلزمها من حسن الادارة اضعاف أضعاف ما كان يلزمها في الماضي؟ نعم قد يمكن ـ لأن المدنية متساهلة اليوم ـ إذا عرفنا أن نضبط إرادتنا ونحسن إدارتنا لنحكم مع الأمة بالفعل لا بالقول ولنعرف كيف نكتسب صداقة الدول اللازمة لنا أيضاً. وإلاّ إذا ثابرنا في الحكم على أخلاق جاهليتنا الأولى مختبئين بها وراء صور النظامات الراقية فائتلافنا مشكوك فيه ونجاحنا اليوم غير مضمون.

* * *

وما كنت لأعبأ بكل ذلك مهما قيل في هذا الانقلاب وأسبابه وماضينا وحاضرنا. لولا أن الحالة الاجتماعية التي بسطتها في ما تقدم لا تجعل في النفس أقل اطمئنان على

مستقبله لـلاحتفاظ بـه والاستفادة منـه كل الفـوائد الـلازمة لعمـران البـلاد. ومجلس المبعوثان مـع قلة تدرُّب أعضـائه عـلى المسائـل العمرانيـة الهامـة ـ معاذ الله أن أريـد الطعن على أحـد منهم بل أريـد أن أقول إن البـلاد لا تستطيـع أن توفـد أصلح منهم بكثـير إلى بابـل الجديـدة ـ وتنطع بعضهم في المسـائل الـدينية المفـرقة التي يبـدونها في صدور المجلس ويسطون بها على حرية القول ليس بضمانة كافية لا بحريته الصحيحة لسن الاصلاحات الراقية. ولا باستقلاله لمقاومـة القوة الخفيـة التي تديـره إذا تعسفت ولا بتأييد الأمة له في الاصلاحات المطلوبة بـل ربما كـان يومـاً ما ملعبـاً لروايـة يعقبها انقلاب عظيم في المملكة.

* * *

إلاَّ إني أقدر أن أطمئنكم من الآن أن الرجوع إلى الحالة القديمة من سلب حرية الفرد لن يمكن في المستقبل لأسباب عامة مدنية لا يسع المصالح المشتركة العـامة اليـوم أن تتغاضى عنها للرجـوع فيها إلى القـديم إذا حصل بخـرق سياستنـا الجديـد ما يمس سلامة المجموع. وهذا يهوّن عليَّ كل حسبان في الأمـر لأن وطنيتي غير قـائمة بقـوم أو بلاد بل بحالة قوم وحالة بلاد أي أني أحب وطني وقـومي بهدايتهم إلى اصـلاح حالهم لا بمساعدتهم على البقاء في خيالهم ولا أرغب عنهم إلاَّ لأرغب فيهم ولا أداجيهم خوفاً من اغضـابهم ولا أصـاديهم طمعـاً في صلتهم ولا أتعصب معهم لأصـدَّ عنهم مـوارد عظمتهم. فإن وطني كما تقدم أعم جـداً من أن ينحصر في قوم أو بقعـة من الأرض. وأتمنى أن الناس جميعهم ينظرون إلى هذه المسألة نظري هذا. عند ذلك يسقط من بين الأوطان حاجز حصين كـالقائم بـين الأديان ويقـوى المجموع ويتعـاظم بتعاظم حـرية الفرد إذ يصير عمـل الانسان وهـو في بيته أسـاساً لعمله في قـومه وفي وطنـه وفي العالم أجمع متدرجاً من الأقرب فما بعد بحكم الضـرورة. لا انه يقف بـه عند حـد ثم يقوم ويرفع عقيرته ويعد عدته للمحافظة على همجيته وصد مدنيته.

* * *

أيتها السيدات ويا أيها السـادة

لقـد أطلت عليكم القـول وأخشى أن تكـونـوا قـد مللتمـوني. ولا سيـما إني لم أخاطب عواطفكم لاستفـزها إلى الحمـاسة فتخـرجوا نشـاوى بخمرة الـطرب حتى إذا راحت السكـرة عـدتم إلى الفكـرة. بـل خـاطبت عقـولكم لكي تتـدبـروا أمـوركم الاجتماعية التي هي أساس جامعتكم القومية والوطنية والسياسية والانسانية أيضاً حتى إذا خدمتم الواحدة جيداً خدمتم الجامعات الأخرى وإذا كنتم أعزاء في الواحـدة كنتم أعزاء في الباقيات كذلك. ـ وهكذا تقيمون بنيان اجتماعكم على أساس متين.

هذه حالتنا وهذه أفكاري. فتدبروا هل من الرأي الصائب أن ترشحوني؟ وإن رشحتموني فهل تقبل الحكومة؟ وإن قبلت فهل يسوغ لي أن أقبل أنا أيضاً؟ وكيف يكون مركزي حينئذٍ؟

والسلام عليكم أجمعين

الدكتور شبلي شميل

شبلي شميّل: ١٩٠٩

«أمنيتي أن تُنْقَل رمّتي إلى الوطن الأول»
إلى مسقط رأس شبلي ابراهيم شميّل
في كفرشيما بمياهها الفضيّة!

الرزق من وراء القَلَم في الشرق
أضيق من شقّ القَلَم

النظام والرجال

المقطم ١٩٠٩/٦/٢٣

قرأت اليوم في «الأخبار» خبراً ساراً جداً عن مسلك قومندان مدينة بيروت مع «حكامها» الحقيقيين الذين كانوا يكدّرون الأمن في المدينة المذكورة في الماضي والذين كانوا يفاخرون بأنهم هم الذين يحافظون عليه اليوم قبل مجيء القومندان الجديد ليبقى لهم فخر الحكم في الحالين. فإنه سلم معهم مسلك الرجل الحازم العارف بوظيفته والواثق بأن راحة الشعب لا تتأتى إلاّ بالمحافظة على كرامة الحكومة ومعرفة كل واحد حدّه ليقف عنده.

وما كان الأمر كذلك في نظر العقلاء في كل هذه المدة بعد إعلان الدستور ولو أن بيروت كانت في مقدمة الولايات التي عرفت معنى هذا الانقلاب الحسن وحافظت على الأمن أحسن من كل ولاية أخرى. بل علم الجميع بأن مرجع الفضل في المحافظة على الأمن إنما كان لمشيئة «فتوّات» المدينة الذين بقوا أصحاب الحول والطول في العهد الجديد كما كانوا في العهد القديم. كأن يجعل كل واحد من الناس مضطرباً غير آمن على نفسه من مظاهر هذه الفوضى السلمية.

وأما اليوم فإذا قيل إن بيروت في أمن حقيقي وثق الناس لقيام هذا الأمن على سلوك الحكومة طبقاً للنظام العام ما دام الحكام قائمين بواجباتهم حق القيام. وهذا يدلك على سهولة انقياد الناس وسهولة اخضاع المتظاهرين منهم بصعوبة المراس للحكومة العادلة الحازمة. حتى أن أكثر العقلاء يرون في حالتنا الحاضرة وجوب تمديد أجل الحكومة العرفيّة لا في عاصمة البلاد بل متنقلة في الولايات بضع سنين لتطئمن النفوس إلى أن يألف الناس النظام العادل ويتعوّد الحكام تنفيذه. ولكن على شرط أن تبقى هذه الحكومة العرفية كما هي الآن إصلاحية حقيقية.

والذين يقولون هذا القول مصيبون في كل حال لأن العقلاء إن كانوا ينقادون بسهولة لأحكام العقل فالجهلاء لا ينقادون إلاّ لمظاهر القوة. ولكن الجهلاء أنفسهم أسهل انقياداً لهذه القوة مما يُظَن لأن الجاهل غالباً جبان فلا يلزم تجييش الجيوش لاخضاعه في كل حال بل يكفي أن تكون الحكومة منيعة شديدة لا تراعي في المقام خليلاً. وأي دليل أحسن من الشدة التي أتاها قومندان بيروت الجديد. فبقي على الحكومة المركزية أن تعرف كيف تختار حكامها في الولايات بحيث يكونون بنزاهتهم ومعرفتهم حقيقة واجباتهم في عصمة من الزلل.

ولكني قرأت في الجرائد أمراً آخر عن بيروت نفسها أقلقني إذ دلّني على أن بين حكامنا كثيرين مهما حسنت نياتهم ليسوا دائماً ذوي كفاءة تؤهلهم تأدية وظائفهم وحقوقها. قرأت أن حكومة بيروت صادرة إحدى الصحف هناك لأنها انتقدت ما جاء في الفرمان السلطاني من عبارات التبجيل التي كانت تُستعمل كثيراً في العهد القديم. وهو انتقاد لو تدبره أصحاب الشأن لأحلّوه المحل الذي يستحقه من جليل الاعتبار ولاعظموا قائله تنشيطاً له ولأمثاله على إتيان الانتقادات المعقولة. ولكن ما رأيك في ما يكون لمثل هذه المصادرة من الأثر السيء في العقول الراقية مما يربكها وقد يدفعها إلى مقابلة المثل بالمثل. فضلاً عن سوء تأثيره في العقول العادية التي يطلب هذا النظام الجديد ترقيتها.

وأنا لا أشك في أن النظام الجديد لا يحظر مثل ذلك بل يرمي إليه. وما هي إلاّ هفوة من منفذ هذا النظام تدلنا على أن النقص اليوم ليس في شكل حكومتنا بل من صعوبة وجود الرجال الأكفاء. على أن الأيام مدرسة المجتهد والحاضر محمود بعد الثورة الأخيرة إلى الآن بفضل الجيش والحكومة العرفية فعساه أن يكون لنا عنواناً لمستقبل أحسن.

الدكتور شبلي شميّل

خطبة زائر

المقطم ١٩/٩/١٩٠٩

[لما زار حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميّل مدينة زحلة بالغ كرامها وأعيانها في الترحيب به في حفلة حافلة وألقوا الخطب الشائقة ذاكرين فيها ما اتصف به من حميد المناقب وسعة العلم وحرية القول. فرد عليهم بخطبة أنيقة هذا نصها:]

سادتي واخواني الكرام

لم يكن في حسباني يوم وطئت تراب سوريا المحبوب وتنشقت نسيمها المنعش واحتككت برجالها أصحاب الفضل أن أصادف من الاحتفاء بي ما صادفته مدة سياحتي القصيرة فيها خصوصاً في هذه المدينة الزاهرة. لا لأن الأهالي أنفسهم ـ وهم الموصوفون بكرم النفس ومكارم الأخلاق ـ يكثر عليهم مثل ذلك. بل لاعتقادي بأن شخصي الحقير لم يعمل عملاً يقاس بأعمال كبار الرجال يستحق منهم مثل هذا الالتفات. فإذا كنتم ترونني اليوم طروباً فخوراً فلا تحسبوا أن معاملتكم هذه لي اكسبتني غروراً بنفسي بل لأني رأيت الفخر الحقيقي متجلياً لي في اجتماعكم هذا بأبهر مظاهرة. فإذا افتخرت اليوم فما افتخاري إلاّ بكم وإذا سررت مما سروري إلاّ بنهضتكم.

لا شك أنكم تنتظرون مني كلمة عن حالة البلاد بعد هجرها سبعة وعشرين سنة وخصوصاً بعد هذا الانقلاب الحميد. على أني أخشى أن أكون متسرعاً في حكمي إذا بنيته على خبرتي القليلة في مدة سياحتي هذه القصيرة. ولكن إذا كان لا يمكنني أن أبدي حكماً صائباً في دخائل المسائل الجزئية بالقيام إلى ما يجب أن يكون في كل أمة راقية راغبة في التقدم الحقيقي ناسجة على منوال الأمم التي سبقتها في مضمار المدنية فلا يسعني إلاّ أن أبدي حكماً إجمالياً بالقياس إلى الماضي.

وأبدأ من بيروت التي قيل فيها ـ ونعم القول ـ إنها درّة في تاج المملكة العثمانية. فإن ما يراه القادم إليها من مظاهر التآخي بين السكان وما يصادفه من حسن المعاملة ممن لم يكن لهم همّ في الماضي سوى التشويش على الناس وتكدير الأمن يوجب الفخر لعناصرها المختلفة ويبشرنا بمستقبل حسن. أقول ذلك ناظراً لا إلى اتساع المدينة وانتشار المباني الفخيمة فيها والمحسنات الأخرى المادية، فإن ذلك وان يكن قد ارتقى فيها عن الماضي جرياً على سنن الارتقاء الطبيعي البسيطة والبطيئة جداً إلاّ أنه لا يزال دون الواجب. بل ناظراً إلى الحالة الاجتماعية نفسها لأن الاصلاح الحقيقي الذي يُرجى منه كل خير إنما يكون عن هذا الطريق أولاً وهو إذا بدت

طلائعه في قوم لا يقف حينئذٍ عند حد وأرغم السنن الطبيعية نفسها له وسار شوطاً بعيداً في زمن قصير. وهذا ليس بعسير على العنصر السوري المتصف بالهمة والاقدام والذين وصفهم شاعر مصر الكبير حافظ أفندي ابراهيم بقوله:

رادوا المناهل في الدنيا فلو وجدوا
إلى المجرّة ركباً صاعداً ركبوا

فهذه النهضة الفطرية في أقوام سوريا إذا كانت مع الجهل شديدة الخطر صعبة المسلك... فهي مع العلم كثيرة المزايا الحميدة التي لا تدرك سرعة مبلغها من التقدم. وأي دليل على ذلك أعظم من سرعة... رجال بيروت الذين كانوا في الماضي يكدرون السلم يوم كانوا يظنون أن الفخر كل الفخر في التقاطع والتخاذل فلما أدركوا بعد الدستور أن المصلحة والفخر في التناصر والتآخي كانوا في طليعة القوم في حفظ الأمن. وهذا يدلنا على وجود جوهر ناهض ثمين جداً في عامة الشعب لو تعهدناه بالعلم والإرشاد ولم نفسده بالظلم والرشوة لبلغنا به أعظم مبلغ تستطيعه الأمم الراقية العريقة في التمدن.

ركبت مع حوذي يمثل أبسط الشعب الذي على الفطرة بجهله وصراحته. وكان معي رفيق من أفاضل القوم للحوذي دالّة عليه. وكان قد سعى في إدخاله في احدى الجمعيات الاصلاحية سابقاً فأخذ يتظلم في الطريق ومن جملة ما ذكره قوله: «شو ها الظلم. «كف» يا ناس بيكلّف مائة ريال مجيدي ضربت مرة كف لواحد وما عدت أعرف كيف أخلص من يد الحكومة. فبرطلت بخمسة ريالات مجيدي. قالوا لي القاضي وحده يلزمه عشرين ريال وفلان هالقدّ وفلان هالقدّ». فقلت له وبأي حق تضرب سواك «كف». قال: «سبب ديني، كيف بتريد اسكت له ولو راحت روحي ما بسكتش» ثم ذكر أموراً أخرى دلت على أن الشعب البسيط يدرك قوة الاصلاح ويرغب فيه.

فأعجبتني هذه النهضة الفطرية وهذا الاستعداد للاصلاح كما انه ساءَني دناءَة رجال الأحكام وقلت في نفسي الذنب ليس على العامة بل على الخاصة في تقهقر كل أمة وبلاد.

وأما جبل لبنان البديع بموقعه الجغرافي القائم على كتف البحر والجميل باختلاف مناظره الطبيعية والمتفرد برقة هوائه وعذوبة مائه والمفاخر بنشاط أهله فكنت أرغب أن أراه في النظام الذي كان يجب أن يكون له بعد نيله امتيازه كل هذا الزمان الطويل ولو فعل لكان أجمل بقعة في الأرض بالطبيعة والصناعة. ولكن الظاهر أن الحالة الماضية التي كانت عامة على المملكة العثمانية بقيت حالة عليه أيضاً حتى جعلت سيره في الارتقاء بطيئاً جداً.

ولا يستفاد من ذلك أن لبنان الجميل لم يستفد فوائد جمة في هذه الفترة الطويلة، فإنه لا توجد بقعة فيه مهما كانت منعزلة إلاّ ويعجب الناظر من امتداد يد الانسان إليها وإقامة المباني الفخيمة فيها وإدخال الاصلاحات الجمة إليها. ولا ينكر ما كان لامتيازه في كل ذلك من الفضل بجعل لبنان بمعزل عن التأثر بمفاسد أهل الفساد ممن كانوا يثيرون فيه الفتن في الماضي للصيد في الماء العكر. على أن الفضل الحقيقي إنما هو لرجال لبنان أنفسهم المتصفين بالنهضة والاقدام والذين لم تثنهم الصعوبات فاحتلوا المشرقين ووطئوا بأقدامهم القطبين فاكتسبوا من هجرتهم سعة في الرزق واقتبسوا من الأمم الراقية محاسنها وعادوا بها إلى وطنهم المحبوب وادخلوا كثيراً منها فيه.

ولا ريب أن المدينة التي استفادت من هذه المواهب أكثر من سواها هي مدينتكم المحبوبة فإني زرتها منذ سبع وعشرين سنة ثم زرتها اليوم فإذا الفرق عظيم جداً بين العهدين ولقد كان سروري أعظم جداً من حالة الأهالي الاجتماعية. فإن المدينة اليوم «تعجّ» بشبّان تهذبوا على أحدث الطرق واقتبسوا أفضل العلوم ورجال نزحوا في طلب المجد ثم عادوا ينفعون وطنهم الأصلي بما اكتسبوه في هجرتهم. ويدخلون إليه الاصلاح الذي اقتبسوه عن الأمم الراقية التي اختلطوا بها بحيث صار الناظر إلى المدينة اليوم يرى فيها كل جراثيم الارتقاء من جمعيات أدبية ومدارس عالية ومستشفيات ومن هذا المعرض الزاهر الذي نشاهده فيها اليوم والذي هو عنوان ارتقاء حقيقي وهو وإن كان صغيراً اليوم فسينمو مع الزمان جداً عملاً بسنّة الارتقاء وتكون منفعته للبلاد عظيمة كذلك. وإني أغتنم هذه الفرصة لاسداء شكر البلاد عموماً للذين أسسوه واعتنوا باخراجه من حيز القول إلى الفعل وعانوا في سبيله من المشقات ما لا يجهله أحد. فنعم رجال العمل هم.

واحتفاؤكم اليوم بهذا الضيف الواقف أمامكم على قلة استحقاقه دليل فيكم على عاطفة نبيلة جداً قلما تعودها الشرق. فبعث روح النشاط في كل من فيه أقل قابلية للظهور باتباع سُبُل الجد والنشاط في خدمة الوطن والانسانية قاطبة.

أشكركم على مجاملتكم هذه شكراً يضيق عنه قلمي ويعجز عنه لساني ولا استطيع أن أقابلكم عليه إلاّ أن أبشركم بأن الذي أرى اليوم في مدينتكم الزاهرة يبشرني بأنه لا يمضي عليكم سنون قليلة حتى تكون مدينتكم لا في مقدمة مدن لبنان فقط بل في مقدمة مدن سوريا أيضاً نهضة وارتقاء.

وإن كنت قد قصرت في هذا الموقف عن تأدية ما يحق لحضراتكم عليّ قبل هذا الفضل العظيم فما أنا بوافٍ ما يحق عليّ أيضاً لمقدامكم الفاضل وهاديكم الجليل

صاحب الغيرة الحقيقية والذي هو شعلة نور بينكم سيمتد ضياؤها في الأقطار وهو حضرة الأب الجليل الخوري بولس الكفوري صاحب المهذب فإنه غمرني بفضله كما أنه أناركم بهديه. وفي الختام أطلب إليكم جميعاً أن تشملوني بغض النظر عن قصوري في هذا الموقف الحرج.

رسالة العرب والاتراك

حاشية:

تذكر بعض المصادر من بين مؤلّفات الدكتور شميّل ما تشير إليه بـ «رسالة العرب والأتراك» (١٩١٣). وأغلب الظنّ ان المقصود بذلك هو الكرّاس الذي نشره الدكتور شبلي شميّل باللغة الفرنسيّة ـ وكان من المجيدين فيها ـ وطُبع في مطبعة المقطّم عام ١٩١٣. هذا ما يُستفاد من مقالة لوسيرف عن «مساوىء السيطرة التركية ومسؤولية أوروبا»، في عرضه لآراء فيلسوف سوري حول السياسة الدوليّة. ولم نعثر على «رسالة العرب والاتراك» في المنشورات العربيّة التي أمكن الحصول عليها منذ عقود من السنين.

﴿ التجنيس الأميركي ﴾

(وحقوق الانسان)*

«بقلم حضرة العالم العلامة والفيلسوف الاجتماعي الدكتور شبلي شميل»

أسمعتنا أميركا اليوم صوتاً غريباً. لا أريد أن أقول أميركا لئلا أسجل على هذه القارة الكريمة بلاد الحرية ومعرفة حقوق الانسان عاراً يشجبها عليه العقلاء اليوم والعالم أجمع غداً. لأن العالم سائر إلى الأمام في معرفة هذه الحقوق فلا يليق بالبلاد التي كانت معلمة الدنيا بمثالها الحسن وتعاليمها الحرة أن تكون سائرة اليوم في هذه التعاليم إلى الوراء.

بل أقول إن رجلاً أميركياً أسمعنا اليوم صوتاً غريباً. والرجل ليس أميركا كلها كما أن السوري الذي لا يشرف بلاده حيث كان ليس سوريا كلها.

أسمعنا ريتشارد كامبل القائم على رئاسة مجلس التجنيس الأميركي أن السوري لا يحق له اليوم أن يتجنس بالجنسية الأميركية.

ولماذا؟

لأن السوري من الشعوب الاسيوية المحظور عليها ذلك بقانون مسنون.

ولماذا أيضاً؟

لأن الاسيويين شعوب منحطة وغير قابلة الارتقاء في شرع واضع هذا القانون.

وهذا كقول الاسيوي يوم كان في أوج مدنيته وكان أهل أوروبا غارقين في الجهل انه لا يجوز معاملتهم معاملة الأنداد لأنهم برابرة.

ومع ذلك فالاسيوي قد انحط والأوروباوي قد ارتقى.

فإن كان كامبل يتكلم في القرن العشرين كأنه لا يزال عائشاً في القرون التي تقدمته فليس من العدل أن يقال إن أميركا كلها متقهقرة إلى تلك العصور.

القرن العشرون ممتاز على سائر القرون الماضية ليس باكتشافاته العلمية الخطيرة. ليس بمعرفته نواميس الطبيعة ذات المنافع الكبيرة في معايشه قاطبة. ليس باختراعاته التي بلغ بها حد المعجزات فربط بها الأقطار بعضها ببعض وجعل العالم كأنه مدينة واحدة. بل بأمر هو في الخطارة في المقام الأول.

---

* فتاة الشرق السنة ٤ / ديسمبر ١٩٠٩، ص ٩٩ ـ ١٠٥

القرن العشرون ممتاز حقيقة بتقرير غاية العلم الكبرى. ويراد بالعلم العلم الصحيح أي العلم الطبيعي. وهذه الغاية هي اعتبار الانسان أخا الانسان في كل المعمورة وإن وطن الانسان الحقيقي العالم أجمع. فلا يوجد شريعة يجوز لها أن تنكر على الانسان هذه الحقوق الطبيعية ويكون القائمون بها من أهل العدالة ولا من أهل الحصافة والرأي.

ـ ولو صحت هذه الشريعة لما قام كامبل وقومه على أطلال سكان أميركا الأصليين وأرونا هذا التمدن الباهر ـ ولا يقوم بها حتى اليوم إلاّ اولئك الذين كانوا في كل أطوار التاريخ ضربة على المجتمع الانساني قاضية على صلاحه وعابثة بسلامة مداركه.

ريتشارد كامبل يريد اليوم أن يرجع بنا القهقرى ويؤيد تلك المبادىء الرثة التي لم يشرع الاجتماع في النهوض إلى شيء من الصلاح إلاّ بعد أن أخذ ينقضها. وهو يطمع مع ذلك أن يذكره التاريخ بخير بل يطمع بأن يحفظ الفخر لأميركا التي كانت السابقة إليه في الأمور الاجتماعية حتى اليوم.

هذا القانون ـ قانون التجنيس الاميركاني ـ سنَّ في عصر ـ وكل شيء نسبي ـ لم تكن مدارك الانسان فيه بالغة الحد الذي وصلت إليه اليوم فلم يشن أميركا في ذلك العهد كما يشينها اليوم.

أنا لا أشك بأن ريتشارد كامبل لم يخدم نفسه من حيث حسن الذكر في مجامع الأمم الراقية بركوبه مثل هذا المركب الخشن. ولكني لا أشك أيضاً بأنه سيخدم قومه والمدنية بتحريكه اليوم هذه المسألة ووضعها على بساط البحث لحمل عقلاء بلاده على النهوض لتحوير هذا القانون الذي هو في نظام أميركا وصمة ان جاز الاغضاء عنها في الماضي فلا يجوز اليوم.

فالمسألة من جهة الحق العام لا يجوز لأي شرع كان فيها أن يتحدى قانون التجنيس الأميركي ولا يكون في نظر الاجتماع جانياً. جانياً على حق ارتقاء الانسان في العمران. جانياً على مدارك الانسان بالاستهزاء بحقوق الانسان. جانياً بتوسيعه الخرق بتفريقه بين الانسان والانسان.

ولنرجع الآن إلى الكلام عن السوري خاصة.

ريتشارد كامبل ينكر على السوري حق التجنيس بالجنسية الأميركية لأنه من نسل اسيوي وهذا النسل محظور عليه هذا الحق بموجب قانون مسنون. لأن الاسيويين

شعب منحط غير قابل الارتقاء والسوري منه فالسوري منحط غير قابل الارتقاء أيضاً.

ولكن آسيا قارة كبيرة جداً وفيها أقوام كثيرون مختلفون في الأشكال والقابليات وهي أقدم من أوروبا وأميركا عمارة ومدنية وأقوامها لعبوا في تاريخ التمدن دوراً عظيماً قبل أن ظهرت شعوب أروبا وقبل أن عرفت أميركا والسوريون منهم أعرقهم في المدنية من يوم أجدادهم الفينيقيين. فهم شعب كان في مقدمة الشعوب في تاريخ الحضارة وأسبقهم إليها. والتاريخ الطبيعي يعلمنا أن ناموس الاتافيسم (الرجوع إلى الأصل) شديد في الاحياء. فالسوري بحكم هذا الناموس إذا وافقته الظروف لا يدع الشعوب الراقية اليوم تفضله بشيء. وريتشارد كامبل إذا تأمل قليلاً عرف أن المدنية التي يصد بها سواه عوضاً عن أن يدعوه ليرفعه إليه إنما بلغها هو وقومه بشريعة وضعها رجل سوري.

ريتشارد كامبل لا أعرف اعتقاده الخصوصي. وإنما أعلم أن قومه يدينون بدين هو دين المسيح السوري مولداً والاسيوي موطناً.

فالسوري الذي قام فيه شارع سطا بشريعته الأدبية والدينية على قسم عظيم من آسيا وافريقيا وعلى كل أوروبا وأميركا حتى رفعه أقوامها إلى مقام الالهة. وبعبارة أخرى السوري الذي اعتبره الله أهلاً لأن ينزل إلى أرضه خصيصاً ويختلط به حتى في لحمه ودمه ويساكنه ويؤاكله ينتهي في عصر كامبل ومن حذا حذوه أن لا يعود أهلاً لأن يتجنس بجنسية خليط من الشعوب مهما صفا أصله لا بد أن يكون فيه من دم السوري الفينيقي قطرات كثيرة ولماذا؟ لأن هذا الخليط ساعدته ظروف المكان والزمان وأحوال كثيرة سياسية واجتماعية فارتقى وذاك الفينيقي أو السوري خانته كل هذه الأحوال فانحط.

ولكن السوري في إمكانه أن يرتقي أيضاً وسرعة نهوضه رغماً عن معاكسة هذه الأحوال له كلما وجد في وسط مناسب دليل له لا عليه وحجة يخجل بها خصومه.

أنا لا أنكر أن بين السوريين النازحين إلى الأقطار كثيرين ممن ذهب الجهل بمحاسنهم ولا يزالون في حالة سيئة في تربيتهم وأخلاقهم. ولكن كثيرين أيضاً ارتقوا جداً لإدخال أقل المحسنات بينهم. بل أن كثيرين منهم بلغوا درجة قصوى من ذلك باروا بها أرقى مساكنيهم حتى في الأقطار الأميركية نفسها.

وقانون التجنيس الأميركي يذكرني اليوم بالعصور التي كانت المدارس تنشأ فيها لأبناء الأعيان ويقصى عنها العامة بحجة أن الأعيان أرقى في المدارك والعامة متوغلة في الجهل.

فما رأيك يا مستر كامبل لو أردنا إعادة العمل بهذا القانـون وحصر التعليم. هل يكون ذلك عدلاً؟ بل هل يكون عملاً صائباً؟ ألا تعرف أن ارتقـاء المجتمع البشـري اليوم ناشيء عن تعميم التعليم البالغ الغاية القصوى في بلادك نفسها.

أوَليس التجنيس كـالتعليم، فـأنت تبيـح تعميم التعليم ولكنـك تمنـع تعميم التجنيس بحجة أن من الشعوب من هو منحط غير راق نظيرك. أفليس من واجبـاتك أيها الانسان الـراقي أن ترفـع هذا المنحط إليـك بإدمـاجه فيـك واكسابـه من اختبارك وتربيتك وتعليمك ما لا يجعله دونك في المقام بشيء؟ خصوصاً إذا كـان تاريخـه الماضي يدل دلالة صريحة على حسن استعداده وأنت تعرف اليوم أن الجهـل وحقارة النشـأة لا تصدان عن تعميم التعليم ولا تمنعان التفوق فيه.

فيا للعجب! وأعجب من ذلك أن مثل هذا الصوت يسمعنا إيـاه رجل أميـركي في القرن العشرين!

أتريد أن تعرف يا مستر كامبل قانون التجنيس الصحيح المعقول العادل إذا كان يجوز أن يكون هناك قانون؟

خذه ـ ولا تأنف ـ من فم رجل سوري اسيوي:

«في التجنيس يجب أن لا تراعى الأجناس والأقـوام والبلدان والأوطان بـل يجب أن تراعى حالة الأفراد الطالبين التجنس من حيث الصفـات الخصوصيـة التي تؤهلهم لذلك أو لا تؤهلهم كل بمفرده».

وإنه لمعقول أكثر ـ وإن كان غير جائز ـ يا مستر كامبـل ـ صد الأقـوام من وطن معلوم عن الدخول إلى وطن آخر لا منع إدماج الأقوام بالأقوام المقيمين بينهم. لأنه في الأول قد ينتحل عذر منع المخالطة عملاً بناموس صد الأمراض كما في الـطب إذا كان هناك موجب حقيقي. وأما إذا لم يكن هذا المانع وجازت المخالطة فماذا يعـود يمنع من التجنس؟

أجنبي ـ يـا مستر كـامبل ـ يـا حضرة الـديمقراطي الأرستقـراطي! وأعلم اني لا أدافع هنا طمعاً في تجنس أو هرباً من جنسية فإن مبادئي الاجتمـاعية ـ وأتمنـاها لـك ـ تجعلني فوق أمثال هذه السخافات فحيثما تـطأ رجلاي فهنـاك وطني. وإنما أقـول ذلك انتصاراً لحق الانسان العام في المجتمع البشري.

وإني لأعجب كيف أن الانسـان الموجـود في مـركـز يستـطيـع فيـه أن يحسن إلى المجتمع يدع الفرصة تفـوته ولا يفعـل فيحط من مداركـه ليسير بـالمجتمع القهقـرى.

وكان في مستطاع المستر كامبل وهو في مركزه أن يكون من المحسنين ولكنه لم يفعل فأساء إلى نفسه وإلى المجتمع أيضاً.

بأمثال روزفلت ممزق الشرائع الحائفة والدائس على سخافات الاجتماع يرقى الاجتماع. وبأمثال كامبل المستمسك بهذه السخافات والمؤيدها بلاهوته الاجتماعي ليحملنا على القهقرى يشقى الاجتماع.

المستر روزفلت: «قاتل الوحشين»

كتب سليم سركيس في مجلته (مجلة سركيس) تحت عنوان «المستر روزفلت في مصر، ما يلي:

وقد لقيت على أثر هذه الزيارة صديقي الاجتماعي الكبير الدكتور شبلي شميّل فعلمت أن رئيس المدرسة الكلية الأميركية في بيروت سأله تحية للمستر روزفلت فكتب إليه ما نصه:

«أحيي فيك مروّض الوحوش - وحوش المال في أميركا ووحوش الحيوان في أفريقيا. وقد لا تكون مصيباً في هذه ولكنك مصيب في تلك. فأهلاً وسهلاً بقاتل الوحشين».

مجلة سركيس، عدد ١٣، السنة ٥، ٢٧ مارس ١٩١٠، ص ٣٨٤

ما هي قصّة رسالة شميّل إلى روزفلت؟

وصل المستر ثيودور روزفلت (الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركيّة) إلى مصر في ٢٧ آذار (مارس) ١٩١٠. وكان رئيس المدرسة الكليّة هوارد بلس (ابن دانيال بلس) قد طلب إلى الدكتور شميّل ان يبعث بتحيّة إلى الزائر روزفلت القادم من السودان بعد رحلة صيد (سافاري) في أدغال افريقيا. فجاءت استجابة شبلي شميّل في أعقاب زيارته إلى لبنان (صيف ١٩٠٩) وبعد أن نشر مقالته في المقطم عن «المدرسة الكليّة وبروغرامها».

* * *

أوردت مجلّة الكليّة التي تصدر باللغة الانكليزية عن الكلية السورية الانجيلية الخبر التالي عن مقالة شميّل في فتاة الشرق بعنوان: «التجنيس الأميركي وحقوق الانسان»:

> «اتخذ الدكتور شبلي شميّل مؤخراً موقفاً نشطاً في الدفاع عن حقوق السوريين بالحصول على الجنسيّة الأميركيّة».
>
> "Dr. Shumaiyil has recently taken an active part in defending the right of Syrians to American citizenship"
> **Al-Kulliyeh,** Vol. 1 (1910), p. 32.

* * *

بعث الدكتور جورج بوست خلال زيارة قام بها إلى مصر برسالة عن الدكتور شبلي شميّل ومجلّة «الشفاء»، وأشار فيها إلى ان صاحب المجلّة ينتمي إلى الصفّ الأول المنتهي في كليّة الطب (المدرسة الكليّة السورية الانجيليّة) عام ١٨٧١.

انظر ***The Church at Home and Abroad***
Vol. II (1887) p. 601.

الخلاف القائم بين اللبنانيين في الأرجنتين وقنصلهم على أوراق الجنسية:
ـ سوء التفاهم ـ التساهل

البرق ـ السنة الثالثة ١٩١٠، عدد ١٢٨، ص ٢٠٣

قال الدكتور شميّل:

والذي يلوح لي أن هذا الخلاف بين اللبنانيين (وحكومتهم) في المهجر وحكومتهم العثمانية ناشىء عن سوء تفاهم بسبب نص أوراق الجنسية لا يصعب جلاؤه ما دام القصد من الطرفين سليماً إذ لا يخفى أن اللبناني عثماني أينما كان والعثمانية هي الدولة التي ينتسب إليها وتحمي مصالحه في الغربة وإنما هو عثماني لبناني فهو لا يريد أن يعطي أوراق تابعية في المهجر تكون سبباً للاشكال في المستقبل وربما نزعت منه لبنانيته الممتازة ولا سيما إذا طال العهد وتكررت في الأولاد والأحفاد فهو مع محافظته على عثمانيته لا يريد التخلي عن صفته اللبنانية الممتازة. وأنا أرى أن حل هذا الاشكال ليس بالأمر الصعب حتى يشتد الخلاف بين اللبنانيين والعثمانيين ودولتهم إلى هذا الحد ويمكن إزالته «بالتعيين» في ورقة الجنسية ولا سيما أن أحوال اللبنانيين اليوم بسبب اتساع نطاق الهجرة ليست كما كانت في الماضي. فالمحافظة على القديم لتطبيقه على حالة جديدة ليس من الحكمة في شيء لئلا تكون نتيجة التشديد من قبل الدولة والاستمساك بهذه الاعراض الصوريّة سبباً لزيادة هذا الخلاف إلى حد أن يقع الضرر على التابع والمتبوع معاً فيخسر هذا الأخير أعضاء هو في غنى عن خسارتها اليوم. ونحن لا نجهل أن قوة الأمم بكثرة تابعيتها فلا يليق بنا أن نستفزهم إلى ذلك. ولنا وطيد الأمل بإخلاص اللبنانيين لدولتهم في المهجر كما يدل على شدة استمساكهم بها في البلاد شرائعها العادلة تتكفل بصيانة حقوق القريب والغريب على حد سوى وبحكمة سعادة الأمير أمين ارسلان* قنصل الدولة هناك أن يزول هذا الخلاف

---

* الامير أمين مجيد ارسلان (١٨٦٨ ـ ١٩٤٣)
تولى منذ العام ١٨٩٨ القنصليات العامة للدولة العثمانية في كل من بوردو وباريس وبروكسيل وبونس ايرس. كان عضواً في نقابة الصحافة ومؤتمر الصحافة الدولي. استقال خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) من السلك الدبلوماسي تاركاً منصب القنصل العام في بونس ايرس، احتجاجاً على انحياز تركيا إلى المانيا وتأكيداً لنزعته العربية والاستقلالية. لكي ينصرف إلى الأدب ومراسلة الصحف الكبرى.
له مؤلفات كثيرة منشورة إلى جانب المقالات في مجلات الهلال والمقتطف. ومن أشهر مؤلفاته: «حقوق الملل ومعاهدات الدول» (١٩٠١) و «مذكرات» (بونس ايرس، ١٩٣٤).

لمصلحة الجميع ولنا شديد الثقة على نوع أخص أن سعادة القنصل يبذل جهده لإزالـة هـذا الاشكال بـالتي هي أحسن وهو لا يحتـاج إلى من يحثه عـلى ذلك وهـو من أبنـاء لبنان.

نظرة في احوالنا

نظرة في أحوالنا*

الشرق الأقصى والأدنى من نصف قرن ـ ثورة اليابان السلمية ـ ثورة الصين ـ ثورتنا العثمانية ـ الفرق بين ماضينا واليوم

إن المطلع على أحوالنا منذ أربعين سنة فقط يستعظم الخطى الواسعة التي خطوناها في سبيل الحياة. فقد كان الشرق الأقصى والأدنى في ذلك العهد في حالة سباتٍ لا تفرق كثيراً عن الموت. ولقد نهض الشرق الأقصى نهضة أدهشت العالم بعد أن كان يُظن أنه في غفوة لا يعقبها يقظة. فبلغت اليابان في هذه المدة القصيرة مبلغ أرقى الأمم اليوم في علومها في صناعاتها في تجارتها في نظاماتها في أحكامها في تأهبها لدفع الطوارىء فملكت ناصية القوتين الهائلتين الأدبية العلمية والوحشية الحربية.

وها هي الصين التي تموج بسكانها كالنمل ناهضة بثورتها الحاضرة بعد سباتها الطويل العميق نهضة يرجى منها كل خير.

فاليابان لم يصدها حائل لا من أصولها السماوية ولا من عاداتها القومية عن اقتباس أسباب الحضارة ممن سبقها في ذلك من الأمم فهجرت القديم ولاذت بالجديد جرياً على سنن الارتقاء كأنها أدركت أن التمسك بالقديم جمود والجمود تقهقر. فتزينت بأزيائهم وتلقبت بألقابهم واستنسخت نظاماتهم واقتبست صناعاتهم وعلومهم ونبغت فيها حتى صارت في مقامهم عظمة واقتداراً.

ومقدمات الثورة الصينية تبشر بمستقبل عسى أن لا يكون حظ الصين فيها دون حظ جارتها وإن كانت الصعوبات التي تعترضها فيها أشد لأن ثورة اليابان قامت بها القوة الحاكمة. وقادت الأمة فيها بالقوى السلمية فهي نشوء سريع لا ثورة بالمعنى المشهور ولا يكاد يكون لها نظير في تاريخ الانقلابات الاجتماعية. وأما ثورة الصين فالهيئة الحاكمة كانت ضدها فهي كسائر الثورات التي مصدرها الأمة إلا أن ذلك يجعل دعائم الارتقاء فيها إذا قامت أعلى وأرسخ.

---

* تؤلف هذه المقالة القسم الأكبر والأخير من الكتيّب الرسالة الذي أصدره الدكتور شبلي شميل عام ١٩١٢ تحت عنوان: «آراء الدكتور شبلي شميّل» بقلمه. وقد حاول شميّل في «رسالته» أن يرد على تهمة الغرابة التي نُسبت إلى آرائه عملاً بقوله: «الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم» فقط. انظر أيضاً مجلة «فتاة الشرق»، ج ٦، ١٥ يونيو (تموز)، ١٩١٢، ص ٣٣٠ ـ ٣٤١. ورسالة «آراء الدكتور شبلي شميّل»، مطبعة المعارف، مصر: ١٩١٢، ص ٣١ ـ ٤٤.

ولم يفت الشرق الأدنى نصيب من هذه الحركة إلى النهوض فكلنا يذكر ثورتنا العثمانية وما جلبت لنا من السرور وإن كانت مقدماتها لا تبشرنا حتى اليوم بمستقبل زاهٍ لعيوب فيها تجعل نورها فينا سريع الانطفاء كالنار في الهشيم لعدم اشتراك الأمة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار من التغني في أول الأمر وهي اليوم تكثر من العويل ولا تتعداه إلى عمل حازم وتخرسها أقل كلمة. فثورتنا حتى الآن عسكرية اقتصر التغيير فيها على صورة الهيئة الحاكمة فلم تغير شيئاً من أخلاقنا ولم تتصل إلى علومنا وصناعاتنا وتجارتنا ولم تتغلب فيها مداركنا على أهوائنا فلا تزال أغراضنا القريبة والبعيدة سداً يمنعنا عن اقتباس كل اصلاح مطلوب. فضلاً عن اختلاف أجناسنا وتباين مشاربنا ووجودنا كالقوم العزل في وسط هذا التنازع الشديد المحيق بنا من كل جانب وقربنا من معالم الحضارة وقيامنا في قلبها كالخرائب والأطلال في وسط الحدائق والقصور. ومع ذلك فالفرق بين ما كنا عليه منذ أربعين سنة وما صرنا إليه اليوم عظيم جداً.

تجلي هذا الفرق في مصر ـ سرعة ترقي المصريين في هذه المدة ـ وجهتهم من هذه النهضة وعيبها

ولا ريب أن هذا الفرق العظيم المحسوس يُشاهد اليوم بأجلى صورته في مصر وأبنائها. فإن النهضة التي نهضتها مصر في هذه المدة القصيرة والتي لا يقدرها حق قدرها إلاَّ الذي عرف بنفسه العهدين لما يحمد جداً حتى أن أبناء اليوم لا يصدقون ما كان عليه في ذلك العهد القريب آباؤهم الأقربون لا أجدادهم الأبعدون. وسهولة ارتقائهم هذه تدل على أن عامل الترقي الموجود فيهم من عهد بعيد والذي طمسته يد المظالم كل تلك القرون الطويلة عريق فيهم من يوم كان تمدنهم نبراس الأمم.

ولكن إذا كانوا يحمدون من جهة سرعة التحصيل كأكثر الأمم ذات التاريخ المجيد في الحضارة في الماضي فهل يحق لهم هذا الحمد من جهة أنهم عرفوا كيف يستفيدون من الأحوال السياسية التي طرأت عليهم في الحاضر. فالمنصف لا يسعه إلاَّ أن يرميهم في باطن الأمر بالتقصير في مصلحة أنفسهم وهم في الظاهر مجدون في طلبها فقد قضوا الزمن الطويل من حكم الاحتلال الذي رفع عنهم الضواغط وهم يسمونه نيراً ويسعون للتخلص من ربقته. ولكنهم يسعون إلى ذلك بالطرق التي تزيده فيهم تحكماً وتزيدهم في معالم الحضارة الحقيقية تقهقراً. فصرفوا كل هذا الوقت الثمين وهم يدعون إلى الاستقلال ولكن من غير السبيل الموصل إليه فطلبوه بالتمني وخدعتهم ثروتهم الطبيعية التي زادت قيمتها زيادة فاحشة نظراً لاصطلاح نظامهم في حكومتهم الجديدة كأن المال إذا لم يُمد لا يفرغ وكأن الاستقلال الاكتفاء بالمصنوع المجلوب حتى

صار قسم عظيم من الأرض رهن الدين. فنهضتهم اليوم إذا كان أثرها بادياً جيداً في العلوم الأدبية والأمور النظرية لكنها في العلوم الحقيقية والأمور العملية لا تزال جرثومة لا ترى إلاّ بالنظارات المعظمة فليس لهم يد حتى اليوم لا في العلم الراقي ولا في الصناعات الدقيقة ولا في التجارة الواسعة ـ والزراعة التي تكاد تكون موردهم الوحيد لا يزالون فيها كما كان آباؤهم في الماضي ويكادون يكونون غرباء في وسط هذا التمدن الظاهر الذي يحيط بهم كأن البلاد أشبه شيء بمعرض كل معروضاته غريبة. ولعل الحرية التي باغتتهم بها الدولة المحتلة قبل أن تتولى تدريبهم على العمل كانت السبب في كل ذلك فبلغت فيهم ثورة الأفكار أقصاها وبالضد من ذلك ضعفت فيهم ملكة العمل.

حقيقة نهضة المملكة العثمانية ومصر ـ حالة شعبيهما من هذه الحركة ـ الفرق بين البلدين في الأمور الادارية ـ تساوي الشعبين في الحركة الفكرية ـ تقدمهما في علوم النظر ـ قلة ميلهما إلى علوم العمل ـ تأخرهما الحقيقي في العمران

فنهضة المملكة العثمانية ونهضة مصر اليوم إنما هي نهضة فكرية بحتة لم تقرن حتى الساعة بشيء من عوامل الارتقاء الحقيقية وأعني بالبلادين شعبيهما وإلاّ ففي الأمور الادارية فرق عظيم هو لمصلحة مصر. وما ذلك إلاّ لإنصراف أكثر الأفكار الراقية إلى الاشتغال بمسائل ماضية أو حاضرة بائدة أو بادية قلما تهم العمران لانحصار دائرة هذه الحركة فيها بمباحث أدبية يجوز أن تكون كمالية ولكن ليست حاجية وبأمور نظرية يصح أن تكون نتيجة ولكن لا يجوز أن تكون سبباً.

أنظر إلى القطرين العربيين الراقيين اليوم مصر وسوريا. أنظر إلى أبنائهما في وطنهم وفي مهجرهم تجد الحركة الفكرية في أشد غليانها ولكنها على حال واحد فيهم من الانصباب إلى جهة واحدة. فكلنا اليوم كاتب وكلنا أديب وكلنا شاعر ولو يقاس الارتقاء في العمران بهذا المقياس لكنا اليوم أرقى الأمم بلا شك ولا سيما في هذه الأيام التي ثارت فيها العواطف وفاضت القرائح فلم يبق منا كاتب أو شاعر إلاّ وطبّق السماء بالتغني بمجد الآباء وما كان لنا من الهمم الشماء في اقتحام الهيجاء من دون أن يدلنا أحد على عيوبنا ويُلفتنا إلى أيدينا الوعثاء وأرجلنا الفدعاء في العمران اليوم. وأما العالِم والمهندس والصانع والتاجر منا فأندر من الكبريت الأحمر حتى صار كل مصنوع نحتاج إليه من نعلنا إلى أوتوموبيلنا إلى سلاحنا غريباً ومجلوباً بيد غريبة أيضاً وإذا وُجد لنا تجارة فهي أثرية وثروتنا الطبيعية التي نتناولها بسهولة من سطح الأرض لا من باطنها الموصد على هممنا الفاترة مهما عظمت لا بد أن تفرغ حيال هذا المنصرف حتى تُفرغ الأرض نفسها إلى أيدٍ هي أحق من أيدينا باستثمارها.

فتور همنا من تربيتنا ونظام أحكامنا ـ عيب التربية المدرسية في المدارس عامة وفي مدارسنا خاصة ـ تربية عقولنا فيها على المجرَّد وإكثارهـا لها من علوم النظر والاستظهار ـ
صرفنا عن المحسوس واقلالها لنا من علوم العلم والاستحضار ـ
وجوب قلب الموضوع لإنهاض ملكة العمل فينا
وتحرير عقولنا من القيود التي تربطها وتضيق دائرة أحكامها

وفتور همنا ناشيء من تربيتنا البيتية والاجتماعية ونـظام أحكامنـا خاصـة الذي ينزع من نفوسنا كل رغبة في العمل. والتربية المدرسية التي هي ذات الشأن الأكبر في التأثير على الأخلاق والأجسام والعقول قلما تهتم باصلاح ذلك فينا فهي لا تزال ناقصة حتى في أرقى المعمـورة ونقصها في مـدارسنا أظهـر بكثير عـلى تفاوت بينهـا. وعيبـاهـا الأكبران انها أولاً تعليمنا المجرد قبل المحسوس والموضوع قبل المطبوع وثانياً ليس فيهـا اقتصاد في الزمن فتحمل العقول ما لا طاقة لها به من علوم الاستظهار التي لا يبقى لها مع كرور الأيام أثر أو يبقى لها أثر لا فائدة به. وتقلل لها من علوم الاستحضار ما لـو مرت الحواس عليه مرة لبقي أثـره في الذهن طـول العمل ولجعـل الطفـل رجلاً زمـاناً طويلاً قبل أن يترجل رجال اليوم. فلكي تكون المـدارس أجمع للغـرض الذي أنشئت لأجله وتنمي في الـطالب ملكة العمـل خـاصـة يجب أن تتحـول إلى حقـول وحـدائق ومعـارض ومعامـل ليكون العلم مـوصوفـاً محسـوساً لا مـوصـوفـاً فقط وأن تستعـين بمخترعات العلم والصناعة كالسينموتوغراف مثلاً لسد ما يتعذر علينـا من هذا القبيـل وتقتصر من علوم الأدب على اللازم الضروري لسهولة الفهم وحسن التعبير وتقلل من العلوم الموضوعة ما أمكن وكثـير منه يمكن الاستغنـاء عنه بـالمرة من دون بخس للعلم بل بفائدة له أكثر إذ تجعل العقل أقل تقيداً وأكثر حرية أيضاً.

وهم الناس في علوم الأدب ـ
انصرافنا بها عن تعاطي الأعمال النافعة في العمران ـ علو كعب هـذه العلوم في القديم ـ
اشتغال الناس كثيراً بعلوم الأوائل وانصرافهم بها عن البحث في ما أمامهم ـ
وقوف العمران بذلك وتقهقره ـ تقدم العمران اليوم بالعلوم الحديثة

ولولا ان الاعتقاد شائع كثيراً بين الناس حتى اليوم أن علوم الأدب أرقى العلوم حتى ان الخارج من المدرسة ومعه شيء من هذه البضاعة ليأنف من تعاطي صناعة من الصناعات لما أسهبتُ هنا في البيان. وما مثل هذا المترفع اليوم إلاّ مثل أشراف الماضي

الذين كانوا يترفعون عن تعلم القراءة والكتابة ويعهدون بهما إلى الموالي لحقارتهما في اعتبارهم. فإذا كان قد جاز ذلك في الماضي لاعتبار الناس يومئذٍ صناعة السلب والنهب والقتل والضرب من الصناعات الشريفة فهل ذلك يجوز اليوم؟؟

ولقد جاء زمان لا يزال ذيله السابغ مسبلاً علينا حتى اليوم كان فيه لعلوم الأدب شأن عظيم فاستهوت بها أسمى العقول وشغلتها بمباحثها المجردة عن سواها فتناولت البحث في حقيقة الوجود. وتخرصات الأباء والجدود. وأوغلت في العلوم الموضوعة المجهودة حتى صرفت العقول بها عن المحسوس الموجود والمطبوع المشهود. فوقف الناس عندها زماناً طويلاً مكتفين بالماضي عن الحاضر. مقتنعين أن الأوائل ما تركوا شيئاً للأواخر. وأنت تعلم معي اليوم أن الأوائل تركوا كثيراً للأواخر وأنهم في غالب الأحيان اشتغلوا بشيء هو لا شيء تركوا اللباب واشتغلوا بالقشور. تركوا القريب واشتغلوا بالبعيد. تركوا الممكن واشتغلوا بالمستحيل. فبقي العالم يتخبط معهم قروناً وهو يدور في دائرة واحدة معيوبة. وجرى مع الأواخر في سنين أشواطاً لم يسرها مع الأوائل في ألوفها. وتعلم معي كذلك أن علوم الأواخر التي ارتقى بها العمران هذا الارتقاء السريع هي نقيض علوم أجدادهم على خط مستقيم. فإذا جاز حتى اليوم اعتبار علوم الأدب العالية من الكماليات في العمران الراقي فما أحوجنا نحن اليوم فيه إلى علوم الحاجيات الضروريات لئلا نبقى كذلك الكسيح الذي يزعق ويقول للذي يعدو أمامه: لو كانت رجلاي سليمتين لما سبقتني!

ضرر العلوم الموضوعة وإضاعة أثمن وقت الطالب في تحصيلها على غير كبير جدوى ـ
علوم اللغة يجب أن تكون بسيطة وسهلة التحصيل لحسن التعبير وخدمة العلم ـ
اللغة متحولة فالجمود بها جمود الأفكار والمعلومات ـ الاقتصار من التاريخ وسائر علوم الآداب على ما يدل على حقيقة نشوء الانسان في العمران لا لإضاعة الوقت في مكذوب ومشجوب مما لا طائل تحت والتلهي به عن العمل النافع

قلت علوم الأدب وخصصتها بالعالية لأن هذه الكلمة مرنة جداً فتشتمل على الغث والسمين وغثها أكثر من سمينها كما هو الحال في علومنا الكلامية واللغوية وفروعها الكثيرة الفضولية فيصرف الطالب أثمن سني عمره في المدرسة للوقوف على اختلاف البصريين والكوفيين والتبحر في سائر العلوم الموضوعة كالمعاني والبيان والبديع

والمنطق وشوارد العروض مما يشغل الذهن ولا يبقى منه فيه على مر الزمان شيء. ألا يمكن التعبير عن الأفكار بلغة سليمة يصرف في تحصيلها أقل ما يمكن من الزمن وتكون صالحة لخدمة العلم؟ وما هي الفائدة من مقالة يدبجها الكاتب ويملأها بعويص الكلام ومهمله يستخرجه بعد العناء الشديد من بطون القواميس ليخرج القارىء في فهمه إلى الرجوع إليها ما دام في الامكان التعبير بالألفاظ المألوفة وما دامت اللغة نفسها على رغم كل محافظ تابعة للانسان في نشوئه ومتحولة معه في تحوله تعبر عن أفكاره الجديدة ومعلوماته الجديدة في هذا النشوء وهذا التحول. وما الفائدة الكبرى التي يجنيها العمران من قصر اهتمامنا على البحث في ماضٍ بالٍ للتبسط في تاريخ متناقض وأكثره مكذوب والاعتصام به للاختصام على حركات رجل وكلامه لمعرفة ما كان عليه من الدعارة أو التأدب وفي شعره من التشبيب الخليع أو التبذل الدنيء فما أشبه تخاصمهما هنا بتخاصم أصحاب «أبو زيد الهلالي» وأصحاب «دياب ابن غانم» على حركات كل منهما! فإذا كان لا بد لكل أمة من تاريخ يدل على نشوئها فالأفضل أن يتوخى من ذلك ما يدل دلالة كلية على حالة الانسان في هذا النشوء بحسب العصور. وإذا كان لا بد من التبسط شيئاً ففي تاريخ العلم فقط عسى أن يُعْثَر في هذا التبسط على فائدة جديدة للعلم نفسه.

إنصباب الأفكار إلى علوم آداب الأمم آفة أعم من أن تنحصر في الشرق - ولع الغربيين في ذلك عظيم - تجارة كتب الأدب عندهم وضررها - اسلوبهم في الرومان ذو ضرر أحياناً لا يقدر - تغافل الحكومات عن صد مثل هذه الأوبئة

ولا أنظر في انتقادي هذا إلى مجتمعنا وحده حيث هذه العلة اليوم في طور «البداءة» وإن كان لنا من آثارنا الماضية المتراكمة ما يخشى علينا فيها كثيراً من طور «التزيُّد» فإن هذه العلة لا تزال آفة كبرى من آفات المجتمعات الراقية ويطلق عليها عندهم اسم «علم آداب القوم» مع الفرق بأن لهذه المجتمعات مع ذلك حسنات أخرى كثيرة ليست لنا. فإذا كان جانب عظيم من هذه الأمم الراقية يشتغل اليوم بالعلم والعمل فإن الجانب الأعظم منهم لا يزال حتى الآن يصبو إلى الأحلام ويشتغل بغير الهام ويرصع بالجواهر تصابي عمر الخيام ويضع الشروح الضافية لتفسير قول شكسبير «كان أم ما كان». بل أن تجار الأدب منهم في رواياتهم التمثيلية وقصصهم الفكاهية لا يسلمون من هذا الانتقاد الحاد والأنكى إدعاؤهم أنهم يقصدون منها التهذيب والتدريب وهي في أكثرها منافية لذلك فالراقية منها تصور الانسان على غير

حقيقته وتخلق له صفات فوق طبيعته فتجعل حياته في الاجتماع شاقة جداً ومحفوفة بالمصاعب فإما أن تدفعه إلى الانتحار وإما أن تخرج به إلى تعمد الإضرار. وغير الراقية كثيراً ما تستهويه بالغرابة التي فيها وتدفعه في تيارها إلى أبعد ما يمكن ولا سيما تلك القصص التي تفشت اليوم بين العامة في أوروبا كالوباء وبلغ سيلها الجارف إلينا والتي تشبه في الغرابة قصص «علي الزئبق» مع الفرق فيها بين لباقة هذه وشناعة تلك. فاستهوت بها قرائح الكتاب في القارات الأربع لما بها من الكسب فبروا لها أقلامهم وتباروا فيها ونشطهم اقبال الجمهور عليها. فملأوها بكل تفنن فوق التصور في اقتراف الجرائم ومثلوها على مشاهد الصور المتحركة ليرغب فيها أطفالنا حتى صارت مدرسة للجميع تحبب للبعض النسج على منوالها ولو من باب ركوب متن الاعجاز. والغريب أن الحكومات اليوم تتكاتف على صد أوبئة الأمراض ولا تصادر هذه الأوبئة الاجتماعية التي هي أشد فتكاً من تلك والتي إذا استوطنت لا يعود استئصالها من جسم الاجتماع بالأمر السهل. ولعل عذرهم في ذلك انها بضاعة أدبية. فيا ويل الاجتماع من هذه اللفظة فكم يجرّعونه بها كل يوم من السموم!

موضوع الروايات واسع ـ وجوب التعويل فيها على الباسط النافع ـ لو أن كتابنا يعلمونا بها كيف نتكلم ونتفاهم ـ لغتنا شاخت وعن اسماء الآلات والمخترعات ضاقت ـ وجوب طرح الألفاظ التي ماتت من قواميسنا وإدخال الألفاظ المستحدثة فيها كما فعل السلفاء أنفسهم

على أن موضوع الروايات واسع جداً ويمكن لكتابها المبرزين أن يكتبوا روايات يقرنون فيها الجميل الباسط بالمفيد النافع. وليس من الضروري لرواجها أن يخرجوا فيها عن الممكن أو يتنزلوا إلى التهتك لإفساد التصور وترسيخ القبيح. وما أحق كتابنا نحن خاصة في نهضتنا هذه الحديثة بعد أن صدأت أفكارنا وشاخت لغتنا أن يعلمونا كيف نفتكر وكيف نتفاهم وكيف نعبر عما لا غنى لنا عنه وهو واقع تحت نظرنا كل يوم. كأن يدخلوا بنا إلى حانوت التاجر ودكان الصانع ويجولوا بنا جولة في حقل الزارع ويسبكوا لنا قصة ظريفة لطيفة ينمقونها كما يشاؤون يأتون في عرضها على ذكر الآلات والأدوات وسائر الاصلاحات التي ترد في عمل كل واحد منهم والتي لا ذكر لها في قواميسنا على ضخامتها والتي إذا عرضت على كتابنا المبرزين الواقفين على أسرار اللغة من عهد قحطان إلى اليوم أصابهم أمامها العيّ. يشذّبون القواميس من المترادفات التي أصبح كثيرها في حكم الفضول ويطرحون منها الألفاظ التي شاخت

وماتت ولم يعد لها فائدة بشيء ويضعون الألفاظ الجديدة مكانها. يـذكرونها كـما هي في اصـطلاح أصحاب الحـرف من دون نحت أو تقعر كـما كان يفعـل سلفاؤهم في نقـل الألفاظ الجديـدة والأسماء الغـريبة والـطباعـة اليوم تتكفـل لهم بضبطهـا أكثر ممـا كان يستطيعه النسخ لسلفائهم في الماضي.

قصر قوانا على علوم الأدب مضيعة لنا اليوم كما كان في الماضي ـ
يجب أن تكون هذه العلوم واسطة لبلوغ ما هو أرقى وأنفع في العمران ـ
الاشتغال بالحاضر يجب أن يكون هم كل أمة تسعى إلى الارتقاء ـ
الاشتغال بالماضي جمود وتقهقر ـ فكاهة مجازية
لختم هذا البحث الجاف لكثيرين اليوم

ولا يؤخـذ من هذا القـول إني أريد القضـاء التام عـلى علوم الأدب ولا سيما في أحوالنا الخاصة التي تجعل هذه العلوم كل رأسمالنا في نهضتنا الحـديثة. وإنمـا أريد أن أنبه إلى أن قصر قوانا عليها اليوم مضيعة لنا كما كان مضيعة لنا ولسوانا في الماضي. فما علا كعب علوم الكلام في أمة إلاّ وكان القاضي عليها فـلا نجعلها الغـاية من حـركتنا الفكـرية الجـديدة بـل نجعلها الـواسطة لبلوغ مـا هو أرقى وأهـم ممـا ينفعنا في حيـاتنا العملية الاجتماعية فلا ننخدع كثيراً بنهضتنا الأدبية فنستنيم عليهـا أو ننصرف بهـا إلى إضاعة الوقت بمباحث لا طائل تحتها نتصل منها إلى جدال لا فائدة منـه سوى أن نمـوه به على أنفسنا أنه هو العلم بل نحول قوانا المجتمعة والكـامنة فينـا إلى ما يـرفع عمـاد العمران ويرقيه كما هو اليوم ليكون لنا في ذلك قسط راجح ولنكون له أعواناً أيضـاً لا عقبات وهذا لا يتم لنا بالسياحة في فضـاء الخيال والتلفت دائـماً إلى الماضي للبحث في مطويات الأدراج والتغني بمجد الآباء والبكاء على الأطلال. بل بالنظر في حـاضرنـا في الاجتمـاع ومستقبلنا وإذا نـظرنا إلى مـاضينا نـظراً كلياً فللمقـابلة فقط لإظهار الفـرق وأسبابه للعيان ليسهل علينا الانتقال إلى الأحسن لا لإضـاعة الـوقت والتلهي بمباحث عقيمة لا تهم حاضر الاجتماع ولا مستقبله بشيء وأقل أضرارها بنا الجمود. والعمران لا يرتقي ان لم تكن وجهته في كل أعماله التزيُّد ولا يتزيد إلاّ إذا أكثر اشتغاله بما أمامه وقل تلفته إلى ما وراءه.

* * *

وكأن هذا المبدأ بي لم يفارقني إلاّ مرة في حياتي تمنيت فيها شيئاً لم أنل سواه من كل متمنياتي أذكره هنا على سبيل الفكاهة «تمادياً» عن هذا الجد للذي يرى أني أكثرت «القزوع» فيه «فيقزمني» فإني زرت بعلبك سنة ١٨٧٠ فوقفت مبهوتاً من عظمتها ودقة صناعتها فكتبت على أحد حجارتها البيتين الآتيين:

المرءُ يسعى أن يسيرَ إلى الأما م وليس يحمد أن يسير القهرى
أما أنا لما رأيتُ بَعَلْبَكاً فوددتُ لو أني أسيرُ إلى الورا

ومنذ ذلك التاريخ إلى اليوم أنا أنظر إلى الأمام البعيد وأرجع في سيري إلى الوراء وأرى أكثر الناس حولي على الضد يسيرون متلفتين كثيراً إلى الوراء ويتقدمون سريعاً إلى الأمام وهو من غريب المفارقات الكثير وقوعها فلعل الذين تستهويهم الألغاز يأتون بحل هذا المجاز. أو على الأقل يعلمون ما علمته أنا فيتقونه هم: يعلمون أن الطلبة التي تستجاب. هي طلبة الشباب. فلا يتمنتون في شبابهم ما لا يودونه في شيخوختهم لئلا يعود يخطر على بالهم مثل هذا القول:

فلو أن الحياة تعاد يوماً وكانت نسخة مما يجدَّد
للذتُ بجانب المبنيّ فيها فلا أبني ولو صرحاً مشيَّد

حزب اللامركزية العثمانية

دماغنا، وهل ينظف؟

الدكتور شبلي شميّل

[الاهرام. ١٩١٢/٨/٦]

قال الملوك: فرِّق تسد.

وقالت الأمم: تضامنوا تفوزوا.

لما كان زمام الاجتماع في أيدي حكامه يقودونه إلى حيث توحي لهم اغراضهم وتدفعهم اهواؤهم ولا سيطر عليهم من سواهم، لم يكن لحكامه قاعدة يجرون عليها في سياسته سوى قولهم: «فرِّق تسد». وهي سياسة الإثرة التي سادت الاجتماع في العصور الخوالي ولم تنج منها امّة وكانت نتيجتها على الاجتماع وبالاً فأضعفت الناس وأبعدت بعضهم عن بعض في مجامعهم الكبرى والصغرى حتى لم يعد يتفق منهم شعب واحد من أمّة واحدة وحتى لم يبق وطن يمدّ إلى وطن آخر إلاّ يداً اثيمة ولو تجشّم في ذلك الأهوال من بعد الاتصال لاتساع فواصل البحار ومجاهل القفار. فعمّت الحروب المخرّبة حتى أقفرت البلدان وأقحلت الأرض وكثرت المجاعات المميتة ولا نجدة من إحسان وإن وُجدت بفرض المستحيل فلم تكن بالإمكان لبطىء وسائل الانتقال من مكان إلى مكان.

ثم لما تنوّرت الأذهان وأخذ زمام الأحكام ينتقل من أيدي الحكام الطغام إلى أيدي الأمم الرشيدة انقلبت سياسة الإجتماع إلى الضدّ. وهي اليوم في قولهم: «تضامنوا تفوزوا». وهي سياسة المنفعة المشتركة التي لا يتمّ عمران حقيقي بدونها. والأمم التي جرت على هذه القاعدة بلغت مكانة عظمى من القوة والمجد والثروة فأخصبت اراضيها واكتظت مدنها بالسكان وتفرّغت للعلم والصناعة حتى بلغت فيهما حدّ الاتقان. فقلّت الحروب رغم أنف المنكرين المتغنين بمحاسن الماضي وانتفت المجاعات حتى في البلدان النائية رغماً عن ازدياد السكان لزيادة خصب الأرض وسرعة وسائل الاتصال ولزيادة نجدة الإحسان حتى بين الأمم المتعادية. ولقد أربت محاسن هذه السياسة مع حداثة عهدها على فظائع تلك السياسة القديمة وخيرها كل يوم في ازدياد حتى تصبح الأرض كلها خصيبة وتصير الدنيا كلّها معمورة رغماً عن جمود الجامدين من أي جنس ومشرب ودين ومذهب الواقفين بهمجّيتهم يصدّون تيار التمدّن. والمدنيّة ضالّة الإنسان من أين اتت لو كان الناس كلّهم بشرا.

والأمم التي نالت ذلك كلّه اليوم لم تنله بمعجزة هبطت عليها من السماء. والحكام الذين غُلّت ايديهم لم يقدّموها للقيد تبرّعاً منهم وكرماً. ولكن بعد حروب كلفت الأمم الحيّة انهاراً من الدماء قبل ان نالت حرّيتها وتمكنت من الضرب على ايدي حكامها.

ومه ان الامة العثمانية موجودة في بقعة من الأرض ليس اخصب منها في تربتها ولا أجمل منها في طبيعتها ولا أصلح منها للعمار في موقعها الجغرافي، شاهدت كل هذه الانقلابات في الأمم الأخرى وجهاً لوجه واحتكّت بها ظهراً لظهر، لم تستفد قوة صالحة من نهضة جيرانها وقد كانوا اسوأ منها حالاً في ما مضى فارتقوا هم وباتت هي حتى إلى عهدنا هذا مغمضة العينين لا

تبصر ارتقاءهم الباهر موصدة العقل لا تفقه مزاياه ولا تدرك أسبابه كأن الجور الذي بليت به اطفأ في عقلها كل نور وأمات في نفوسها كل حياة. والحقّ يقال ان حكامها عرفوا في هذه الأمّة التعسة مواضع الضعف من اختلاف الأجناس واللغات ولاسيما الأديان فما زالوا يضربون على هذه الأوتار فيها حتى فرّقوها بعضها عن بعض وجعلوا اتفاقها في ما بينها رابع المستحيلات اليوم. وحكامها انفسهم كانوا في كل ذلك أشد عمى منها حتى في مصلحة انفسهم فعاثوا في امّتهم كل هذه القرون الطويلة مخرّبين مفسدين سالبين ناهبين غير منتبهين إلى تدهورهم في دركات الذل والضعف وارتفاع الدول المجاورة في ذرى المجد والقوة حتى باتوا كما هم اليوم لعبة في ايدي هذه الدول تدفعهم إلى حيث تريد ولا يحفظ وجودهم غير اختلافها.

وفي هذه النهضة التي شُبِّهت لنا اخيراً فظنّنا انفسنا اننا لا نزال أمّة حيّة وان حكّامنا ثاب إليهم الرشد، كنّا مثالاً ناطقاً على جهلنا المطبق. فالأمّة لم يحرّك ذلك فيها سوى العصبيّات الجلسيّة والدينيّة، والحكام لم ينبّه ذلك فيهم النهم المتأصل في نفوسهم الجائعة. وما تغنّينا في اول الأمر بالجامعة الوطنيّة بملء شدقينا إلاّ نشوة نسوان هذى به الجاهل من غير ما ادرك وأضمر به المعلّم بعض العلم كل اتفاق. فما أبعد امتنا الثائرة عن الأمّة الفرنساويه في غايتها وما أبعد حكامنا المصلحين عن مصلحي اليابان في ادراكهم. فسلام عليك، أيها العاهل الراحل امبراطور اليابان. ولولا يقين فيّ متمكن لصدّقت انك من أصل سماوي لأن ما صنعته في امّتك لمعجزة لا تستطيع إلاّ الآلهة. فانك بكسحة من مكنستك الالهية نظّفت ادمغة امّتك من قاذورات سخافات العادات والاعتقادات حتى جعلتهم بشراً في أقلّ من لمح البصر. وانه يشقّ عليّ اني لا استطيع ان أقول ذلك عنّا. فإن المتعلّم منّا والذي رأى محاسن الأمم الراقية واطّلع على اسباب ارتقائهم فتظنّ انه عرف سرّ هذا الارتقاء وعرف الفرق بالمقابلة. ترى أول شيء يحرّكه فيه علمه نعرة جاهليّة تردّه مئات من السنين إلى الوراء تنسيه الوطن والوطنيّة وتعميه عن ان يرى في تقهقره عن مستوى الأمم الراقية أقل عضاضة فيشد وتر الدين ويضرب عليه في الشوارع وعلى كل صفحات الجرائد ويحرّك العصبيات الجنسيّة حتى يصبح لديها كل اتفاق مستحيلاً ولو هوى بها الى الدرك الأسفل. فكأن ادمغتنا جُبلت جَبْلاً بطين سخائم السخافات وهاشت فيها اعشاب تغار الخرافات والتفت حولها افاعي ادغال الاعتقادات فلم تعد تفعل فيها مكنسة حتى ولا مجرفة ولا سائر انواع المطّهرات . فما احلى جهل الزولوس وأهل نيام نيام البسيط بازاء جهلنا المركّب.

وانا أعلم حق العلم ان قولي هذا قد لا يرضي احداً ممن لا قلب لهم فيسترون عيوبهم بأظلال أصابعهم لئلا يروها فتهيّجهم وربما اغضب كثيرين ممن هم «شرّ على الحرّ من سقم على بدن» الذين يضيع عندهم النصح ولا ينجع فيهم دواء ولكنّه يرضي العقلاء وان قلّ عديدهم. ومبدأي ان الحقيقة ولو جرحت لا بدّ من قولها عسى ان تحمل شدّة الإيلام على زيادة التفكير.

وغرضي الإيقاظ لا التخدير. وإلاّ فمصيرنا معلوم وهو بئس المصير لولا ان العزاء فيه اليوم انه مصير إلى المجتمع الكبير.

شبلي شميّل

بعد الصلح
[اللاَّمركزيّة هي الحلّ]

[الاهرام: ١٣/١٢/١٩١٢]

هدأت الحرب وأوشك الصلح ان ينعقد ـ وسواء نال السرب كل مطامعهم على بحر الادرياتيك أو سلبتهم النمسا بعضها فالخسارة واقعة على تركيا في كل حال ـ وساء استقلت البانيا أو أغرقت في الاتحاد البلقاني فالمصلحة من ذلك لبعض الدول الأخرى. ـ وسواء قرّر المؤتمر المزمع استقلال الفاتحين بفتوحاتهم او ابقاء السيادة الاسمية (تركيا كما هي اليوم على مصر فالغنم غير باق لها) ـ. وإذا كان من هذا المؤتمر مصلحة فهي للدول الكبرى والصغرى الأوروباوية وليس لتركيا. فاملاك تركيا في اوروبا تعتبر انها خرجت من يدها فعلاً وما بقاء اسمها على بعضها صورة الا لقضاء مصالح غريبة ليس لتركيا من ورائها أقل فائدة. فمركز الدولة في الآستانة اليوم مركز فخري لا ينفعها شيء. ولا شك ان الإستانة الآن تبقى ـ إلى أجل ـ عاصمة الدولة العثمانية بمشيئة الدول. لان الدول لا تسمح لاحداهما كبيرة او صغيرة باحتلالها وحتى نتفق على جعلها مدينة حرة ليس أوفق من ابقائها في حوزة تركيا لا لمصلحة تركيا بل لمصلحة الدول الكبرى نفسها.

فالآستانة كعاصمة للدولة لم تعد تنفعها بشيء. أما بالنظر إلى املاكها في اوروبا فقد تقدم بيان الحالة التي صات هذه الأملاك إليها وما بقاء هذه الأملاك لها على هذه الصورة الا لجر المشاكل عليها وعلى سائر المملكة وما مصيرها الا الى الخروج من يدها وما مصير لدولة معها الا إلى التخلي عنها. واما بالنظر الى املاكها في آسيا فالاستانة اليوم صارت معها أشبه بالرأس المفصول عن البدن أو القلب المقطع العروق. فان ذهاب اكثر الجزر من يد الدولة وضرورة فتح الدردنيل للملاحة الحرّة كما سيقرر في هذا المؤتمر مع عدم وجود عمارة بحرية قوية او مراكب تجارية لها كل ذلك يجعل وسائل الاتصال بين العاصمة والمملكة في غاية الوهن ويجعل الدولة مهددة على الدوام في املاكها لأقل سبب داخلي أو لاقل عداء خارجي مع اية دولة أخرى بحرية مهما كانت.

وسواء أطلق المؤتمر اليوم يد تركيا في الباقي من املاكها أو قرر اقامة المراقبة المالية وبالتالي الإدارية عليها في هذا الباقي لمصلحة الديون المختلطة كما هو الأرجح. فالأمة العثمانية اليوم غير مستعدة لأن ترضى بما رضيت به حتى الآن من حكم الضغط والتخريب صاغرة ذليلة كما كانت في الماضي. ومن عدم الرضى الى الغضب والخروج لا يلزم إلا خطوة واحدة.

على انه يوجد ظرف واحد استثنائي يمكن الدولة في مركزها الجديد من ادارة املاكها وهي في الأستانة ادارة ناقصة كما كانت الحال حتى اليوم وهو عقد محالفة بينها وبين دول الاتحاد البلقاني الجديد ولو ان دون ذلك صعوبات شتى دولية عامة واتحادية بلقانية خاصة يطول بنا شرحها. ولكن الأمة نفسها هل ترضى اليوم بهذه الإدارة الناقصة وهل يقوى الضغط الشديد حينئذٍ على اسكاتها زمناً طويلاً؟

فحيال هذه الحالية المختلطة ماذا يلزم لحكومة رشيدة ان تفعله ولامة حيّة أن تسعى إليه لحفظ هذا الرابط الضعيف اليوم بين الدولة وولاياتها المختلفة عسى أن يتقوى في المستقبل ويصير صلة محكمة منيعة.

نقل العاصمة الى احدى الولايتين العظيمتين التركية أو العربية لا يزيل الضعف ولا يقوي هذا الرابط. وقسم المملكة الى هاتين الولايتين واعطاؤهما نوعاً من الاستقلال الاداري وان كان مما يفيد جداً في ترقيتهما فهو يخشى منه مع الزمن أن يكون مدعاة لانفصالهما الى مملكتين عظيمتين مستقلتين لواحدة عن الاخرى وعن الدولة نفسها ولا يجوز للدولة أن تفعل ذلك مختارة.

فلتبق الآستانة عاصمة المملكة ومركز السلطان ومقر الخليفة ما دامت الدولة راضية بذلك ولكن على شرط أن تصرف الدولة كل قواها لتقوية املاكها في آسيا الصغرى والكبرى.

ولكن كيف يكون ذلك وقد تقدم أن ادارة هذه الاملاك ادارة حسنة بمركزنا الجديد خاصة من الآستانة متعذرة اليوم وان نقل العاصمة الى احدى الولايتين العظيمتين لا يزيل هذا المحذور وان قسمها إلى ولايتين مستقلتين يسرع فصلها عن المجموع.

وللجواب على ذلك نقول انه لا يوجد لحل هذه المشكلة اذا أردنا أن نحكم بالعقل إلا أمر واحد ترضاه الأمة ويتكفل لها بالاصلاح المطلوب وبحفظ الدولة علاقتها بها. وهو اللامركزية بأوسع معانيها بحيث تصبح المملكة العثمانية ولايات صغيرة متحدة تقوى بها الدولة ولا تقوى الولايات على الانفصال عنها ولا ترغب فيه اذا ارتفع عنها الحيف اشبه شيء بالولايات الاميركية نفسها.

وهذه الفكرة التي جاهر بها صباح الدين في أول الانقلاب الدستوري والتي لم يشأ الاتحاديون العمل بها والتي لام يعطها مجموع الأمة حقها من التبصر أصبحت اليوم ضرورية لا بد منها لحفظ هذا الملك وإلا فلا يمضي زمن قليل حتى تتفكك عرى المملكة تفككاً تاماً تزول معه حيثية الدولة من الوجود ولا تكون الجناة به حقيقة الا عليها وحدها. لانه كيفما كان مصير الأمة بعد ذلك فانها تكون اصلح حالاً مما هي تحت حكم الدولة حتى اليوم.

وحتى تعمر البلاد باللامركزية كما يجب وبالسرعة اللازمة في هذا العصر الذي لم يعد صاحب الخمول يستطيع النجاة فيه من العقاب السريع يلزم الولايات والدولة الممثلة لمجموعها ان يفهموا ان استعمار البلاد الواسعة واستثمار اراضيها الخصيب واستخراج كنوزها الثمينة لا تتم لنا بجهدنا وحدنا ونحن بهذا الجهل وقلة العلم وعدد الاختيار وشدة الفقر إلا اذا استخدمنا لهم خبرة الخبيرين من أهل اوروبا وعلمهم وصناعاتهم وأموالهم نستعين بهم غير مقترين أو مستنكرين كما قلت في مقالة سابقة ولا فالوقت ضيق والمزاحمة اليوم شديدة جداً.

فعسى ان حكامنا يفهمون ان ظل الملكوك وحده لا يكفي اليوم لربط الولايات بالعاصمة وان حكم الضغط يسرع الانفجار وان جمع قلوب الأمة حول عرش الحاكم يكون بالعلم المعمر لا بالسيف المدمر ونلتمس على نوع خاص من كتابنا وشعرائنا ان يخفضوا كثيراً من غلوائهم بالتغني بمجد الآباء والأجداد في الماضي ويلتفتوا قليلاً الى حاجة الابناء والأحفاد اليوم. فلا يلهو الناس بالكلام المزوق طلاء للسوس الذي ينخر المملكة بل يدلونهم على مصلحتهم بتبيين المعايب التي فينا بالصراحة التامة او لا شيء يقي الملك اليوم الا الاعتصام بأسباب العمارة وحدها. فاعداؤنا ليسوا الذين نسميهم أعداء ونرميهم بقنابل الكلام وهم أصدق منا في حقنا لانهم ينبهوننا الى ضعفنا. بل نحن أنفسنا أعداء أنفسنا ما زلنا لا نريد ان نرى عيوبنا وننبه اليها بالصراحة التامة والاخلاص التام والعقل المحكم المجرد عن كل هوى ولقد أعذر من أنذر.

الدكتور شبلي شميل

نحن وحكومتنا

[الاهرام: ١٩١٢/١٢/١٧]

مهما كتبنا نحن العثمانيين في هذا الموضوع لا نفه حقه من البحث، لا لانه من المباحث العويصة التي يصعب فهمها بل لاننا قلما نطرقه مجردين عن الهوى او التأثر بعوامل أخرى تبعدنا فيه عن الحق، والا فأي شيء أسهل من التمييز بين الجيد والرديء، وبين الحسن والقبيح، وبين شعب راقٍ وآخر منحط، وبين حكومة عاقلة متنورة وأخرى على ضد ذلك.

ومن منا لا يدرك اننا أمة متقهقرة وان تقهقرنا مسبب على جانب عظيم من سوء معاملة حكومتنا لنا، وعلى جانب اعظم من غفلتنا نحن أنفسنا، بل من منا لا يدرك ان حظ الامم المتقهقرة في هذا التنازع الشديد مع الأمم الراقية هو السقوط وان مصيرنا معهم الزوال اذا ثابرنا على هذه الغفلة، ولكن كم هم الذين يقولون ذلك منا اليوم في وجه حكامنا ليعرفوا واجباتهم نحونا ويقولونه لأمتنا لتعرف حقيقتها في الوجود. واذا قالوه فكم هم الذين يدلوننا على خطة العمل التي تخرجنا من الموت إلى الحياة.

في العهد الماضي كان قائل هذا القول يرمي من الأمة بالمروق واذا ظفرت الحكومة به أعدمته في الخفاء. وفي العهد الدستوري صاروا يغتالونه على قارعة الطريق. وحتى اليوم يوجد اناس يعدون الابقاء على الأمة نعمة لا يغمطها إلا الكافرون والذين هم بنعمة ربهم لا يحدثون. فكاننا حتى الآن لا نريد ان نعمل لمصلحتنا العامة وإذا أردنا فكأننا لا نفهم هذه المصلحة. فيظن الواحد منا انها في مصلحته هو وحده حتى إذا نالها عجب كيف لا يكون الأخرون راضين شاكرين حامدين.

هذه صورة مصغرة لحالتنا. فكأن صواعق الحوادث التي تنقض علينا غير كافية لان توافظنا من سباتنا العميق. وإذا تململنا بها في نومنا فلكي تهيج عواطفنا على من تقدمنا لا للعسي الى اللحاق به بل لتصرخ فينا صرخة جاهلية علنا ننهض وندوس بسنابك خيل همجيتنا رقاب محلقات مدنيته ويا له من حلم أخرق.

انا لا اكتب مضطراً لملء فراغ فلست بالصحافي. ولا لمقاومة مرهفات الاقلام في صف الكلام فما انا ممن يرغب في تزويق المقابر. بل اكتب لتقرير حقيقة بسيطة مشهورة ملموسة يدركها الخامل والعاقل والبصير والأعمى معاً. ولكننا كثيراً ما نمر بها ولا غراض هي أمراض لا نريد أن نراها أو نلمسها ونتحاشى أن نقولها لئلا نجرح هذا أو نغضب ذاك. ولا غرور فالحقائق مع بساطتها الكلية كان تقريرها من أصعب الأشياء على الناس حتى اليوم في العلم والأمور الاجتماعية وفي كل شيء أقولها هنا لكي أبين نسبتنا في العمران ونسبة حكومتنا الينا عسى أن تنجلي لنا اسباب ضعفنا فننشط إلى اصلاح حالنا قبل أن تزول حيثيتنا من الوجود كأمة ودولة.

وقول الحقيقة. وان كان يجرح احياناً كثيرة لكنه يفتح العين وينبه الفكر. ولطالما قلتها ولا قولنها دائماً ولو أدمت. ذلك خير من أن ادعها تموت في الصدر. فلا أقل من اني لا اكون خدعت امتي ونافقت حكومتي ولا عبثت ـ خصوصاً ـ بمداركي.

هل نغالي اذا قلنا ان سلوك حكومتنا معنا حتى الساعة لا يدل على انها تدرك حقيقتها الينا وبنا ولا تدرك حتى مصلحة نفسها. فأفقرتنا وافتقرت بنا. وأذلتنا وذلت بنا. أليست علاقتها بنا حتى اليوم علاقة غاصب وسالب وناهب وطامس. ولا نتكلم عن ولاياتها في اوروبا ونسبة

الباقي منها تحت حكمها الى الذي انفصل عنها في العمارة والعلم. ولا عن ولاياتها التركية في الاناضول الخصيبة حداً والتي هي بها اليوم أشبه شيء بمجاهل افريقيا. بل نتكلم عن ولاياتها العربية كسوريا والعراق وما بين النهرين. فاين ذهب سكان هذه الجهات العامرة في القديم وكيف تحولت سهولنا الخصيبة الى قفار تاحلة ومدنها العامر الى خرائب ينعق فيها البوم. وأين ذهبت مدينة بغداد نفسها التي كانت على عهد العباسيين باريس الشرق حتى لم يبق اليوم من آثار هذه المدينة العظيمة شيء يدل عليها. مع ان آثار العرب في اسبانيا لا تزال محفوظة برونقها حتى اليوم وهذا من المعجزات في تاريخ الآثار في الأدهار.

ان تقرير ذلك شيء محزن. والذي يحزن اكثر انك تجد منا حتى اليوم أناس ينكرون عليك أن تكتب مثل هذا التاريخ بمثل هذه اللهجة ولا يخجلون أن يتغنون بعصر الخراب هذا ويصفونه بكل الأوصاف الحميدة كأنهم يتمنون دوامه.

ان أهل سورية من مسلمين ونصارى مشهورون انهم رجال جد وعمل. ومع ذلك نجد البلاد في حال من الفقر والجهل ينفطر لها قلب العدو. ولولا المدارس الاجنبية لكان الناس هناك لا يحسنون حتى القراءة البسيطة. يأتيهم الحاكم المتربي على مصاطب الآستانة معفر الجبين بتراب الذل في التماس محسوبية هذا الوزير أو ذاك الأمير. فلا يلبث أن يقذف به والياً وهو خاوٍ طاوٍ حتى يتذرع بكل الأسباب المدمرة للسلب والنهب كما كان يفعل الوالي رشيد في مدينة بيروت من عهد غير بعيد وما هو إلا مثال واحد من مجموع كله على هذه الشاكلة.

ولا بأس على الحاكم الغاشم اذ لم ير عيب ذلك ما دام هو قادراً وما دامت الأمة صابرة عليه. لان القادر الجاهل قلما ينظر الى المصلحة البعيدة. فما دامت مصلحته القريبة متوفرة له فهو لا يتم بمصلحة سواه لا يهتم بالغد ما دام الغد لا يهتم بنفسه. أي ما دامت الأمة لا توقفه عند حده.

ولكن الحالة اليوم لم تبق كما كانت في الماضي. فقد رأى هذا القادر بالأمس المستأسد على أمته ان اكتفاءه بنفسه قد جر عليه مشاكل كثيرة من خارج. واني لارجو ان تكون الأمة معه اليوم غيرها من داخل. فان كانت حكومتنا تظن انها تستطيع ان تحكمنا اليوم كما حكمتنا في الماضي ولم تخش انتفاضنا عليها. أفلا تخشى الذين ينازعونها البقاء من خارج وهي بهذا الضعف وهم بتلك القوة. وما ضعفها إلا من ضعف شعوبها وما قوة اولئك إلا من قوة شعوبهم. فان لم تعرف واجباتها نحونا لاسعادنا فلا أقل من ان تخشى نتيجة ضعفنا عليها. فان لم تسع لتقويتنا حباً بنا فلتسع الى ذلك حباً بمصلحة نفسها. وهذا لا يكون إلا اذا سلكت معنا على ضد ما كانت حتى اليوم على خط مستقيم.

وعلى الأمة ان تعرف ان الحكومات قلما تسلك هذا المسلك الحسن مع رعاياها من نفسها فعليها إذن ان تسلك مع حكومتها غير مسلك الغفلة والخنوع الاعمى لتعرف كيف تقوم اعوجاج حكامها وتصير محترمة مسموعة الكلمة لديهم. وأملي عظيم اليوم بما أراه من النهضة في ابناء سورية عموماً المسلمين منهم خصوصاً وعلى نوع أخص شبان المسلمين المتخرجين في المدارس الراقية فإن عليهم بالتعاضد مع اخوانهم من سائر الملل وبتغلب العقل النير على العواطف المظلمة يتوقف مستقبل البلاد الزاهر والا فالمحق شامل لنا عموماً.

الدكتور شبلي شمّيل

أفضل الوسائل لإنهاض السلطنة*

خطر لنا عند الفراغ من تأليف هذا الكتاب[1]، أن نستطلع آراء نخبة من أكابر العلماء وفحول الكتّاب، عن أفضل وسيلة تنهض بالسلطنة بعد كبوتها، وتزيد في يقظة الأمة بعد غفوتها؛ فسألنا من أسعدنا الحظ بالوصول إليه، قُبيل صدور هذا المؤلف، أن يصوغ لنا فكرته الأساسية في أسطر قليلة فتكرَّموا بتلبية الطلب، أدامهم الله زهراً نضيراً في بستان العلم والأدب.

قال الدكتور شبلي شميل:

الدولة لا تنهض إلاَّ بثلاثة: رجال ومال ووقت؛ والرجال بالعلم والتربية، والمال بالموارد، فهل ذلك متوفر، ولا سيما الوقت وحالنا في الاجتماع كما هي من قلة التكافؤ مع ما هو عليه اليوم من شدة التنازع؟ والجواب على ذلك يدل على المصير.

وقال سعادة فتحي باشا زغلول:

أقرئك السلام وبعد فسؤالك هام ومطلبك أهم

الدولة العلية، رعاك الله، مجموع يحتاج في سياسته وإنهاضه إلى حكمة عالية وبصر بالأمور كبير. فإذا غلب الرأي الهوى، وبطل التفاضل بين العناصر، وأقيم وزن العدل، وتساوى الناس جميعاً في الحقوق وفي الواجبات؛ وإذا خلصت نيّات أهل الزعامة، وصدقت عزائم ذوي الرئاسة، ففضلوا مصالح الأمة على المنافع الفردية، وجد الكل في طلب الاصلاح فنشروا التعليم، وعنوا بالأمور الاقتصادية فاستبقوا لأنفسهم مرافق البلاد وكنوزها، وذلّلوا السبل وأمَّنوا السابلة، وقربوا المسافات ثم ازدرعوا واحترفوا واتجروا فأحرفوا؛ وإذا أحكموا نظام الجند وهذَّبوه لا شك أن الدولة ناهضة من سقطتها، وأن الأمة ناشطة من عقالها، وانها نائلة من الحضارة والمناعة مكاناً عليّاً.

---

(١) كتاب تاريخ الحربين البلقانيتين للكاتب السياسي المجيد يوسف أفندي البستاني.

* مجلة الزهور، السنة ٤، ١٩١٣. ص ٤٣٠ - ٤٣١.

وقال الدكتور فارس أفندي نمر:

حضرة الفاضل؛ إن كان المقصود من «السلطنة» في سؤالكم «الحكومة والأمة» في حالتها الحاضرة أي الدستورية فوسائط إنهاضها متعددة: منها مادي ومنها أدبي. ولكل واسطة منها قوة لا يُستغنى عنها وخصوصاً وسائط العلم والمال. على أن في الحكومة وفي الأمة رجالاً من ذوي العلم وذوي المال فلا يعوزهم إدراك ولا يسار؛ ولكن الذي ينقصنا هو تربية الحكومة على الأخلاق القويمة والصفات المنظمة والمرقية لشؤون الهيئة الاجتماعية حتى نستطيع الاتحاد والتعاون على تدبير أمورنا وإنجاح أعمالنا، ونحن جماعات، كما يستطيع كثيرون منا اليوم تدبير أمورهم وإنجاح أعمالهم، وهم أفراد.

«حزب اللاَّمركزية العثماني»

ذكرنا* مراراً خبر اجتماع فئة من أفاضل السوريين في هذه العاصمة لتأليف حزب يطلقون عليه اسم «حزب اللامركزية»، وقد اجتمع فريق** منهم أمس في حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي أفندي شميل للتباحث بهذا الأمر ونشر الدعوة بين جمهور السوريين في القطر المصري، وسواه، وللسعي في إنجاح حزبهم وخطتهم. فتكلم عزتلو المفضال رفيق بك العظم عن غاية الحزب حاثّاً أبناء وطنه على تعضيده.

وتلاه الدكتور شبلي أفندي شميل فألقى الخطاب المنشور في صدر «**الأهرام**». وبعد مباحثة في الحزب ومقاصده اتفق الجميع على السعي في تحقيق هذه الأماني التي يوافق عليها الباب العالي ويعد بأن ينفذها في البلاد العثمانية. فلم يبق إلاَّ أن يؤيد السوريون على وجه التخصيص والعثمانيون على وجه التعميم هذا الحزب ومبادئه وبكل ما لديهم من الوسائل إنجاحاً للبلاد وإبقاءً على ثروتها وأبنائها وإنماءً لها في ظل الاصلاح الصحيح.

وقد نشرنا بيان لجنة الحزب [للقواعد] الأساسية التي وافقت عليها لجان بيروت ودمشق والقدس وسواها. * للمبادىء

ولعل الذين يخبطون في [التهم] على هذا الحزب يسترشدون بمبادئه إلى معرفة حقيقته.

---

* الأهرام، ١٧ فبراير (شباط) ١٩١٣، الصفحة ٢، عامود ٥.

** المؤسسون هم: رفيق العظم، الشيخ محمد رشيد رضا، الدكتور شبلي شميل، اسكندر عمّون، المحامي سامي جريديني، حقي العظم ومحب الدين الخطيب. وقد جرى انتخاب رفيق العظم رئيساً للحزب واسكندر عمون نائباً للرئيس، وحقي العظم سكرتيراً ومحب الدين الخطيب نائباً للسكرتير، أما الهيئة المالية، فتألفت من: الدكتور عزة الجندي، ونعمان أبو شعر، وداود بركات: رئيس تحرير الأهرام.

اللامـركزيـة

كيف يراها الدكتور شميل

البرق ـ ٧ أيلول ١٩١٢، السنة الخامسة، عدد ١٩٢، ص ٢٧٧

اللامركزية اسم نصف أعجمي في تركيبه ولكنه ليس بدعة في اللغة العربية للذين ينفرون من كل جديد ولو أنه خروج من الظلمة إلى النور. ويستمسكون بكل قديم ولو أنه قيام بين الخرائب والقبور. فقد سبق للأطباء والحكماء والفلاسفة أن استعملوا مثل هذا التركيب من قبل. فقال الأولون «اللاسم له» لشريان معروف وقال الآخرون «اللانهاية» لمحيط هذا الوجود و«اللاأدريّة» لفرقة من الفلاسفة وقفت حيرى بين الخلق والقدم كما وقف حمار «بوريدان» ـ على رأي الفرنسويين ـ بين حزمتي الحشيش لا يعرف من أين يبتدىء ولا أياً يختار. وما قلت ذلك هنا إلاّ لأسكن شيئاً من روع الذين يستمسكون بالأسماء والألفاظ أكثر من استمساكهم بالحقائق ويراد بها في عرف السياسيين توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي ليتيسَّر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم مع حفظ الصلة بالمركز حرصاً على مصلحة الكل. وفي نظام الاجتماع هو رد الأشياء إلى نصابها الطبيعي فهي عبارة عن توزيع العمل في جسم الاجتماع كما هي في الأجسام الحية نفسها وفي كل مجموع آخر مختلط التركيب حيث يصبح هذا التوزيع ضرورياً لعدم استطاعة الجزء القيام بأعمال الكل وإلاّ ساءت حال الجسم وساءت حال المجاميع.

و «كيف يراها الاقبال»*

اللامركزية بيت ضرب على دعائم التعصب الجنسي والتفاضل القومي، والتفاخر والتمايز بين العناصر والملل المتشعبة شعوباً وقبائل، وأساس ذلك البيت المتداعي الأركان هو التشتت والتفرق وعدم ملائمة العناصر المختلفة بعضها مع بعض، والتشاح على المناصب وتقلد ربقة الامارات والحكومات والدين الاسلامي قد نفى كل هذه الاختلافات بين معتنقيه وهدم أساس التشتت والافتراق بين المسلمين وقوض دعائم التعصبات العنصرية، فهل تلائم قوانينه ومقرراته أصول اللامركزية؟

---

* «الإقبال»: جريدة اسلامية صدرت في بيروت منذ ٩ نيسان ١٩٠٢، لصاحبها الشيخ عبدالباسط الأنسي. عاشت ٢٨ سنة.

موقف الأمة العثمانية اليوم

خطاب الدكتور شبلي شميّل في لجنة حزب اللامركزية*

الأمة العثمانية اليوم في تجربة خطيرة جداً. لا لهذه الحرب التي تمت فيها الأطفال ورملت النساء وأقحلت الأرض إلاّ من أشلاء القتلى. فأنزلت الويلات حتى الساعة بما يفوق المليون من النفوس.

لا لهذه الحرب التي هي عار على البشرية في هذا العصر الذي صار يجب على الأمم فيه أن تفهم أن المباراة لا تكون بتقتيل الرجال وتبديد الأموال في الحروب الدموية بل بالعلم والصناعة والاكتشافات فيها. وبالأعمال الاقتصادية التي توفر المال لبذله في المشروعات النافعة التي تقوى بها الأمم ويعتز شأنها في العمران.

نعم، إن الأمة العثمانية اليوم في تجربة خطيرة جداً. لا لهذه الحرب الناشبة في بقعة محدودة من الأرض مهما جرّت عليها من الخسائر. بل هي في هذا الخطر لوجودها في مستوى عمراني واطٍ جداً عن مستوى الأمم الراقية التي تتنازع معها الحياة في ميدان التنازع بشدة، الذي لا يثبت فيه إلاّ الأصلح.

الأمة العثمانية ـ يا للأسف ـ لا تملك حتى اليوم شيئاً من أسباب هذا الصلاح. لا علم. لا صناعة. ولا زراعة راقية. ولا تجارة واسعة. فكل الخطر عليها من نقص ذلك [كامن] فيها.

الأمة العثمانية لا تملك شيئاً من ذلك وبالنتيجة هي لا تملك ثروة حقيقية. والمال كما يقول الافرنج «عصب الاجتماع».

إن المال هو الدماغ الذي يفتكر واليد التي تعمل والرجل التي تسعى.

فرنسا لا شك قوية جداً بعلومها وصناعاتها ورجالها. ولكنها لم تدفع عنها مطامع المانيا ولم تحقق السلم في أوروبا إلاّ بقوة مالها ـ أميركا لا يرتد الطرف عنها اليوم وهو كليل على ما في أرضها من الغنى المحرك للمطامع إلاّ لثروتها الهائلة.

الماليون يمضون في كل حال. ولكنهم يحصدون أكثر إذا أنفقوا من فضلات ما يحرزون لمساعدة المشروعات العمومية التي تعود على الأمة وعلى العمران أجمع بالنفع وتنعكس مرتدة إليهم بالفائدة. إذ لا صلاح حقيقي للأفراد إلاّ بصلاح المجموع.

---

* كما نقلته صحيفة الأهرام، ١٧ فبراير (شباط) سنة ١٩١٣ في صدر صفحتها الأولى.

سعادة الفرد من وراء سعادة المجموع. حقيقة لا تصدع. وطبيعتها على العمل آخذة اليوم في الانتشار جداً. انظروا إليها في البلاد الراقية حيث كانت نتيجتها على المجموع عظيمة جداً وعلى الأفراد أعظم أيضاً.

الناس لا يسعهم أن يكونوا جميعاً في العمران ماليين أو صنّاعاً أو زراعاً أو علماء. إذ لا يسع الواحد أن يستقل بالكل ولا أن يعيش في غنىً عن الآخرين. فإذا لم ينفع الواحد الآخر حرم نفسه من نفع هذا الآخر. فكما أن العلم في الصدر لا ينفع كذلك المال المخزون لا يثمر.

والأمة التي ليس لها شيء من مفاخر العمران وعزّته لا يسع أفرادها أن يدّعوا ذلك فيهم مهما استقلوا في شؤونهم الخاصة ومهما عَلَت مراتبهم. وأقل احتكاك منهم بالأمم الراقية يجعلهم يشعرون بغضاضة تنالهم من كل ذلك، يتألمون منها في باطنهم ولو حاولوا طلاء الظاهر. والنفوس تأبى الهوان.

قلت إن الأمة العثمانية لا تملك شيئاً من مقومات العمران. وهذا غير صحيح. فهي تملك بلاداً واسعة وأراضي خصيبة في أجمل بقعة من الأرض. وتلك أيضاً لا يفضلها أحد في صحة التكوين والذكاء الفطري. ولكن أين هي الأيدي التي تعمل في الأرض، أقفرت الأرض وأَمْحَلت لا لذنب منها. وانقرض الناس أو رحلوا لذنب منهم ـ كانت الأرض تأوي ملايين لا يوجد اليوم سوى ألوف فقط.

الحكومة العثمانية اليوم شاعرة جيداً بحرج الموقف وحاسّة كذلك بتضامن الأمة معها في هذه الصعوبات.

لذلك أخذت الحكومة وهي في هذه الشدة الشديدة تفكر في الوسائل التي تحمي المملكة من الخراب المحدِّق به وتنقذه من القضاء عليها القضاء الأخير. وأوعزت إلى الأمة أن تبحث معها وتشاركها في العمل أيضاً.

هذا تصريح حكومتنا لنا في الوزارة السابقة وفي الوزارة الحاضرة. فليس علينا إلّا أن نستند إلى هذا التصريح الصريح للاشتغال معها في شؤوننا صَوناً لجامعتنا وحرصاً على مصلحتنا خاصة. لئلا ترمينا حكومتنا بالغفلة إذا تقاعدنا اليوم كما كنا نرميها بالجور لاستبدادها في الماضي.

الأمة العثمانية قائمة قاعدة اليوم وعناصرة المختلفة تؤلف اللجان للبحث في هذه الشؤون الاصلاحية خدمة لنفسها وللمجموع معاً.

والأمة السورية لم تكن أقل العناصر عناية بالأمر. فألفت اللجان في الوطن

وألفت في مصر هـذه اللجنة الماثلة أمامكم لأن تنطق بلسـانكم وتعبـر عن شعـوركم أحسن تعبير.

الأمـة السوريـة من أعلى الأمم العثمـانيـة همـاً وذكـاء. وقـد تضـارع في هـذا الاستعداد الفطري أعظم الأمم الراقية. ورجالها اليوم منتشرون في المعمورة كلها حتى صح فيهم المَثَل: «أعرجهم وصل إلى الصين». وقد أظهروا في كل الأماكن التي حلوا فيها اقتداراً كان يحلّهم المحل الأول بين الآخرين فلم يحلهم في أخريات القـوم. وأنتم هنا مثال حي ناطق في الهمة والذكاء.

ولكن من الأسف أن الأمة السورية مع كل هذا النشـاط هي حتى السـاعـة أقل العناصر العثمانية تضامناً. والسبب كان من تبـاين العناصر المؤلفـة هي منها وانفصـال القسم الأكبر في أفكاره عن القسم الأصغر.

أما الآن فقد أخذ هذا الفاصل يزول بفضل العلم من جهـة وخصوصـاً بفضل هذه التجارب الصادعة اليوم. وعلم الجميع على السواء مزايا الائتلاف لتعمير الأرض وصلاح الناس. وقام القسم الأكبر في مقدمة الجميع ينشد الاصلاح بأعلى صوته عملاً بالقول المأثور: «السلم ضـالّـة المـؤمـن». وها هو اليوم واقف أمامنا يقول لنا: «الاصلاح ضالة الـوطني» ينشده من حيث أتى. فهـل يليق بالآخـرين أن يتقاعسـوا عن شد إزره بكل ما في وسعهم سعياً وراء مصلحة الجمهور؟

أنـا لا أتستر في كـلامي فَلَكم رمى السوريـون المسيحيون المسلمـين السوريـين بقولهم سراً وجهـراً: «أنتم عقبتنا في سبيـل الاصلاح» بـاعتبار أنهم العنصر الأقـوى، وإن كان الجميع في الماضي «في الهوى سوا».

فهل يليق بنا اليوم أن تنعكس الآية فينا ليرمـونا بمـا كنا نـرميهم به في المـاضي. لا، أنتم جميعاً لا تريدون وأنا لا أريـد إلاّ ما تـريدون أنتم، أي لا أريـد أن أرى فينا إلاّ اخواناً متناصرين لا في الوطنية فقط بـل في الانسانيـة قاطبـة أيضاً، لا يفـرق بيننا دين ومذهب. مادّين يد المعونة بعضنا لبعض صـوناً لمصـالحنا في دنيـانا وحـرصاً عـلى كرامتنا بين الأمم وضنّاً بمداركنا لئلا تمتد إليها يد التـاريخ بسـوء. والعمران لا يـرحمنا ولا يصبر علينا إذا تغاضينا عن أنفسنا.

ولنتخذ مثالاً لتضـامننا اخـواننا المصـريين الـذين أظهروا في العقـدين الأخيرين تضـامناً وسخـاء أدهشا العـالم. فلا أقـل من أن نقتـدي بهم إن لم يكن في البـذل عن مقـدرة ففي الاندفـاع عن طيبـة نفس. إذ لا تكلف نفس إلاّ وسعهـا. فمن رشـاش النقط تتكون الجداول والأنهار، ومنها تتكون البحار ولا قوة إلاّ بيد الجماعة.

شبلي شميل

بيان حزب اللامركزيّة الإداريّة العثماني*

إن غرض الأمم الذي ترمي إليه في هذا الوجود إنما هو الحياة: الحياة الاجتماعية والحياة السياسية. أي أن يكون لها وجود اجتماعي راقٍ، ووجود سياسي ثابت، ومن الضروري أن تسعى الأمة لكلا الوجودين في منهجها القويم الموصل إلى الغاية وتعنى بهما جميعاً ولا تقصر مجهوداتها على بلوغ غاية أحدهما دون الآخر، لئلا يكون مثلها كمثل من علم بركاز من الذهب في مكان فأسرع إليه بكل ما تصل إليه قوته وجهده فلما بلغه لم يجد معه أداة لاستخراج ذلك الركاز فرجع القهقرى من حيث جاء واهي القوى خائب الأمل والرجاء.

فالقوانين الاجتماعية مهما كانت راقية قل أن تضمن الحياة لأمة إذا لم تكن قائمة على أساس متين هو القوانين السياسية. ومهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للأمة وأكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة في التعليم والاقتصاد والادارة والقضاء ونحو ذلك فإنها لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حياته الخصوصية ليثبت لنفسه وجوداً صحيحاً بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد.

ولذا أصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل أمة همّ جميع الأمم وصار من المسلم بالبداهة ان وجود الأمة السياسي والاجتماعي بين مجاميع الانسان الحية متوقف على شكل الحكومة فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومات أكثر، كان ذلك لدوام وجوده أضمن.

لهذا السبب تكاد تكون سائر الحكومات التي للأمم المستقلة اليوم دستورية شعبية لا شأن فيها لسلطة الأفراد بل الشأن لعامة الأمة ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة، إلا أنها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافاً روعي فيه الاجتهاد والنظر إلى حالة الشعوب الاجتماعية والعرفية والقابلية والاستعداد.

● انظر: مجلة المنار، ج ٣، مجلد ١٦، ٨ مارس ١٩١٣، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩.
وصحيفة الأهرام: ١٧ فبراير، ١٩١٣
أما برنامج حزب اللامركزية فهو مأخوذ من المنار، المصدر ذاته، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

● تألف في مصر حزب سياسي بهذا الاسم وهذا بيانه الذي نشرته لجنته العليا مقدمة لبرنامجه السياسي ويتلوه البرنامج.

ومما ثبت بالتجارب لهذا العهد أن أفضل شكل من أشكال الحكومة هو الدستوري، وأفضل أشكال الدستوري هو اللامركزية خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق، فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الأحوال، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان.

ثبت ذلك بالتجارب كما ثبت أن اللامركزية هي أفضل مربّ لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتي الذي هو خير وسيلة لترقّي الأمم، لأنها أي اللامركزية تأبى بطبيعتها أن تكون تبعة الحكم مقصورة على أفراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل إلى كل ناحية من أنحاء المملكة فيكونوا كالمحرك في آلة كبيرة جداً إذا أصابه عطب أو ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لأي جزء من هذه الأجزاء قوة ذاتية يعمل بها بنفسه ودون أن يكون مسؤولاً عن نتيجة وقوفه عن العمل.

ومن البديهي أن الشعب غير المسؤول عن أي خطأ يصدر عن حكومته لا يشعر كل فرد منه بالتبعة فلا يهتم بنتائج خطأ الحكومة إلّا بعد الوقوع فيه. ذلك لأنه مسير بإرادة غيره، لا سلطة له حتى ولا على نفسه، لأنها محكوم عليها أن تسير في السبيل الذي يريده غيره وإن خالف رغبته ومصلحته وهواه.

فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن، وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية الخلق المقوت ـ حياة الاعتماد على غير النفس، وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة، وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل وفي وقت قصير، والعكس بالعكس.

مثاله ما نراه لهذا العهد من الفرق بين السلطنة العثمانية التي تحكم بالمركزية وبين سويسرا التي تحكم باللامركزية. ففي هذه يرى من آثار العمران والمدنية والحياة العالية الصحيحة والوفاق الشامل لكل العناصر التي تقطن هذه المملكة الصغيرة ما لا يُرى مثله حتى في كثير من الممالك المتمدنة الراقية بفضل توزيع السلطة على أقسامها الثلاثة العنصرية واطلاق حرية التعليم لكل عنصر من العناصر الثلاثة المؤلفة للأمة السويسرية بلسانه وبما يوافق رغباته واطلاق حرية العمل ولكل ولاية منها فيما ينمي عمرانها ويرقي سكانها على الوجه الذي يناسب مركزهم الاقتصادي والاجتماعي بحيث صار يضرب المثل بترقي هذه البلاد الجميلة وترقي أهلها البالغين منتهى ما يريده قوم من السعادة والرفاه.

أما السلطنة العثمانية التي تحكم بالمركزية فعلى نقيض ذلك إذ نرى المعارف فيها منحطة والعمران قليلاً في بعض جهاتها مفقوداً في بعض آخر، ووسائل الترقي الصحيح معدومة البتة، لأن حياة الاتكال على المركز في كل شيء مستحوذة على الشعوب العثمانية كافة، والمركز مقيد لكل ولاية بقيود تمنعها عن الحركة نحو الاصلاح المطلوب إلاّ ببطء ربما لا يوافق الحال والحاجة في الغالب.

والمثال على ذلك قوانين التعليم مثلاً فإنها على نقصها وعدم وفائها بالحاجة تحتم أن يكون التعليم في عدة أقطار بغير لسان أهلها وعلى برنامج واحد غير مراعى فيه حاجة كل ولاية واستعداد أهلها، ثم أن المركز لا يعطي المال اللازم للتعليم لكل ولاية إلاّ بقدر محدود هو دون الحاجة فينشأ عن هذا وذاك نقص في التعليم وضعف في العلم وتضييق على الراغبين فيه فتعم الجهالة وتحرم البلاد من المعارف العالية التي هي أهم أسباب الترقي والحياة والسؤدد في كل أمة من الأمم الحية المتمدنة لهذا العهد.

وعلى هذا فقس سائر الأعمال النافعة التي يتوفر بها العمران في الولايات العثمانية فإنها لتوقف صدورها على المركز بطيئة ضعيفة بل تكاد بعض الولايات تحرم منها البتة.

زد على ذلك أننا نرى هذه الحكومة المركزية قد أعجزها تنائي أطراف المملكة واختلاف لغات وأجناس ومشارب أهلها عن أن تنفذ قوانينها في كل ولاياتها فإن كثيراً من الأقطار العثمانية ليس فيها للدولة ديوان إداري ولا محكمة ولا مدرسة ولا ثكنة ولا قلعة ولا حصن، ومنها مالا يؤخذ منه الجنود، فبعض هذه الاقطار عالة في حمايته من المغيرين عليه على الولايات الأخرى، عملاً بمبدأ الاتكالية الممقوت، واعتماداً على المركز. ولذا نرى هذه الحكومة المركزية لا تقدر على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية إذا هاجمها عدو أجنبي كما ظهر ذلك في مسألة طرابلس الغرب ومثلها كثير، ناهيك بتوالي الفتن والثورات في أنحاء السلطنة وعجزها عن اخمادها وبالأحرى عجزها عن تلافيها قبل ظهورها بما يمنع حدوثها أو امتدادها حتى أن قطراً من الأقطار وهو اليمن لا يزال مع الدولة في حرب مستمرة منذ دخل أول عثماني فيه إلى عهد قريب.

وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء لديه وهو النفس ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزاً في وطنه أميناً من تسلط المغيرين عليه.

إذا تمهد هذا فقد علمنا أن المركزية أصبحت في مثل هذا العصر عصر التنازع الشديد في ميدان الحياة لا تصلح لترقي الأمة العثمانية المرغوب، ولا تضمن لها الحياة السياسية والاجتماعية ولا البقاء لا سيما إذا أضفنا إلى هذا حاجة الشعوب العثمانية

إلى الراحة من الغوائل السياسية والفتن الداخلية، التي توالت على الدولة في العهدين عهد الحكومة المطلقة وعهد الحكومة الدستورية، وأصيبت بسببها الدولة بغائلة الحرب البلقانية، وانفكاك أعز ولاياتها عن جسم العثمانية، بفساد سياسة المركزية، وسياسة مزج العناصر التي ذهب إليها فريق من المتهوسين بالسيادة فجروا على المملكة من المصائب ما لا يحتاج إلى برهان، بعد الذي حدث وكان.

ولكي تأمن الأمة العثمانية على حياتها السياسية في المستقبل وعلى سلامة الدولة من غوائل الفتن والمشاغبات الداخلية والصدمات الخارجية التي يسببها عدم رضاء العناصر العثمانية والتفافها باخلاص حول النقطة الجامعة وهي العرش العثماني الرفيع الذي أصبح وجود الأمة السياسي لازماً لوجوده مرتبطاً به ـ لكي تأمن الأمة على ذلك صار من المحتم على كل عثماني صادق الوطنية النظر في الأسباب التي تتماسك بها أعضاء هذا الجسم الذي تفكك بقوتي الجذب والدفع بين المركز والأطراف ودخله الوهن والضعف المؤديان إلى الانحلال. وهذا ما دعا فريقا من العثمانيين إلى تأليف حزب اللامركزية الادارية بعد البحث والتروي الكثيرين فيما يضمن سلامة هذه المملكة وتضام كلمة شعوبها واتحادهم على العمل الأنفع لعمران البلاد وسعادتها وقوة الدولة وبقائها.

فهذا الحزب يعرض على أنظار جمهور العثمانيين من اخوانه في الجامعة والوطنية برنامجه ليكون موضع النظر والبحث من سائر العثمانيين وهو يرجو أن يجد منهم أنصاراً كثيرين وأعواناً غيورين على تنفيذ قواعد اللامركزية الادارية في الأقطار العثمانية والله الموفق والمعين.

﴿برنامج حزب اللامركزية الادارية العثماني﴾

(المادة الأولى) الدولة العلية العثمانية دولة دستورية نيابية. وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة لا ينفك عنها بحال من الأحوال وإنما تبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الادارية والسلطان الأعظم هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة.

(المادة الثانية) قاضي القضاة يعين القضاة الشرعيين والوالي يعين سائر الموظفين بعد اختيار مجلس الادارة لهم (وفاقاً للمادة السابعة) ولا يجوز عزل موظف إلاّ بحكم من مجلس تأديب. ومن عزل لا يجوز استخدامه ولا يعطى معاش معزولية.

(المادة الثالثة) يوضع نظام خاص لترقية عمال الحكومة وتأديبهم وتقاعدهم وما يتعلق بذلك.

(المادة الرابعة) يكون في مركز كل ولاية مجلس عمومي ومجلس إداري ومجلس معارف ومجلس أوقاف.

(المادة الخامسة) جميع قرارات المجلس العمومي تكون نافذة.

(المادة السادسة) من حقوق المجلس العمومي للولاية المراقبة على حكومتها والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الولاية وأمور الأمن العام والمعارف والنافعة والأوقاف والبلدية وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها. وأما ما كان من أمور النافعة يتعلق من بعض الوجوه بالأمور العسكرية أو السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعه بعد إبداء رأيه فيه إلى العاصمة.

(المادة السابعة) من حقوق مجلس إدارة الولاية وضع ميزانيتها وانتخاب جميع موظفيها.

(المادة الثامنة) من حقوق مجلس معارف الولاية وضع برنامج التعليم والنظر في جميع شؤونها ووضع ميزانية خاصة لها يراعي فيها حصة المعارف التي تضاف على الاعشار والويركو وما يقرره المجلس العمومي من الضرائب لها ومالها من الأملاك والأوقاف.

(المادة التاسعة) من حقوق مجلس أوقاف الولاية وضع ميزانية خاصة لها والنظر في جميع شؤونها فما كان منها له شروط تجب مراعاتها يكون العمل فيها بحسب شروطه وما كان منها غير ذلك يصرف فاضل ريعه على إقامة الشعائر ثم على التعليم الاسلامي.

(المادة العاشرة) جميع أعضاء هذه المجالس تكون بالانتخاب إلاّ مجلس الادارة فإن نصف أعضائه ينتخبهم الشعب والنصف الأخر من رؤساء المصالح.

(المادة الحادية عشرة) تعدل طريقة الانتخاب لهذه المجالس ولمجلس المبعوثين وللمجالس البلدية بحيث تكون حرة وممثلة لجميع عناصر الشعب.

(المادة الثانية عشرة) ما جرى عليه العرف في بعض البلاد والأقاليم التي لا تنفذ فيها قوانين الحكومة وأحكامها يبقي على ما كان عليه الآن. ويراعى في تغيير الادارة في كل بلاد رضاء أهلها به.

(المادة الثالثة عشرة) ينظر الحزب في قانون تعديل الأراضي على الوجه الذي ينمي الثروة العامة وفي تحضير القبائل البدوية لأجل تنمية الثروة وترقية الأمة.

(المادة الرابعة عشرة) يكون في كل ولاية لغتان رسميتان التركية واللغة المحلية.

(المادة الخامسة عشرة) يجب تعميم التعليم في كل ولاية بلغة أهلها.

(المادة السادسة عشرة) أهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ويكون عسكرها على قدم الاستعداد للدفاع عنها زمن السلم وأما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بنظارة الحربية وحينئذٍ يجب على المجلس العمومي أن يتخذ الوسائل للدفاع عن الولاية.

بيـانٌ لا بـدَّ منـه
[قصّة تأليف حزب اللامركزيّة]
كما رواها الدكتور شميّل

على صفحات الأهرام: ١٣ مارس (آذار) ١٩١٣.

استأذن سعادة الفاضل اسمعيل باشا أباضة ان يعيرني هذا العنوان لاستعماله في مقام لا يقوم مقامه فيه سواه.

على اثرِ حرب إيطاليا للدولة بشأن طرابلسِ الغرب وبعد نشوب الحرب البلقانية ووصول البلغار ركضاً إلى ابواب الآستانة في برهة أيام، ذعِر المسلمون السوريون الحريصون على بقاء دولتهم وقد رأوا حكومة الاستانة نفسها تتهيأ للرحيل إلى الداخلية وخافوا ان يكون القضاء التام على هذا المُلْك قد حان وما دروا ان الدول الكبرى لا تسمح للحلفاء بتجاوز حدود معلومة ـ والنعي بالباطل لا ينفع بل هذه هي حقيقة الحال ـ فاجتمع نفرٌ منهم واخذوا يتهامسون في ما يفعلون، وأطلعوا على امرهم بعض اخوانهم من السوريين المسيحيين ومن جملتهم أنا، لا هذا الحقير ـ كما يقال عادة ـ بل أنا.

وخافوا ان السياسة لا تسمح لهم بالإعلان عن انفسهم لعرض الفكرة على السوريين عموماً في جلسة عموميّة ـ وهؤلاء لو دُعوا يومئذ لما حضر منهم إلاّ نفرٌ يُعَدّ على الاصابع ـ ففضلوا ان يضعوا المشروع وحدهم اولاً مستترين لئلاّ يُحبط قبل ان يختمر. ثم يعرضونه علانية على الجمهور متى رأوا الفرصة مناسبة. وخابروا الموثوق بهم في سورية بالكتابات الخصوصيّة، وإذا كنت أصرّح اليوم هذا التصريح فلأني أعدّ عملهم نبيلاً: غرَضاً وغاية وجوهراً وصورة. ولما كنت أوافقهم على حذرهم مع اشتهاري بعدم التكتم في شيء لأن النتيجة ليست مقتصرة عليَّ وحدي حتى لا أعبأ بها إذا بان هنالك محذور، بل هي عمل يهمّ الجمهور تجب في سبيله كل تضحية لاسيما وان الناس في كل امورهم لا يُقادون بسهولة لأي شيء غير مألوف لهم ولو انه خروج من الظلمة الدامسة إلى النور الساطع.

فانضممت اليهم مسروراً جداً من هذه الحياة الجديدة التي طالما بثثتها بين من هم حولي من يوم كان الذي يطاولونني اليوم ويتظاهرون بحريّة هي شر من قيود ومختبر آراء هو أصعب هضماً من فطيرٍ، موتى لا حراك لهم. انضممت اليهم كما صرّحت لهم. للاشتراك معهم في روح الدعوة عضواً بسيطاً غير مقيّد بقيدٍ صوري، حافظاً لنفسي كل حريّة في القول والعمل والنشر عسى ان تدبّ الحياة الصحيحة وفي نفوس هذه الأم فلا تبقى مداساً للأرجل. وهل تداس رقابٌ تأبى ان تُداس؟ وعسى ان تعمر الأرض الخربة التي بلغ زعيقها عنان السماء من تخريب المخربين لمن يسمعون.

فَعَل اصحابنا ذلك مُنقادين لحكمة التستّر تارة ولضرورة التكتّم اخرى. وما دروا ان الحوادث ستسير بنا متسارعة طبقا لناموس تجمّع القوى فتجعل الممتنع ممكناً والجائز واجباً في القريب العاجل. كما حصل في مدن سورية حيث اشتركت الهيئة الحاكمة مع الهيئة المحكومة وألّفوا اللجان الاصلاحيّة كلجنة بيروت التي ابتدأت من أولها قانونيّة تمثّل كل الطوائف وكلّهم ينادون باللامركزيّة: الصورة الاصلاحية الوحيدة التي تتكفل بشيء من الاصلاح المطلوب مع حفظ الصلة بالمركز الذي أظهروا في كل عملهم حتى الساعة حرصهم عليه اكثر من حرصه عليهم.

حينئذٍ رأت لجنة مصر وقد فرغت من وضع مشروعها مبدئياً وزال من أمامها كل محذور ومحظور ان تذيعه للعموم عسى ان يصادق عليه الموافقون وينصره الناصرون. ولم يتيسّر اجتماعهم في نادٍ عام لدعوة عامّة. ففضلوا ان يكون خاصّاً وبدعوة خاصّة تعاد مراراً وتكراراً حتى يطلع عليه الأكثرون. ووزّعوا بياناً لا يعيبه إلاّ كل ذي عيب.

واما قانون الحزب فما كان ابداً مرمى الكثيرين منا وان تذرعنا به للغرض الأكبر لان كل قانون محطّ النظر والتعبير بحسب ظروف الزمان والمكان. وشرّفوني بان اختاروا ان يكون الاجتماع في بيتي على ضيقه ان يسع مكارم القوم. فتخلّف البعض وشجرف البعض الآخر وأنا شاكر للجميع: الراضي والغاضب والموافق والمعارض على تشريفهم لي بالحضور أو الاعتذار، والذين حضروا والاعتراض والتمارض وحتى الذين انثنوا متطفلين لنقل فصول الهزل والهذر. ولقد رجوت الذين قصدوا للطعن في الشخصيات ان يتحاشوا ـ من فضلهم وكرمهم ـ ذلك في بيتي، فما قبلت دعوة الناس عندي لكي يهزئهم الآخرون على مسمع ومشهد مني. كأنّ هناك شبهة في النفوس وقعت لهم في جمعيتنا كما اتّضح لي من تصريحات الجرائد بعد ذلك وعلى علمي ان جمعيتنا لا تخدم اغراضنا خاصّة. ولو شاءت لما رأت مني إلاّ الخصم الذي لا يلين. فكيف اذا كانت أغراض اشخاص ملّوثين. ثم انفضت الجلسة والناس أقرب إلى الوفاق منهم إلى الخلاف.

والظاهر ان الغاية لم تبرّر الواسطة عند البعض ممّن حضروا أو لم يحضروا. والواسطة هنا ليست جملة فلم يرق لها تأليف الحزب على هذه الصورة ولو انهم وقفوا على العذر ولم ينفروا من الغاية. ولكن حيثيتهم ولو لم تهمل قصداً وقفت حائلاً. ومن الناس من اعترض للاعتراض. ومرضاة هذا، وان كانت صعبة، ليست مستحيلة وهو اول الناس للاندفاع مع التيار الجاري. ومنهم من اعترض اعتراض الحكيم الذي يظنّ دائماً انه يأتي حصافة في الرأي اذ يقول لك: «وأريد ان أعرف من قبل إلى أين انت ذاهب بي». وهو اعتراض معقول ووجيه جداً ولا يجوز إلاّ اذا كان الشرّ الموجود فيه المفترض محتملاً لا فطريّاً، كأن يكون المعترض بعيداً عن مركز الشرّ وخانته الذاكرة أو خفّ عنه الحمل. بل محتملاً بالفعل كما لو كان في قلب المملكة العثمانية حيث يحسّ بالعصا تقرع ظهره وحيث الأرض صارت خراباً وحيث صار الناس من شدّة الظلم في الندرة بالنسبة الى اتساع الأراضي كالكبريت الأحمر أو النحاس، لولا انهم فحم وأقل منه منابع. وما مثل هؤلاء حينئذ إلاّ مثل رجل غرق في . . . بحر فرأيته يعالج الأمواج فمددت يدك اليه لتنشله. فما قولك لو قال لك: «قل لي قبل إلى اين تذهب بي». فكم تمسك نفسك حينئذ لئلا ترفع رجلك وترفسه وتقول له: «إذهب الى القعر».

ومن الجرائد التي اعترضت على المشروع ويُعنى بكلامها واطّلعتُ عليها جريدة «الوطن» ولم اطلع على مقالها إلاّ مترجماً في جريدة «جرنال لاكاير» الفرنساوية. واعتراضها ان الإدارة في يد العرب والسوريين تسوء اكثر منها في يد الأتراك. وفضل الحكم التركي على كل صورة ادارية استقلاليّة اخرى إلاّ الاجنبيّة. وقد جاوبته على ذلك في نفس الجريدة الفرنساوية موافقاً على ان الثقة بالأمم الشرقية ضعيفة جداً كما صرّحت انا نفسي بذلك مراراً واعتبرت ان مصيرهم لأجل ذلك إلى الاجنبي لا محالة: سنّة العمران من أول العالم إلى اليوم. واما كون الحكم التركي يفضل على سائر صور الحكم الاخرى خوفاً من الوقوع في الأردأ، فهذا ما لا نسلّم له به. وهل اردأ اليوم من الحالة التي أوصلنا اليها هذا الحكم. وبازاء هذه الحال، ماذا نعمل؟ هل نقف مكتوفي اليدين؟ وهذا كان سهلاً لما كانت الأمّة لا تشعر. واما اليوم فلم يعد ذلك بالممكن.

إقلعوا الأشواك من بينكم

[الأهرام: ٥ نيسان (ابريل) ١٩١٣]

لقد آن لنا ان نسمّي الأشياء بأسمائها فنفنّدها قصداً ونقرعها قرعاً ولا ندور حولها فقط لئلا نعمى عنها ونضل . . . الآخرين. وآن لنا ان نستخدم قوة مميّزة إن كانت لنا هذه القوة في عقلنا. لأن افعالنا حتى الساعة تدل على ان هذه القوة تكاد تكون معدومة فينا. نرى الحسن عند الغير فلا تقبّحه ونستحسن القبيح فينا. ونرى جمال العمار عند سوانا فنتغنى بخرابنا. نرى ان الأمم الراقية لم تبلغ مبلغها اليوم إلاّ بسلب السلطة من ايدي حكامها لصرف قوتها في مصلحتها، فنضرب نحن على أيدي الذين يقولون ذلك لنا منا ونسفههم. فإذا آنسنا من الأمّة حركة صالحة تعاونا مع حكومتنا على مدّها بالقوة تارة وبتزيين الباطل اخرى لتستعين علينا بالقوم الجهلاء. نرى ان اوروبا المسيحيّة لم ترتق إلاّ بعد ان سلبت القوة من أيدي دعاة الذين وركنت الدين في زاويةٍ وسارت في دنياها بمعزل عنه وعنهم. فنقوم نحن ونحمل علم الدين الطويل العريض ونطلع به إلى قارعة الطريق ونزْحم به المارّة. نرى الجار في اوروبا الراقية يقيم السنين مع جاره لا يدري أيهودي هو أم مسيحي، كاثوليكي أم انجيلي أم هو قرد درويني ولا يسأله عن دينه. ونحن نقيم مع جارنا ونوليه ظهرنا لأنه مسلم أو يهودي أو مسيحي كاثوليكي أو انجيلي أو ارثوذكسي أو عفريت أزرق ونسأل عن كل حركة يأتيها من هذا القبيل. نقرأ الألوف من جرائد اوروبا ولا نجد لاسم الدين فيها ذكراً. ونحن نقرأ عموداً من اية جريدة من جرائدنا الراقية أو السافلة فتتلعثم الستنا من تكرار اسم الإسلام والمسلمين والمسيحية والمسيحيين. نرى أوروبا القوية تنازعنا البقاء لمصالح دنيويّة وتتنازع بعضها مع بعض وبعضها ينصرنا لأجل ذلك لا حبّاً بسواد عيوننا بل لمصلحته الخاصة قبل كل شيء، فنقوم نملأ العالم صراخاً ونقول: حرب الصليب للهلال لا حرب القوة للضعف والعلم للجهل. وإذا ردّدت أمم أوروبا المتسلّطة هذه اللفظة مرّةً ردّدناها نحن الف مرّة. نلتفت إلى مدارسهم فنجدها ذات ابنية نظيفة ونجدهم في اجسام صحيحة كأنها الجنان وكأنهم فيها الملائكة الاطهار. فلا ينالنا أدنى عضاضة من رؤية معاهدنا القذرة والطلبة فيها ينسحبون باذيال الخيبة وابنيتها أولى بها المستشفيات. نرى أمم اوروبا سائرة بحكوماتها وهي تنتقدها وتنتقد نفسها سعياً وراء الأصلح ـ لأن الشأو الذي بلغته أوروبا حتى الساعة ليس بالشيء العظيم فهي لا تزال ملآنة سخافة ولكنه عظيم جداً بالنسبة الينا والى امثالنا ـ ثم نرى حكومتنا سائرة بنا نزولاً الى الحضيض ونحن مع ذلك ننصرها على انفسنا لنؤيدها في ضلالها. وإذا قام واحد منا ينبّهنا الى هذه المعايب التي يراها الأعمى ويلمسها المسلول قمنا عليه وأخذنا نبحث عن طيّات ضميره لعلّنا نستطيع ان نجرح برهانه المحسوس بمزاعمنا الموهومة ونصرف الجمهور عن التروّي بكلامه الصريح وإلاّ عمدنا إلى التقبيح ولو هزّأنا انفسنا ولم نطله بنأمة.

نرى كل ذلك ولكننا نراه كأننا لا نبصر ولا تميّز. كلاّ، نحن نبصر ونميّز. ولكن الاغراض امراض. والاخلاق لا تتغير بنتف من العلم. والعلم الناقص شرّ من الجهل. والقلم في يد الأحمق المذبذب شرّ من العصا. فتبّاً لحَمَلَة أقلام لا يرهفونها إلاّ لينصروا الضلال على الهدى والظالم على المظلوم والتوحّش على المدنيّة، والجهل على العلم، سعياً وراء لقمةٍ يغمسونها بدم الأمّة ويحموضونها بجهلها. ألاَ كانت عليهم طعاماً زقوماً.

الأمّة التي لا ترى عيوبها ولا تريد ان تراها ولا تُسَرّ إلاّ بتزيين الباطل، والتي تختصم الذي ينبّهها إلى ذلك ـ لا يُرجى نهوضها وبَشرها بسوء المنقلب.

على ان الحركة الصالحة التي أراها في سورية عموماً وفي مدينة بيروت خاصّة تدلّنا على ان النهضة الحقيقيّة قد سرت في نفوس عامّة السوريين وتبشرنا بشارة صحيحة بقرب انقراض رهط المضلّلين. فقد اطلعت في هذه الدقيقة على مسلك اللجنة الإصلاحية في بيروت مع الحكومة وضدّ انصار الخراب.

كبيرة. فسلام عليكم ايها القوم العقلاء. والف سلام على المصلحين. ولماذا الأحكام العرنية هناك، ايتها الحكومة الرشيدة؟ ألتضربي بها أصحاب جرائد التوفيق ولتفسحي المكان لجرائد التفريق؟ أم هو الله قسّى قلب فرعون؟

الدكتور شبلي شميّل

اين المبعوثان؟

المقطم ١٩١٣/٣/٢٥

أين مجلس المبعوثان العثماني اليوم؟ ـ لقد طال عليه المطال وهو يستريح من عناء الاشغال. وأبناء الأمة يقتلون خرقاً والأموال تبدد جزافاً لأنّا لم نشأ أن نعطي الاصلاح المفروض علينا لئلا تضر رائحة البخور بنا ففضلنا أن نتشامخ علواً ولو وطئنا بأخمصنا ظهور أولادنا حتى دققنا الأرض بذقونهم وأوردناهم موارد الخوف وأزهقنا منهم الأرواح وأتممنا على الأرض خرابها ـ فإن كل ذلك لا يخرج عن الخطة التي جرينا عليها حتى اليوم، و «تغيير العوائد صعب».

بل أين هذه الأمة التي يمثلها هذا المجلس والتي هي ملاذه الحصين إذا تلاعبت يد الأغراض ولعبت به أيدي سبأ وشتته في الأقطار وتركته هباء منثوراً كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

هل حقّ على هذا المجلس اليوم ما حقّ عليه في المرة الأولى فطُوي طياً لا يعقبه نشر حتى يتاح لممثلين جدد يقفون على مسرح هذه المملكة التعسة ويمثلون لنا الدور الثالث من مأساة هذه الأمة العثمانية المسكينة.

بل هل حقّ على هذه الأمة أن لا تؤد وهي حية وتعمى وهي مبصرة وتخرس وهي ناطقة ليغشاها ذباب الموت وتعيش على رفاتها حشرات القبور.

وإلّا فأين مبعوثاتها اليوم والمملكة على شفا جرف هاوٍ. شبت الحرب وليس من استعداد حتى ولو كان. أليست نفوس الذين ندفعهم إلى المجازر تساوي نفوس الذين يغررون بهم ويدفعونهم إلى الموت في نظر أمهاتهم. أليسوا أنفع منهم للأرض التي تتطلب سلامة أبدانهم وصحة أيديهم وكثرة عددهم؟ بينا الذين يسوقونهم سوق الأغنام لتجرّع الموت الزؤام يمرحون في النعم آمنين. وكان في الامكان إتقاء هذه الأهوال لو لم تقف سداً في وجه الاصلاح الذي فرضناه على أنفسنا بالمواثيق. وما المواثيق عندنا إلّا لفظة ينطق بها اللسان ولا تصل منّا إلى الأذن. وغطّة قلم على قرطاس لا تبصرها منا العين.

بل أين كان المبعوثان يوم نشبت هذه الحرب لا ليوفر على تييرس العثمانيين ذرف الدموع على ما وصلت إليه الدولة في أيامه وهو وأقرانه المسؤولون عن هذه الدموع وحدهم. بل ليوفر دموعاً سخية أثمن وأغلى تذرفها أمهات وزوجات وأطفال فقدوا كل معين بفقد عمادهم.

بل أين كان المبعوثان ليمنع تجديد الحرب بعدما كادت تضع أوزارها وكاد الصلح يعقد ويوفر دموعاً جديدة وللأرض أيادي أخرى عاملة وعلى الأمة صلحاً ليس بأقل غضاضة من ذاك إن لم يكن أكثر.

قام كاتب مجيد في احدى الصحف الافرنجية يصب حماسته النارية على معتوه لاغتياله ملكاً أنا من أشد الأسفين عليه ويفرض عقاباً ليس للإنسان سواه لاطفاء غضبه المقدس. ولكن كم نجد من أمثال هذا الكاتب الذين تدفعهم حماستهم لإظهار غضبهم المقدس ضد من يغتالون شعوباً لمطامعهم الخاصة وليس لهؤلاء الشعوب ما يتقون به هذا الاغتيال مع أن الملوك مهما كانوا يستطيعون اتقاء الاغتيال لو شاؤوا.

بل أين كان مجلس المبعوثان ليقي البلاد من صفقات خاسرة وغرامات فادحة تبتز منها وتلقى عليها والأمة كالبقرة العجفاء لا شحم ولا لحم بل جلد على عظم. لولا أن المشترين لا يقدمون إلاّ حاذرين لئلا تكون أعمالنا غير مشروعة. ونحن يشبه أن نكون دولة دستورية اليوم. والذين يقدمون مع ذلك من الأجانب يعتمدون على سيف دولتهم لأن الحق ما زال للقوة.

أين كان المبعوثان في فترة كل هذه الأهوال؟ كان في خبر كان. والأمة من ورائه ـ لولا صيحة صغيرة ـ راضية كأنها تقول ليس في الإمكان أبدع مما كان.

الدكتور شبلي شميل

أصحّ الصحيح

وانقطع الرجاء؟

المقطم ١٩١٣/٤/٢١

من آيات الدهر الكبرى وعظاته الجلّى التي تُسَطَّر بماء الأماق بكاء على ماء الوجود ويجفف مدادها بزفير نار الأنفاس نعياً لدور الملوك. إنه في هذا القرن، القرن العشرين، بعد نحو قرن وربع قرن من مخاطبة «ميرابو» للشعب بقوله: «ليس الكبار كباراً إلاّ لسجودنا لهم»، ومخاطبته لرسول الملك بقوله: «نحن مجتمعون هنا بإرادة الشعب ولا ننفضّ إلاّ بقوة السيف» ـ وفي هذا العصر. عصر العلم الذي استنارت به أقصى زوايا العقول المظلمة، وعصر الاختراعات التي حصّلت الداني وأدنت القاصي، وعصر معرفة الحقوق التي رفعت الحيف وعمرت الأرض ـ في هذا العصر، عصر سيادة الأمم وتقلص سيادة الملوك ـ وفي هذه السنة، سنة ١٩١٣ التي أنطقت الجماد بعبرها الصادعة. وأسمعت الخافقين صوتاً صارخاً من معالم الحضارة: ألا مهدوا طريق العمار بنشر العلم ورفع الضغط عن العقول وإنزال أرباب العروش إلى مستوى البشر حتى يكون التفاضل بينهم بالعقل والأعمال الصالحة فقط ـ في هذا العصر وفي هذه السنة اسمعوا كيف يخاطب وزير الدولة العثمانية وممثل حكومتها المركزية ونائب سلطانها. كأنه الجامع الكل في واحد.

اسمعوا شوكت باشا، الصدر الأعظم، كيف يخاطب الأمة العثمانية في تلغرافه المنشور في الجرائد والموجّه إلى أعضاء جمعية الاصلاح البيروتية وما فيها إلاّ كل وجيه وصاحب مصالح مهمة جداً في البلاد ـ لا أعلم أن لشوكت نظيرها فيها ـ ومن ورائهم جمهور كبير من الأمة ممن يحبون وطنعم على القرب والبعد حبهم لحياتهم ويحرصون على اعماره حرصهم على صحتهم وحرص سواهم على أثرتهم ـ يخاطبهم بلغة لو رجعنا إلى الأجيال الماضية لربما وجدنا مثلها أو ما يقترب منها في قاموس نيرون وتيمورلنك وجنكيز خان وأسياد الماضي لمسوديهم الزنوج ـ يخاطبهم بلهجة يأبى حكام أحقر البلاد الراقية أن يخاطبوا بها أوباش قومهم. ـ بل انظر إلى الأمة العثمانية كيف قابلت هذا الخطاب كأنه لديها شيء مألوف ولمثلها موصوف. ـ بل انظر إلى تعنيف بعض الجرائد المصرية الراتع أصحابها اليوم في قصور الراحة للعثمانيين الراسفين في

قيود والبطر. ثم قل هل يُعد بطر اولئك الصحفيين الذين اقلقوا الخافقين لينكروا الاصلاح الحاضر كأنهم ينشدون الماضي ويذكرون خنوع العثمانيين الذين أصبحوا به كما في قول الشاعر:

ولا يقيم على ضيم ألمَّ به إلّا الأذلّان عير الحيّ والوتد
هذا الخسف مربوط برمّته وذا يشج فلا يرثي له أحد

قلّ هل بعد ذلك البَطَر وهذا الاحتقار من أمل لنا اليوم بالاصلاح؟؟

الدكتور شبلي شميل

صدى المستشفى السوري

(٤)

[الأهرام. ٢ يوليو - تموز - ١٩١٣]

اذا استوعب القارىء ما تقدّم من البسط لا يبقى عنده أدنى ريب من عظم منفعة المستشفيات لا للمريض فقط بل للمجتمع ايضاً، بالنظر الى حصر الأمراض والوقاية منها، ويُستغرب كيف ان الجمهور لا يعيرها حقها من الالتفات حتى في أرقى المعمورة. وان كان الفرق فيها اليوم بين الشرق والغرب عظيماً جدّاً لأن المصلحة فيها متوفرة للجميع على حدّ سواء، والمصلحة مقدّمة على شيء. فلا رحمة ولا شفقة ولا حنان ولا ولا من كل ما يؤثر في العواطق ويحثّ على عمل الخير يستطيع ان يتقدّمها وهي - أي المصلحة - إذا فهمت جيّداً يُستغنى معها عن كل استحثاث آخر. لأن الفائدة الخاصة لا تتوفر للناس مجتمعين إلّا من وراء الفائدة العامّة. وإذا كان اكثر الناس حتى الساعة لا ينمّون في اعمالهم ما يدل على هذا الغرض فلأنّهم حتى الآن لا يفهمون ذلك حقّ الفهم. ولما ارتقى الاجتماع اتّضح له ذلك اكثر وعمل الناس به على قدر علمهم وقد ما رسخ منه في طبائعهم. وسيأتي يوم تقدس المصلحة فيه تقديسا دون كل شيء آخر ولا يخاطب الناس الّا بها في كل امورهم، لا كما نرى اليوم بكل شبهات المذمّة لانها اليوم لا تزال في الغالب ضد المصلحة العامة ولذلك هي ضد المصلحة نفسها. ولقد تغيّرت احوال المجتمع بالنظر إلى ذلك كثيراً اليوم فكثر الاهتمام بأمر العمّال كما تقدّم. وكثرت المدارس والملاجيء والمستشفيات والجمعيّات الخيريّة في المجامع الراقية وان كانوا لا يزالون حتى الساعة يلبسونها معنى الاحسان وغير ذلك مما يدّل على الفضل الواجب المفروض على المجموع كما كان يجب، بدليل ارتداد فائدتها الى المجموع كلّه، كما تدل عليه حالنا في الماضي البعيد والحاضر القريب.

* * *

ولما كنا قد استوفينا في ما مرَّ هذا الشرح النظري فلنتقدّم إلى العمل ونتساءل: لماذا السوريون ليس لهم يد في المشروعات العموميّة القوميّة كسائر الجاكيات، وخصوصاً لماذا ليس لهم مستشفى، وكيف يمكن الوصول إلى هذا الغرض؟

السوريون في القطر المصري ليسوا ـ كما يُقال في اللغات الاجنبيّة ـ كميّة مهملة؛ لا علم ولا ثروة ولا وجاهة ـ وبقولنا السوريين نعني المسيحيين منهم لأنهم هم المعوّل عليهم في هذه البلاد. فليس هنا هو السبب في عدم إقدامهم على المشروعات العموميّة. . وليس لانهم ممن لا يحبّون الفخر والظهور. . . [انهم أسرى نزعتهم الفرديّة ويتحاشون] هذا الظهور ولو ان نفعه عظيم. وهم ككل الشرقيين لا يقدمون على الأعمال العموميّة التي يلزم فيها تضافر وتناصر كالمدارس والمستشفيات لأنهم وإن فهموا فائدتها في الظاهر، فقد لا تظهر لهم منها مصلحة كل واحد منهم الخاصّة.

أضف إلى هذه الأسباب العامّة اسباباً خاصّة سياسيّة وقومية واجتماعية. فليس لهم كالفرنسيين مثلاً، جامعة سياسيّة يجتمعون حولها لأنهم حتى الساعة يُعتبرون كالغرباء في وطنهم الأصلي. ولا قومية لهم كاليهود تجعلهم يلتفون حولها بدواع خاصّة. فهم وان كانوا مسيحيين فبينهم من دواعي التفريق المذهبي والطائفي ما ليس يوجد في سواهم. والعداء بين المذاهب كان يبلغ منهم في الماضي ما لا يبلغه اختلاف الأديان. والتباين الناشيء عن هذا الاختلاف في المصلحة لا يزال فيهم حتى الساعة يفصل بين الأعمال العموميّة. ولا اظنّ انهم بلغوا في المسائل الاجتماعية مبلغ من يعتبرون ان الأوطان في الدنيا مشتركة حتى توزع اعمالهم فيها على السواء. واضطراب مركزهم السياسي كما تقدّم كان يحملهم على الالتجاء إلى الحمايات الاجنبيّة صيانة لمصالحهم، وكثيراً ما كان يقطعهم ذلك عن قومهم ويباعد فيما بينهم. فهذه اسباب جوهريّة كانت تجعل تعاضدهم في العموميات ضعيفاً جدّاً.

ولذلك كان السوري حتى الساعة مع ذكائه الذي لا ينكره عليه أحد عظيماً جداً كفرد وشيئاً لا يذكر كمجموع. فهم اشبه شيء بالكريات التائهة في جسم المجتمعات. ولا يلامون على ذلك خصوصاً في الماضي لأن السياسة الخرقاء التي عاشوا فيها الأجيال هي التي أوجدتهم في هذا المركز. ولولا انهم كانوا في كل اطوارهم ميّالين إلى العلم والاقتباس منه بقدر ما يمكن، لضاعوا بالمرّة ولما بقيت لهم شبه قوميّة كما هي اليوم.

على ان الاحوال العموميّة قد تغيّرت جدّاً عمّا كانت في الماضي القريب بفضل انتشار المدنيّة الغربيّة واقتباس الكثيرين منهم عنها العلم والاختبار. وقد أخذت الجامعة السياسيّة تتأسس بينهم على قواعد واهنة بانتشار العلم بين مواطنيهم الآخرين وعلى هؤلاء يتوقف ان يروها فيهم قوية جداً ونافعة لهم ولسواهم. وإلاّ فالسوريون لا يصبرون اليوم على الخديعة وفي استطاعتهم ان يقلبوا كل حركة إلى ضدّها، والمركز صار حرجاً جدّاً على الذين يمنون انفسهم بالاستئثار بالأمر وحسبهم اعتبار السوريين كميّة مهملة.

قلت إن الأحوال قد تغيّرت اليوم جدّاً. فإذا كان لا يزال في مصر قليل من السوريين المفطورين على التقاعس فالمجتمع الأكبر اليوم منهم نفرٌ من المتعلمين أصحاب التربية الحديثة، فهم لا يفخرون كثيراً بالاستلحاق ولا يقف في سبيل قوميتهم اختلاف المذاهب. فإن كان بين الموسرين عدد قليل يتهرّب من هذه القوميّة لئلا تندى كفه وهي أيبس من الصخر، فإن بينهم من أرباب السخاء من يُفاخر به والقدوة الحسنة تجعل امثال هؤلاء يتقدّمون من أنفسهم إذا رأوا بينهم مشروعات حسنة ناضجة وإن كان بين وجهائهم واكثرهم من باشاوات الموظفين من

يقابلك بوجه شاحب كأنه يقول لك: استعجل ولا يبتسم لك إلاّ اذا رآك مدبراً مهما كان مقامك، فإن الكثيرين منهم يتقدمون غيرة فيهبّون في أول القائمين لنصر أي مشروع نافع إذا وضع في صورة ممكنة قابلة للتنفيذ.

على ان المعول في نجاح المشروعات العموميّة ليس في الغالب على الخاصة بل على الجمهور. وجمهور السوريين في القطر المصري مما يعتدّ به كثيراً اليوم. وعدد السوريين كما يُستفاد من احصاء الحكومة هو زهاء اربعين الف نسمة وفي يقيني انه دون الحقيقة. وما منهم من يتأخر إذا احكم العمل عن نصره مما في طاقته، والقليل في الكثير كثير.

نعم، انه يستحسن ان يكون للسوريين كسائر اوقوام لا مستشفى واحد بل مستشفيان متقنان: واحد في القاهرة وآخر في الاسكندرية. وفي وسع عشرة من السوريين ان يبنوهما ولا تسؤ حالهم ولا تتأثر ثروتهم مطلقاً بشيء. ولكني هنا لا أريد ان اتكلّم في الأحلام وإن كانت الأحلام قد تصير حقائق ولكنها قد تصير كذلك في ظروف خاصّة. فيجب ان نبدأ اولاً كما يأتي:

أولاً: يقوم إثنان او ثلاثة أو اكثر من اطباء وغير اطباء ممن لهم حميّة ويدعون السوريين عموماً إلى جمعية عموميّة يكون مركزها في القاهرة ويطلبن إلى الاسكندرية وسائر مدن الأرياف ان ترسل منها وفوداً تشترك في هذه الجمعيّة.

ثانياً: تنتخب هذه الجمعيّة لجنة دائمة تمثّل كل مدن القطر المصري تسمى لجنة المستشفى.

ثالثاً: تعينّ هذه اللجنة المركزيّة لجاناً فرعية في الأرياف تتولى جمع الاعانة المقرّرة حسب إرادة كل شخص.

رابعاً: يوضع المال المجموع في أحد المصارف بصورة مأمونة مضمونة ولا يُتصرّف به إلاّ متى بلغ القدر اللازم لمباشرة العمل الخ.

هذه صورة مصغّرة لكيفيّة العمل ابسط وأسهل بحسب ما ترتأي لجان التنفيذ.

وفي يقيني ان المشروع إذا بُدىء به على هذه الصورة لا يمضي زمن طويل حتى تتوفر الأموال اللازمة كأن يغرض على كل شخص (أو) ريال في السنة وحتى أقلّ من ذلك. وكثيرون يدفعون اكثر. فهذه الطريقة لا يجد أحد ادنى صعوبة في انماء هذا المشروع. بل بهذه الطريقة يفتح باب واسع لاصحاب الثروة للاشتراك فيه بالمال الطائل وربما صار العمل نفسه ادعى لامتداد نفعه إلى البعيد من المستشفيات كالمدارس والملاجىء وما شاكل. فالمسألة مسألة حسن ادارة وهمّة لا مسألة تمني وتواكل وتواني. وقد جاء في الأمثال: «قم يا عبدي، حتى أقوم معك».

فهل من داعٍ يقوم ويدعو إلى العمل؟ وإلاّ فلا لزوم للصياح وزيادة الشكوى.

الدكتور شبلي شميّل

مساوىء السيطرة التركيّة ومسؤولية اوربا

Les méfaits de la domination turque et la responsabilité de l'Europe. **[Le Caire, mai-juin 1913 (48 p.)]**

«Quand les Arabes perdirent le pouvoir au profit de la domination turque, ils avaient déjà une civilisation brillante qui, toutes choses égales, était qu premier rang parmi les civilisations contemporaines. Des nomades qu'ils étaient, les Arabes, sortis de leurs déserts en conquérants, se sont laissés conquérir euxmêmes, du point de vue civilisation par les nations conquises; ils n'ont pas tardé à cultiver leurs sciences, à s'inspirer de leur littérature dans leur langue et à adapter leurs lois à celles de leur Livre Saint. Au point de vue administratif, ils ont eu en vue la prospérité des pays et le bonheur des peuples conquis, autant que le leur permettaient les préceptes en vigueur dans les systèmes sociaux anciens et modernes. Tout en travaillant à la fusion des différentes nations, ils ont su élever leur propre langue en plus haut niveau scientifique et philosophique connu de leur temps, l'imposer à leurs sujets et former ainsi une unité nationale propre.

«Dans le domaine scientifique, les Arabes ne négligèrent rien pour se mettre au niveau de leurs devanciers. Ils traduisirent presque tous les ouvrages grecs d'une certaine valeur. Personne n'ignore le mouvement qu'ils créèrent par leur Alchimi ni la part bien grande qu'ils eurent dans l'Astronomie: la nomenclature arabe y est en usage jusqu'aujourd'hui dans les différentes langues; et surtout leur part dans les sciences mathématiques, dont l'algèbre qui est une de leurs créations.

«En fait de médecine, ils traduisirent toutes les œuvres d'Hippocrate, la traduction arabe passant pour être la plus exacte, comme il est permis de le constater en comparant certains passages avec la savoureuse traduction française de

Littré. Il est vrai qu'à part le livre des Aphorismes qui forme, à lui seul, un recueil consistant aux larges commentaires, tout ce qui nous reste d'Hippocrate en arabe est éparpillé dans le texte de livres de livres de médecine, surtout dans le livre monumental du grand Avicenne.

«Doués d'une imagination vive et incapables de satisfaire leurs ambitions dans les travaux matériels, faute de grandes aptitudes commerciales et industrielles, ils ne voulurent être que maîtres ou savants. C'est ainsi, qu'à défaut d'un large développement des sciences positives et pratiques, ils s'adonnèrent à la philosophie et à toutes les sciences abstraites et occultes auxquelles les prédisposaient leur esprit théorique et la tendance verbale qui en découle. Voilà pourquoi ils finirent par se perdre dans les conjectures d'une spéculation creuse et par perdre avec eux la défense de leur pouvoir».

* * *

Les théories politiques développées par Shibli Shumayyil sont une éloquente affirmation de sa foi au progrés qui transformera la vie sociale en réalisant les États-Unis d'Europe. Les rivalités des Puissances s'effaceront à mesure que celles-ci prendront conscience de leur mission civilisatrice. Mais l'Europe a-t-elle suffisamment conscience de sa responsabilité? Ces lignes prophétiques, jointes aux projets particuliers qui concernent la Syrie, font de l'auteur un devancier du président Wilson et des théories juridiques de la Société des Nations.

J. Lecerf

فيلسوف سوري وآراؤه السياسيّة

Vues d'un Philosophe Syrien sur la politique mondiale.

Dr. Shibli Schemeil, *Les méfaits de la domination turque et la responsibilité de l'Europe.*

Le Caire, mai-juin, 1913; 48 pages.

Nous devons à l'obligeance de Mlle May Ziyade la communication de cette petite brochure rarissime et des deux suivantes. Les deux premières appartiemment à la série des écrits en français du Dr. Shibli Shumayyil, et dénotent une parfaite maîtrise de cette langue.

La première, simple article publie´ dans le journal *Le Progrès,* fait le procès de la Turquie dans l'histoire. On y trouvera nombre d'indications sur la Syrie à cette époque, sous la domination des Jeunes-Turcs. Nous en extrayons une anectode, souvenir d'un voyage en Europe de Shibli Shumayyil, qui confirme ce qu'on sait par ailleurs de sa haute valeur morale.

> "En 1891, lorsque Koch annonça à cors et à trompettes sa découverte .... ma curiosité médicale m'amena à Berlin. Un soir au Café de la Paix, j'eus le plaisir de me réunir avec six ou sept confrères, turcs de Constantinople, instruits et très aimable, venus en mission."

Shumayyil ne tarda guère à exprimer sa haine pour le gouvernement d'Abd ul-Hamid. Un des jeunes médecins délégués sort avec lui et l'invite à dîner. Chemin faisant il lui propose de venir à Constantinople. Un éclat de rire fut la réponse. Alors le Turc lui propose de rester on Europe et d'y fonder un journal aux frais du Sultan. Sur le refus de Shumayyil, il le quitta et chacun d'eux alla dîner de son côté.

> "Quant à moi, continue l'auteur, je ne saurais dire si j'ai bien ou mal fait de refuser la proposition .... non de prendre un billet à bord du *Challenger* pour aller découvrir le *Protobathibius* ou le *Monère* au fond du Bosphore; mais bien celle, autrement alléchante, de mettre la main sur la pierre philosophale tant cherchée en vain par no alchimistes". [Pages 13 — 16].

Lettre du Dr. Shibli Schemeil
à M. Ernest Haeckel.

"El-Mokattam" 1915; 20 pages.

Cete réponse au manifeste des Quatre-vingt-treize traduit un douloureux étonnement. Lorsque, dans sa brochure précédente, au moment de la guerre des Balkans, l'auteur espérait l'avènement d'une ère nouvelle grâce à l'Europe, il avait compté, declare-il, sans le gouvernement militariste de l'Allemagne. Il comptait sur le peuple allemand, et sur les savants allemands. S'est-il trompé? Il ne peut le croire. La responsabilité doit retomber sur l'empereur et la caste militaire. Cette guerre est une folie car si l'Allemagne avait su attendre, elle aurait conquis le monde.

Il est vrai, ajoute-t-il, qu'il avait toujours négligé les effets de la philosophie de "l'incohérent Nietzsche" et de Bernhardi. Aussi ne peut-il pas croire que les maîtres de la philosophie évolutionniste aient cédé à l'entraînement aveugle. "Professeur Haeckel, conclut-il, je persiste à croire que vous n'avey pas signé".

Si l'on se reporte aux remarques bien connues de Nietzsche sur la formule de Darwin et la "lutte pour la vie", on voit qu'elles ont la portée d'une correction importante. La lutte pour la puissance est un fait universel, qui parfois contredit le premier. D'ailleurs la vie elle même n'est qu'une conquête incessante et les deux formules ne sont, peut-être, pas si inconciliables que le pense Shumayyil.

On saisit, dans ces deux écrits, à quel point la théorie de l'évolution, simple explication scientifique exclusive de la finalité, est devenue une sorte de foi au progrès indéfini, déjà chez Haeckel, encore mieux chez Wells, et indiscutablement chez Shumayyil. Suivant les remarques de Bertrand Russel[1] il y a là une incursion injustifiée de préoccupations pratiques dans la philosophie: "Un processus conduisant de l'amibe à l'Homme, aux yeux des philosophes parut être un progrès — bien qu'il ne soit pas dit que l'amibe se soumette à cette opinion". C'est une interprétation anthropocentrique de l'histoire probable du passé, qui singulièrement rétablit la finalité sur le domaine dont elle semblait bahnie. L'évolutionnisme de Shumayyil porte sa date. Maix il avait tout ce qu'il lui fallait pour séduire les imaginations dans les pays en progrés rapide.

أسقيك بالوعد، يا كَمّون

تعليق الدكتور شميّل على مصداقيّة الحكومة العثمانية حيال المؤتمر العربي في باريس، (من ١٨ إلى ٢٣ حزيران، ١٩١٣).

[الأهرام. ٢٦ تموز (يوليو) ١٩١٣]

عفوكم سادتي المصلحين. فأنا معكم في كل شيء إلاّ في التصديق بوعود الحكومة لكم ولو انها وقّعت على **اتفاقية المؤتمر الباريسي** التي كان العَرَض فيها أظهر من الجوهر كأنّ الاصلاح متوقف على تعيين عدد معلوم من هذا الجنس أو ذاك. ولا بأس من ذلك إذا كانت النيّة بالاصلاح حقيقة لا ضرباً من ضروب التموية وخديعة من خدع السياسة إذا رأت نفسها ضعيفة عن تبيان وسائل العنف حتى إذا عادت القوة إليها عادت الى التحكم والصَلَف.

فأنا لا أظلّ حتى الساعة انتظر. ولا أقول أشُكّ بل أؤكّد ان الاصلاح الموعود والمنشود لا يتمّ. وحتى الساعة لا يزال مسلك الحكومة واحداً في ولايات سورية. والحوادث التي تروجها الجرائد كل يوم مما يدعو إلى اليأس. أنتم تعلمون مثلي ان الحكومة منذ زمان بعيد تعد وعوداً فارغة وتخطّ على الورق [بنود اصلاح كمن يسقيك «الكمّون»]. كذلك انها قد راوغت يومئذ. ولا جرّبت اصلاحاً. ولكن حسن ظنّكم يجعلكم تقولون من باب التمني: لعلّها تصدق هذه المرّة.

وأمّا أنا، فكنت أوّد من صميم قلبي ان اكون حَسَن الظنّ لظنّكم ولكن اسباباً اخرى هي في قساوتها الراسخة كالقضايا الراهنة تحملين على الجزم بان الحكومة لا تريد الإصلاح مطلقاً لانها لا تعرفه. وعلى فرض انها عرفته وارادته فإنه يبقى لديها عقبة لا تستطيع تذليلها وهي انها لا تعرف كيف تقوم بتنفيذه.

والذي لا يصدّق، فانّي اقول له: ان الأيام بيننا. ومغزى كلامي الى أبناء وطني هو كما في المثَل الدارج: إذا كنا رائحين إلى الطاحون فلنخيّط بغير هذه المسلّة.

على اني اكون أول المسرورين إذا أظهرت الأيام خطأي لأنه لا غرض لي إلاّ الإصلاح؛ كيف أتى ومن أين أتي.

الدكتور شبلي شميّل

ما هي قصّة «عالوعد، يا كَمّون»؟

استعار الدكتور شميّل عنوان مقالته «أسقيك بالوعد، يا كمّون» من المَثَل اللبناني الشائع. وتقول حكاية هذا المَثَل ان الكمّون يُزْرَع ولا يُسقى. فهو أصلاً نبات بعليّ. لكن عندنا يتجاوز المزارع بمرشّته سقاية الكمّون معتقداً انه لا يحتاج إلى سقي، «يرفع الكمّون صوته» بالاحتجاج على هذه المعاملة التمييزيّة، ويطالب بالمساواة مع سائر النباتات. فيعمد المزارع إلى اطلاق الوعود، ويصدّق الكمّون وعود المزارع استناداً إلى طيبة القلب وسلامة النيّة. وتكون النتيجة ان الكمّون يعيش على الوعود ويعلّل النفس بالآمال الخادعة والكاذبة.

* * *

ويهدف شميّل من اختيار هذا العنوان للتعليق على المؤتمر العربي في باريس (حزيران ١٩١٣) إلى التذكير بسياسة «عالوعد، يا كمّون» التي سارت عليها السلطان العثمانيّة خلال العهد الدستوري في معاملتها للأماني العربيّة في التحرّر والاستقلال أو حتى في المناداة بتحقيق اللامركزيّة الإداريّة في ولايات السلطنة. والسياسة العثمانيّة، كما يراها شبلي شميّل، مارست وتمارس عادة إطلاق الوعود الفارغة لتعليل النفوس «الكمّونية» المتعطّشة إلى التحرّر والاستقلال ونيل المطالب الحقّة.

المطالب اللبنانيّة والجرائد التركية (١)

[الاهرام: ١٩١٢/٧/١٩]

يشقّ عليَّ جداً ان اكتب هذه الكلمة المرّة وأرسلها تشقّ الفضاء وتخدش مسامع اصحاب طبلات الآذان الحسّاسة التي تجرحها خطرات النسيم من الحبّ ولكن لا يؤثر فيها قرع الطبول من العدو.

إلى جريدة «حق» التركية ومن هي صد صوتهم ومرآة لصورة افكارهم ومن لا يرى النور ويحلو له التلمّس في الظلمة، أقول كلمتي هذه التي تستعذبها الضمائر الحرّة وتمجّها أصنام الاستبداد واعداء العمران وانصار الحرب.

إلى اولئك الذين لا يفيدهم علم ولا ينفع فيهم اختبار ويعيشون اليوم كما كان الناس من الف سنة ومفكرون نظيرهم ويتكلّمون لغتهم.

إلى كل مَن أُعطى ملكاً فلم يحسن سياسته وفوق ذلك يغضب إذا تذّر الناس منه بل يتذمر اذا قام الناس يطلبون الاصلاح ويرميهم بالخروج إذا ألحّوا في طلبه مستعينين على الجهل بالعقل وعلى الضعف بالقوّة. ولم يطلبوه جاثين على ركبهم متضرّعين مبتهلين إلى من لا يصغي اليهم، كملتمس نعمة من متبرّع لا طالب حقّ من شريك أو مسؤول. فإذا كان هذا مبلغ علم هؤلاء المصلحين، فويلٌ للمملكة التي يديرونها وألف ويلٍ للأمّة التي يسوسونها إذا لبثت خاضعة تتضرّع وتبتهل ولم تنهض بأي الوسائل إذا لم تنفع الحسنى.

ألا يدري هؤلاء «المعلّمون» ان تحذير أعصاب الامم بمسكّنات الوعود الفارغة لا يجدي نفعاً اليوم حتى ولا للذي يريد ان يستأثر على قفا الضعف ويتمتّع على ظهر الجهل. فالتنازع اليوم شديد. والعكم سريع السير والعمران يتغير في يومه اكثر مما كان يحصل في مئات السنين في الماضي. أفلا يروعهم ان يغلبوا في هذا التنازع ويفقدوا كل شيء وهم واقفون يحاسبون اممهم على اصلاحات تافهة، ولو تمت لنفعتهم وربما وقتهم شرّ السقوط.

هذا شأن اكثر الجرائد التركية بوق صوت القوّة في سائر مطالب اللبنانيين اليوم. وهي جزء صغير من احتياجات المملكة الضروريّة والتي لا يُنظر فيها إلاّ بالتسويف. إذا كان هذا مبلغ أصحابنا من العلم والاختبار وحسن الإرادة والإدارة وهم الاصدقاء المخلصون فاللّهم قنا من اصدقائنا.

انا لا أنظر من خلال هذه المطالب إلى حزازات القائمين بها أو ما يكون فيها من المنافع الخاصّة. فإن ذلك لا يهمّ. بل انظر الى انطباقها على مصلحة الجبل ومصلحة الدولة معاً.

تقول جريدة «حقّ»: «أكان يليق بمتصرفيّه (تعني لبنان) نالت «المأذونية» التامّة والحرية الكاملة ان تعجز الباب العالي بمطالب هي على غير حق بها في زمن الحرب. ألم تكتفِ بهذه النعم العظيمة؟

فما هي هذه النعم العظيمة، يا مَن تُمنّنون الأمة بإصلاح لو أتيتموه من أنفسكم لَقُمتم بالواجب عليكم، فكيف إذا كنتم أنتم حجر عثرة في سبيله؟ وما هي هذه المطالب التي على غير حق؟ وكيف يكون الجبل في نعمة، وهو كالمخنوق من كل الجهات حتى لم يتركوا له ارضاً يستثمرها ليعيش فيها ولا فتحوا له باباً لتجارة يتسع بها. فلم يجد ابناؤه سبيلاً للحياة إلّا في الهجرة. وما مثل مانحي هذه النعم معه إلّا مثل من دعا جائعاً الى معجنه وكشف له عن أرغفة خبزه وقال له: صحيحاً لا تكسر ومكسوراً لا تأكل، وكُلْ حتى تشبع». أم هذه النعم هي انهم منعوا عنه المجازر التي كانت تتلوث بها ايديهم كل مرّة. وبواسطة مَن مَنعوها.

ولكنّها نعرة في حكام الشرقيين فيعتبرون ان إبقاءهم على حياتك فضلٌ منهم عليك. والأمر كذلك ما دام الناس لا يشعرون.

تقول هذه الجريدة: «كان الواجب على اللبنانيين ان يخلدوا الى السكون حتى تنتهي الحرب، ثم يعرضوا تضرّعاتهم وابتهالاتهم الى الاعتاب السلطانيّة فينالونها طوعاً لا كرهاً». أفلا يشفق صاحبها على نفسه من حكم العاقلين عليه بهذه اللغة التي تنكر اليوم على الآلهة انفسهم. فكيف بالبشر المسؤولين لدى أممهم ولدى التاريه؟ لماذا لا تنيلهم الدولة ذلك قبل انتهاء الحرب ومن تلقاء نفسها ما دام في الأمر مصلحة بقعة من ارضها فتنشطهم وتحيي آمال سائر الأمم الطالبة الاصلاح في المملكة العثمانية.

وأما سائر اعتراضات هذه الجريدة على توسيع نطاق الجَبَل الجغرافي والاقتصادي، فإن كان الخوف من المرفأ ان يكون باباً لإدخال الاسلحة الممنوعة، **فأولاً**، طوبى للدولة التي تنصب نفسها أمام امّتها في منصب العدو. والذنب على مَن حَينئذٍ. **وثانياً**، ان هذا الذي يناله الجبل حينئذٍ ليس بالممنوع عليه لأن مياهه وشواطئه والوسائل الأخرى لا تستطيع ان تقف في وجهه للنهوض. وأما من الجهة الاقتصادية فقد تبينّ ان العمار يجرّ العمار ومَن يقف ضد ذلك اليوم لا ينفعه لا عمار حتى ولا اختبار.

وأما قوله: «ان سلوك اللبنانيين اليوم في مطالبهم هذه المسالك لا تستحسنه الدول التي لا بدّ من الالتجاء اليها وهي ذات الكلمة النافذة في تحوير نظامهم، وقد جرحتهم جرحاً عظيماً يذكره الصوت النافخ ببوق هذه الجريدة لهم ولا ينساه أصلاً. ففيه من رائحة الوعيد والتهديد ما يفعلون وما يسلون. فذوقوا، ما أهمل لبنان نتيجة انشقاقكم وعدم اتفاقكم وتقاتلكم على المصالح الخاصّة التي تبذلون في سبيلها اليوم كل مرتخص وغالٍ، قائلين: و«من بعدي الطوفان». فما أصيبت أمّة بمكروه الاّ وهي الطالبة لنفسها الضيم.

شبلي شميّل

اللبنانيون ومحطّ آمالهم (٢)

[الأهرام: ٢٢ تموز (يوليو) ١٩١٢]

محط آمال اللبنانيين اليوم في تحوير نظامهم البالي للدولة العثمانية وللدول الأوربية الكبرى. وقد قام اللبنانيون في هذه الأيام بحركات مجموعة ومفرقة لم تعهد فيهم من قبل وتدل دلالة صريحة على ما في نفوسهم من الملل والتأفف من نظامهم القديم الذي يعد الصبر عليه والرضى به اليوم موتاً في النفوس وخوراً في الهمم وخمولاً في العقول.

لكن هذه الحركات حتى الساعة لا ترمي كلها إلى غاية واحدة ولا تدلّ على قوة كذلك. وكل الاعتماد فيها على دول اوروبا وعلى الدولة العثمانية وليس فيها شيء من الاعتماد على النفس. فرجال العهد القديم اكثرهم يقنعون بالقليل ويكتفون بالوعد والتسويف في الباقي لتشبعهم من المبادىء القديمة ونظرهم الى حركة العمران السريعة اليوم كما كانوا ينظرون اليها بطيئة في الماضي. والقليل منهم يري أن الحق ما دام حقاً يجب ان ينال كله دفعة واحدة ولا يرتد عنه الا عن عجز ولكنه يرتد محتجاً حتي يبقى احتجاجه موضوع نظر للآخرين والقسم الأعظم واقف حتى الساعة لا يبدي رأياً حازماً وينتظر أن يكون له ذلك بالروية حتى اذا استوى الأمر جيداً لم تنقصه الشجاعة الأدبية وعد الاعتماد على النفس حينئذ من علم أول الواجبات التي تصان بها الحقوق.

ولذلك أقول بكل أسف اني لا أرجو اليوم خيراً كبيراً من بث شكاوى اللبنانيين وعرض مطالبهم على الدول وعلى الدولة العثمانية وكل اعتمادهم على سواهم في تحقيق آمالهم. ولكني علي يقين تام ان هذا الذي يجاد به اليوم على الاباء استقطاراً سيناله الابناء عمّا قليل غمارة باعتمادهم على انفسهم فلا يكتفون حينئذٍ بأرض كحفش اليوم وبمرفأ كالعين الرمداء بل يردون الطبيعة الى مركزها الطبيعي ويفسحون للعمار ميداناً واسعاً يسير كل عقل ولهذا يطلب من عموم اللبنانيين ان يمهدوا السبيل الى ذلك بكل الوسائل التي لهم حتى يكونوا وحدهم عماد انفسهم في تنفيذ مطالبهم فالقوة ليست دائماً في العدد والتصميم والانضمام يذللان كل صعب.

فالدول ان لم تكن لها غايات عظيمة من وراء تحقيق مطالب اللبنانيين فانها لا تحرك ساكناً. فان كانت فرنسا وروسيا دافعنا عن مصالح اللبنانيين بدافع الشفقة التي تخللها شيء من المصلحة البعيدة في الماضي فان انكلترا لم تبق عليهم لا مكرهة وهي التي كانت تغض الطرف عن المجازر لعلها تستطيع ان تستأثر وحدها بأمور الدولة اذا ضعفوا وقلّ تداخل الدول الأخرى بسببهم ومع ذلك فهم لم يتوخوا في النظام الذي وضعوه لهم حياة الجبل وكل ما فعلوه هو أنهم نقلوهم من موت سريع إلى موت بطيء.

واما الدولة العلية فان الماضي لا يدلّ أقلّ دلالة على ان حكامها توخوا في زمن من الأزمان إسعاد رعاياهم من أي جنس أو دين أو مذهب بل بالضد كانوا ينقضون عليهم فاتحين غازين سائبين كأنهم في حرب مع عدو. والحاضر لا يدل على ان الحال أصلح فيه منها في الماضي وهو

اليوم في يد فئة تدلّ اعمالها حتى الساعة على سوء ادارة أو سوء ارادة أو نقص علم او عدم اختيار والأرجح كل ذلك معاً وقد اوصلوا المملكة الى شقا والافلاس والخراب. ولا بأس فان بطونهم أصبحت ملأى من خزائن يلديز وقد كانت ضاوية من الجوع وماذا يهمّهم خراب المملكة ما داموا يقدرون ان يعودوا إلى عواصم اوروبا مثقلين ويعيشوا فيها كسلاطين انزلوا عن عروشهم. فماذا ينتظر اللبنانيون أن ينالوا من أمثال هؤلاء الحكام وقد قامت جرائدهم اليوم تندد بمطالبهم بكلام يغثي النفوس وتنفر منه العقول مع ان اللبنانيين أنفسهم خدموهم في وطنهم وفي مهاجرهم وحفظوا لهم العهد اكثر من سائر الشعوب العثمانية الأخرى.

فعلى الأمة العثمانية عموماً وعلى اللبنانيين خصوصاً ان لا يعتمدوا في امورهم الّا على انفسهم فقد مضى الزمن الذي كان ينظر فيه الى الحكام كالآلهة ويترك زمام الأمور لهم وحدهم فتموت الأمة لتحيا شرذمةٌ ليس لها في تاريخ العمران ذكرٌ يحمد. وعليهم قبل كل شيء ان يعدلوا عن دس الاختلافات الدينية والمذهبية في شؤونهم السياسية وجعلها ذريعة لحكامهم للضغط عليهم وأن ينظروا ما عليهم من الواجب نحو انفسهم ووطنهم والا فمصيرهم في تيار هذا العمران كمصير حكامهم معروف لا يموه فيه. ومهما يكن من ذلك فعلى اللبنانيين الذين يؤلفون اليوم في جميع الأقطار جامعة لا يستهان بها مالاً وذكاء وعلماً ان يعرفوا واجباتهم نحو وطنهم الصغير والكبير ونحو العالم أجمع، فان مَن يخدم سواه يخدم نفسه أيضاً.

شبلي شميّل

لبنان ومتصرّفوه
(٣)

[الأهرام: ٢٣ تموز (يوليو) ١٩١٢]

منذ وُضع نظام للبنان وجُعلت مدّة المتصرّف فيه إلى سنين معلومة وبعدما إمّا ان يُجدّد اختياره وأما ان يُبَدَّل بآخر، لا هَمَّ للبنانيين إلاّ متصرّفهم كأن صلاح حالهم متوقّف عليه. ولا يُنكر ان الحاكم الصالح منه ويجمع حول بطانة من أعوان يكونون على شاكلته، ولكنه لا يعلم بانه يجوز ان يكون وحده محطّ آمال الشعب ولاسيما في نظام مسنون كنظام جبل لبنان.

فالمتصرّف في هذا النظام وإن كان مسؤولاً لدى الجبل نفسه، فإنه مُقيَّد ايضاً بما يوجب عليه مراعاة خاطر الدولة العليّة التي ترشّحه وخاطر الدول الكبرى التي تصادق عليه. وكثيراً ما يسهل عليه الأخلال بمصلحة الجبل في سبيل ذلك مراعاة لمصلحته الخاصّة ولاسيما إذا كان من اولئك الذين نالوا الوظيفة في سوق «الدلالة» كما هي الحال في اكثر الوظائف في الدولة العلية، على ما هو معروف. ولا يصعب عليه حينئذ ان يجد الأعوان الذين يريدهم من نفس الشعب الذي يعبث بمصلحته ولاسيما اذا كان هؤلاء الأعوان من جيل لا يزال متأثراً بتربية العهد القديم.

ولقد تعاقب على الجَبَل متصرفون متباينون كفاءةً ونزاهة ومرامي من بينهم إثنان لم يُعابا والباقون ذُكرت لهم مساوىء منها عن ضعف ومنها عن تدني. ومع ذلك فالجبل لم يستفد شيئاً من صلاح الصالح وان لم يتضرّر منه كتضرّره من الآخرين. والسبب هو ان نظام الجَبَل لم يكن فيه شيء من مصلحة اللبنانيين الاقتصادية بل بالضدّ ضحيّت فيه هذه المصلحة ولم يُنظر فيه إلا إلى القلاقل الداخليّة فقط لمنعها.

وقد أدرك ذلك داود باشا متصرّف لبنان الأول وحاول ان يوسع نطاق الجَبَل فلم يرق ذلك في عين الدولة العليّة فخدعته بالأماني التي صوّرتها له فأوهمته انه إذا أصرّ وهدّد بالإعتزال ربما تمكنت من إقناع الدول بما هي راضية به فوقع في الشرك وقُبل استعفاؤه في الحال واقصي. والثاني رستم باشا: وله صحيفة بيضاء في تاريخ الجبل وانما كان من المحافظين الشديدي التمسّك بالقوانين والنظامات ولو خالفت المصلحة المقصودة منها.

وشكوى الجبل إذا كانت من المتصرّفين العُشر فتسعة اعشارها الباقية من نظامه نفسه الذي سلبه كل مصالحه الاقتصادية زعماً من واضعي هذا النظام انه كما هو كافٍ لحسم القلاقل. والحال ان الدواء الذي وُضع في هذا النظام دواء تسكيني فقط لا تؤمن عواقبه وليس فيه شيء من المصلحة لأهل الجَبَل ولا للدولة العثمانية نفسها لمن ينظر إلى أبعد من أرنبة أنفه في الأمور الاجتماعية.

والظاهر ان كلاً من الدول الموقّعة لهذا النظام كان يخادع الآخر ويظنّ لنفسه انه الخادع وغيره المخدوع. فالدولة العليّة ظنّت انها وضعت به حدّاً للقلاقل واتّقت بذلك سرّ تداخل الدول ذات الشأن بحجّة حماية المسيحيين ولو انها قضت على حياة الجبل وابتسمت لها انكلترا حليفتها الطامعة بحصّة الأسد في ذلك الميراث العظيم. وبالفعل أبعدت فرنسا عن تداخلها الفعلي حينئذٍ. وفرنسا قبلت مُرغمة وعلّلت نفسها بان هذا النظام شرّ على الدولة مما لو بقيِ الجَبَل على حاله الأولى، بسبب عبثه بمصالح الجبل الاقتصاديّة التي لا تلبث ان تصير فيه سبباً لقلاقل اشدّ تحملها لبسط يدها المكفوفة بحقّ أصرح. ووقفت روسيا إلى جانبها تنتظر الصيد في الماء العكر حينئذ.

وبالواقع لولا مهاجرة اللبنانيين بعشرات الألوف في الأربعين سنة الأخيرة لكان هذا السبب الاقتصادي اليوم علّة كبرى لقلاقل عظيمة لا تقتصر على داخليته بل تمتدّ نارها إلى الجهات المجاورة. وانما مهاجرتهم كانت لنظامهم هذا كصمّام الأمن في الآلة البخاريّة.

وليس في هذا القول شيء من الغلوّ لأن النازحين من الجبل اليوم يزيدون عن ثلاثمائة الف نسمة وسيل المهاجرة بالألوف كل سنة لم يقف حتى الساعة. فإذا علمنا ان القسم الأعظم من هؤلاء النازحين الذين اقتحموا الأخطار وتجشّموا الأهوال لم يكن كل رأسمالهم الاّ نفسٌ قحّامة دفعتهم إلى اقصى المهاجر، لا علم ولا مال حتى ولا لغة يتفاهمون بها في مهاجرهم الجديدة، لم يصعب علينا ان نفهم ماذا كان يحصل لو بقوا في جبلهم محصورين وعضتهم الحاجة.

فإذا كانت الدولة العثمانية وقيت حتى اليوم شر الفتن بهذا النظام فإنما وقيته بأعجوبة اولاً وبأمر يُعتبر في نظر الأمم الراقية خراباً على البلاد لأن جانباً من المهاجرين لا بدّ ان يستوطن البلاد التي هاجروا اليها ولاسيما إذا نجحوا واستهوتهم محاسنها اذ تبدو لهم مهما كانت قليلة كجنّات بالقياس الى البلاد التي هجروها. واذا كان اكثر هؤلاء النازحين يعودون بعد حين بالمال الذي اكتسبوه الى وطنهم مدفوعين بالحنين إليه، فإن هذا الحنين لا يدوم بهم طويلاً إذا لبثت الحال على هذا المنوال بل يتحوّل فيهم حينئذ إلى «انين» يدفعهم إما إلى هجر البلاد أصلاً تاركين الدار تنعي مَن بناها. وإما الى العودة بنفوس متشبّعة بالمبادىء التي اكتسبوها من البلاد الراقية فيقع عليهم المحظور الذي تريد الدولة ان تتقيه وقد بدت دلائله تظهر اليوم.

والظاهر ان حكومتنا بلباسها الجديد لا تزال كما كانت في الماضي لا يهمّها شيء من هذين الأمرين. فإمّا انها لا تدرك وهو أمر كبير على الذين منحوا البلاد دستوراً واستغربوا كيف ان اللبنانيين لم يهرعوا في الحال للاستظلال بظلّه بنبذ امتيازهم للتمتّع بالخيرات التي سيغدقها دستورهم على المملكة كلها. وأما انهم ـ وهو الأرجح ـ يرون رأي بعض الفلاسفة القانطين في شناعة هذا الانسان وجمال الطبيعة بدونه، فيريدون ان يحكموا على مملكة يكونون فيها فوق اليابسة، كما كان روح الله يرفّ فوق الغمر يوم كانت الأرض خالية خاوية في أول الخليقة. وهم فاعلون. فإن هؤلاء الأشبال من اولئك الأسود لولا ان ذلك لم يعد ميسوراً لهم اليوم.

شبلي شميّل

لبنان. لبنان. لبنان

[الأهرام: ١٨/١٢/١٩١٢]

حركة لبنان شاغلة للأذهان منذ أشهر. والعرائض ترفع إلى الدولة والدول الأخرى تباعاً. هذا يطلب توسيع اختصاص لبنان في أحكامه. وذاك يطلب توسيع نطاقه في مرافقه. ويوجد أخساء يعارضون في تغيير الحال. كأن كل واحد في هذه الفوضى يغني على ليلاه وهي آفة الشرق الكبرى. والدولة يتسع لها ما بين ذلك مجال التسويف. والدول تخير فيه ما يوافق مصلحتها لا مصلحة الجَبَل.

ومصلحة الجَبَل الحقيقية لا تتم له ما دام يتلمس مطالبه تلمساً ويدور حولها ولا يعينها تعييناً واضحاً صريحاً. وكل هذه الحركة فيه حتى الساعة لا تدل الا على قلق وتذمر من نظام دلنا الاختبار على انه كان على الجبل شراً من عدمه وتدل على ان اللبنانيين اذا كانوا قد صبروا على هذا النظام في الماضي فلعلهم غير صابرين عليه اليوم. فان لم ينالوا الشيء الذي ينفعهم نفعاً حقيقياً مرة واحدة فحركة الاضطراب ستتجسم اكثر وتقضي منها كل دولة من الدول التي هي سبب كل هذا الشر مصلحتها الخاصة على ظهر اللبنانيين أنفسهم والدولة معاً. ومن الأسف ان الدولة ـ ولا يكبر على الكابرين ـ لا تدل أعمالها حتى الساعة على انها تعرف مصلحتها ولا مصلحة شعوبها.

فلا توسيع اختصاص الأحكام ولا توسيع نطاق الجبل وحدهما ينفعان ما دام توسيع نطاق الجبل وحدهما ينفعان ما دام نظام تسمية المتصرف لا يتغير ولا تتغير جنسيته ومدته. فقد دلنا الاختيار على ان المتصرف المتربي في دوائر الآستانة كان دائماً خادماً لمصلحته. ولمصلحة المراجع التي تسميه ويحتاج اليها بعد اعتزاله ولمصالح اعوان من اعوان الشر من رجال لبنان أنفسهم. ولم يكن همّه مصلحة الجبل على الاطلاق إلا في ما ندر. وحينئذٍ لم يكن ينجح إذا أصرّ.

وتغيير نظام تسمية المتصرف يلزم معه تغيير نظام الجبل نفسه بحيث يعطى الاستقلال الإداري التام تحت سيادة الدولة. وتوسع حدوده من جهة البر والبحر المشوهة بفضل اطبائه السياسيين الدجالين في القرن الماضي ـ توسع إلى الحد الطبيعي الذي خلقه له الله او وضعته له الطبيعة ـ ام الناس حتى اليوم لا يحبون في كل أمورهم إلا كل مشوه ـ بل يوضع على رأس هذا النظام حاكم دائم لا من ارمينيا. ولا من حلب. ولا من أي رجل آخر تربى في دوائر الحكومات الشرقية. ولا من أهل لبنان انفسهم وهم حتى الساعة لا يحسنون اتقان نزل ينزل فيه المسافر. وانما ينتخب من أهل أوروبا اميراً كان في المحتد أو عصامياً مشهوداً له. وبغير ذلك لا يتم للجبل صلاح ولا يهدأ له اضطراب.

أقول ذلك لمصلحة اللبنانيين ومصلحة الدولة نفسها معاً لا لمصلحة دول اوروبا التي ترغب في هذا الاضطراب قضاء لأغراضها ولو باد الناس ما دامت هي سالمة والتي سلوكها حتى اليوم في جشعها وقلة اكترائها بالآخرين مما يغثي النفوس الجليدة ويحمل أحب الناس الى السلم ان يتمنى لها اشتباكاً في حرب بعضها مع بعض حتى تزول منها البقية الباقية من عروش مقلقلة وتيجان صادئة عسى ان تندفع الهيئة الإجتماعية شوطاً بعيداً عن العمران الراقي الحقيقي.

ولكن هل الدولة تفعل ذلك من نفسها؟ انا اشكّ. وهل اللبنانيون ينهضون لذلك نهضة يسمع لها ويخنع؟ انا اشك اكثر جداً لان الأغنياء منهم اذا جادوا بالقول فلا يجودون الا إلى فم الكيس. ولان كل رأسمال الفقراء منهم ثرثرة. فإذا كانوا في اصلاح أمورهم معتمدين على سواهم فليناموا نوم أهل الكهف إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الدكتور شبلي شميّل

لبنان... سويسرا الشرق؟

لبنان الجميل ولبنان المُشَوَّه
ومطالب اللبنانيين النافعة

[الأهرام: ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢]

قُضي على لبنان كما قُضي على سائر المملكة العثمانية أن يكون العوبة في أيدي حكّامه كألاعيب الأطفال في الأعياد: للتكسير والتدمير. وقُضي على اللبنانيين كما قُضي على العثمانيين أن يكونوا عوناً لحكومتهم المخرِّبة على انفسهم. ودافع الفريقين الجهل وقلّة العقل. حتى كانت في لبنان فتنة سنة ٦٠ (١٨٦٠) الشهيرة بمجازرها التي غمست الحكومة يدها فيها للإبط فتحرّكت حينئذٍ بعض الدول عطفاً على المسيحيين في الظاهر واستفادة من جهل الجاهلين منّا في الحقيقة. وخافت الدول الآخرى انفراد هذا البعض بالغُنم فتكأكأت تكأكؤ الذئاب على الفريسة وزعمت انها تريد ان ترفع عن اللبنانيين الغرم.

فلما رأت هذه الدول أن اللقمة غير سائغه لجميعهن على السواء اتفقت في مناظراتها بعضها مع بعض على أن تجعل لبنان في مأمن من عوادي الإنسان: من جور حكّامه إلى مطامع كل واحدة منهنّ غير ناظرات إلى حقه التكويني الطبيعي وحقوق أهله الاجتماعية الطبيعيّة. فأخذ اساطيننا السياسيون واطباؤنا الإجتماعيون ممن درسوا الأرض في كتاب السماء يحتالون ويختالون واخذوهم رأياً أخلبهم في القول حتى خلقوا لنا جسماً اجتماعياً مشوهاً هو «مسخ» لبنان الذي عهده الناس عائشاً «على صخر» لا برّ له ولا بحر.

ولقد رضي اللبنانيون بهذا الموت المؤجّل وكان روعهم شديداً من ذلك الموت المُعجّل الذي ذبحوا فيه ذبح الأغنام على عتبة دار حكومتهم بأيدي طغاة حكامهم بعد ان أمنوهم على حياتهم وجرّدوهم من سلاحهم ذكرى شنيعة يطلب من اللبنانيين ان ينسوها ويسبّحوا باسم قاتليهم وإلا كانوا من القوم المارقين.

ولكن رضاهم هذا لم يكن يدوم طويلاً، فما انصرفوا عن الماضي والتفتوا الى الآتي حتى تجسّم لهم نوع آخر من الموت أشدّ هولاً من الموت بالسيف وهو الموت جوعاً. ولولا المهاجرة لما نجا لبنان والجهات المجاورة من الإضطرابات التي ترافق النزع الذي يسبق الموت. فقد كانت له كصمّام الأمن في الآلة البخارية كما قلت مراراً وتكراراً.

فأما اليوم فقد تغيرت الحال جدّاً فالاختلاط بالأمم الراقية وانتشار العلم نوعاً جَعَلا اللبناني اليوم غيره بالأمس فإن لم ينل كل حقّه من مطبوع ومشروع فلا ينتظر ان يهدأ له اليوم ثائر. أقول ذلك لا للتهويل وتهديد الممالك باكتساح اللبناني لها وهو «حفنة». بل لتقرير حقيقة اجتماعية طبيعية هي خوف ظلم الظالمين ودونها حكمة الحكماء لان نواميس الاجتماع كنواميس الطبيعة لا تصدّ. والافعال المتجمّعة مهما طالت ساكنة لا بدّ من ان تتفجر واذا انفجرت، فلا يقف في سبيلها حائل. فالاضطراب اليوم لا يهدأ بأية الوسائل العنيفة ويمتد إلى ما حوله ويتناول الفرع والأصل. ولا يهدأ إلاّ اذا أُعطي لبنان كل حقوقه. والعلاج المسكن هنا لا يفيد إلاّ الى أجل قصير.

لقد جرت الحكومات حتى اليوم مجرى التدرّج في كل شيء فلا تهجر القبيح مهما بدا لها قبحه مرّة واحدة. ولا يستهويها الحسن مهما انجلى لها للانتقال اليه مرّة واحدة. ولو عرّضت شعوبها بهذا المسلك للقلاقل الدائمة والفناء وعرّضت نفسها لخطر الزوال - حكمة بالغة ميثولوجيّة من حكم تربية الناس الاجتماعية بفضل علومهم النظرية حتى اليوم.

ولا يغر الحكومة العثمانية والدول المشتركة تذبذب اللبنانيين في مطالبهم وعدم تعيينها من أول الأمر لان الناس في بدء كل ثورة لا يفتكرون بالاصلاح المطلوب قدر ما يفتكرون بطرح نير الظلم حتى إذا رموه عن عاتقهم اخذوا يفكرون في الإصلاح الى أقصاه فان عورضوا فيه حينئذٍ عادوا إلى القلاقل. ولماذا يكره الاصلاح التام، يا ترى؟ ومهما افسدت عقلي فلا أجد على ذلك جواباً ولو. . . غير معقول.

حقوق لبنان من البرّ كلّ البقاع الخصيبة التي هي بمثابة حدود طبيعية له، ومن البحر: كلّ الشواطىء البحريّة الطبيعيّة المرتبطة من صيدا إلى طرابلس الشام - فلماذا لا تُعطى له؟ ولماذا اعتراض الثغور البحريّة على هذا الضمّ؟ ألا يسرّها ان تكون جزءاً مهمّاً من جسم جميل حينئذٍ وتكون هي له كما يكون هو لها، ويصبح هذا الكلّ ولاية من أجمل ولايات العالم في مركزها الطبيعي. ألسنا جميعاً بَشَراً قبل كل شيء يسرّنا الشيء الجميل؟ وبأي عين نرى شناعة هذا الضمّ؟ أليس من العار علينا ان نراها بعين هي حتى اليوم سرّ تقهقر الأمم وسرّ تقهقرنا على نوع خاص.

ولكن جمال الطبيعة وحده لا يكفي. وقد دلنا الاختبار على ان نظام الجبل الماضي في نوع احكامه لم ينفعه بشيء، بل أضرّه حتى في إزالة مزايا نظامه الاساسي ودلّنا كذلك على ان خبرة أهله وحدهم لا يُعوّل عليها كثيراً. فإن كنا نريد الاصلاح الحقيقي وكانت دولتنا ترغب فيه أيضاً، **فلا بدّ من اعطاء لبنان استقلاله التام حينئذ وتحويله إلى إمارة تحت سيادة الدولة، يوضع على رأسها امير اجنبي لم يعرف نظام الاحكام في الدوائر الشرقية ويضمّ اليه نخبة من أهل الخبرة من رجال اوروبا ومن أهل سويسرا بالتفضيل لإدخال الاصلاح المطلوب بالسرعة اللازمة.** - كما فعل محمد علي في مصر. والحق يقال إن هذا الرجل الأمّي كان في مجاهل عقله من جراثيم الاصلاح ما لا وجود له حتى اليوم في معالم عقول حكامنا والمتعلّمين منّا - وذلك لإكساب لبنان جمال الصناعة فوق جمال الطبيعة. ولا ريب عندي ان هذه البقعة اذا اديرت على هذه الصورة تصبح في وقت قريب أجمل من سويسرا نفسها وتدرّ الخير على ابنائها. أقول ذلك في مصلحة الدولة نفسها وفي مصلحة اللبنانيين ومصلحة البلاد المجاورة المنضمّة إليهم أو المنضمّين اليهم وضدّ مصالح الدول الطامعة. وإلاّ اذا غلبت قلّة العقل على الجميع فليعلموا ان لا عمار لهم ولا راحة ولا بقاء لأحد منهم بل سيذهب الجميع طعمةً للمطامع الأجنبيّة بعد ان يذوقوا الأمرّين من جور انفسهم وبعد ان يبلغ صراخ الأرض نفسها من تخريبهم لها عنان السماء. وكلّ آتٍ قريب.

الدكتور شبلي شميّل

الحاجة في الإصلاح إلى الرجال

[الأهرام: ١٩١٣/١/١٢]

سَاءَ البعض انّي طلبت الإستعانة بالأجانب. وساء الكثيرين انّي طلبت توسيع حدود جبل لبنان وتحويله إلى **إمارة مستقلّة تحت سيادة الدولة**.

كلُّ واحد منا اليوم ينشد الإصلاح. وحكومتنا التي نشكو منها تنشده لنا منذ زمان طويل. والمخطوطات الرسميّة والنظامات المخطوطة شاهدة على ذلك وكلّها تقول: إقرأ تفرح. فإذا قلبنا الصفحة قرأنا بأحرف بارزة: جرِّب تحزن.

فما هو السبب؟

بل ما هو السبب في ان الحكومة اليوم لما رأت إلحاح أهل بيروت في طلب الإصلاح وسألتهم ان يعيّنوا مطالبهم وقفوا مبهوتين وهم الآن يبحثون. وإذا وُفقوا كثيراً سيأتي بحثهم منطبقاً كل الانطباق على المكتوب في نظامات الحكومة نفسها، لأن هذه النظامات، كما تقدَّم، لا ينقصها شيء كثير حتى تكون من أرقى النظامات في أرقى الممالك. بل ما هو السبب في ان اللبنانيين لما قاموا منذ اكثر من سنة يطلبون الاصلاح طلبوا في اول الأمر اموراً يخجل العقلاء من ان يجعلوها موضع البحث. ثم اخذوا يتدرّجون. وها هُم الآن يعيّنون مطالبهم تعييناً أوضح جدّاً. بل مَن يشكّ بان الحكومة لو قالت للفريقين: نفّذوا اصلاحاتكم بأنفسكم، لما نفذوها تنفيذاً افضل جدّاً ممّا فعلته الدولة قبلهم وذلك لأن القول شيء والعمل شيء آخر.

والذي لا يريد ان يرى هذه الحقيقة في نفسه - كما أقول - فلينظر اليها في سواه - كما سمعت من صاحب المنار [الشيخ محمد رشيد رضا]. فكم نجد منّا مَن يثق بكفاءة الآخرين عن اقتناع تام. حتى اذا علمها في سواه عرف حقيقته منها. وطوباه حينئذٍ اذا بقي مقتنعاً بكفاءته التامة.

نحن في الظاهر نطلب الاصلاح ولكننا بالحقيقة نحن حتى اليوم نتذمّر من الظلم. وطلب الاصلاح امرٌ سهل ولكن تعيينه صعب، وأصعب من ذلك تنفيذه.

الانسان المتعوّد الظلم يصبر عليه ولا يشكو منه بل ربما اعتبره من اموره الطبيعية كما يفعل الكلب الطائع والحمار الراضخ فيحاولان اتّقاء الضرب بقضاء مشيئة صاحبهما لانهما تعوّدا ذلك بخلاف الحيوان البرّي فانه لا يطيق ذلك من الانسان ولو أودى عصيانه حينئذٍ بحياته، لأن مثل هذا الحيوان لم يألف هذا الخضوع.

فإذا أحسَّ الإنسان بالظلم لم يفكّر قبل كل شيء إلاّ بالتخلّص منه. ولذلك ما كنت ترى مطالب الاصلاح معيّنة واضحة في يد كل انقلاب. فإذا خلع الإنسان نير الظلم أخذ يتلمّس هذا المطالب تلمّساً إلاّ اذا اخذها عمن تقدّمه ممن سبقه فيقلّ تذبذبه في تعيينها، لكن لا تنتفي منه حينئذ الصعوبات الاخرى التي تعترضه في تنفيذها والتي تمهيدها يتوقف فيه على ثلاثة اشياء:

اولاً: العلم.
ثانياً: الاختبار.
ثالثاً: التربية الاجتماعية المبنيّة على كل ذلك وهي الأهمّ.

فللحكم بمقدرتنا على القيام بالاصلاح المطلوب بأنفسنا في حالتنا لا بدّ من اعتبار هذه العوامل الثلاثة فيه. ومن الأسف ان هذه العوامل غير متوفرة فينا حتى الآن.

مَن منّا ينكر ان علمنا محدود وان هذا العلم المحدود ناقص فينا وكلّه نظريات مقلّدة عن أبحاث سوانا ولم ينقل معها شيئاً من الوجهة العمليّة. وماضينا الطويل من حياة التواكل والانقياد الأعمى الى حكامنا واعتمادنا عليهم في كل مصالحنا سلبنا كل معرفة في تدبير شؤوننا تدبيراً حسناً من غير تراجع كثير وتبذير اكثر. وعيبنا الأكبر هو من تربيتنا الاجتماعية في ماضينا البعيد بناء على ذلك كلّه. وهذا الأمر قلّما يعيره الواحد منّا بصيص الاهمّيّة فيظنّ المتعلّم منّا انه بمجرّد ما ارتقت مداركه واتّسعت معلوماته صار في إمكانه ان يتولى تدبير اموره بالاصابة التي يستطيعها أمثاله في العلم من أهل المجتمعات الراقية قبله. وهو وَهمٌ: فالعلم والخبرة قد يكتسبان في مدّة حياة فرد، فكل واحد من أي مجتمع كان في امكانه ان يتعلّم ويبلغ اقصى ما بلغ إليه العلم. ولكن التربية الاجتماعية المغروزة في الطبائع لا تتغيّر إلاّ في الأجيال التالية. لذلك كنت ترى مفارقات كثيرة بين أعمال الناس وعلمهم بحسب هذه القاعدة (الناموس). فأنا - وإن كنت لا أدّعي لنفسي تلك الدرجة القصوى من العلم - مثالٌ ناطقٌ على ذلك ممن شكّ. فإني في امكاني (ولاَ دعوى) ان أسنّ ارقى نظام لأرقى امّة بمصادقة ارقى المجامع ولكنني لا استطيع تنفيذ أقلّ نظام لأحطّ مملكة لأني اذا كنت في علمي ابن اليوم انما انا في تربيتي الاجتماعية ابن العصور الماضية. وهذه حقيقة اجتماعية لا ينكرها إلاّ مَن يجهل نواميس الاجتماع الطبيعيّة في الطبائع البشريّة.

فإذا كنت في كل كتاباتي العامّة في اصلاح المملكة العثمانية والخاصّة في اصلاح لبنان أقول قبل كل شيء عَليَّ الاستعانة بالأجانب من دون حذر أو نفير، فللأسباب المتقدّم بيانها.

أنا لا أنكر ان الذين تقدّمونا في هذا الاصلاح لم يتح لهم ان يستعينوا إلاّ بأنفسهم ومع ذلك فقد بلغوا فيه المبلغ الذي بلغوا اليه اليوم. ولكن لو عرفت كم تذبذبوا وكم اضاعوا من الوقت حتى بلغوا مبلغهم هذا. ولو راجعت حوادث **الثورة الفرنساوية** في قيام المصلحين وسرعة شرودهم والانتفاض بعضهم على بعض في تلك الفترة القصيرة حتى قيام نابوليون لما قبلت ان تجتاز كل العقبات التي اجتازوها على اشلائهم وخاضوا غمارها في بحار دمائهم لتنالها كما نالوها على نفقتك الخاصة ولنصّلت ان تجتنبها باستخدامك الذين عركوها وخبروها قبلك حتى صارت قواعد الاصلاح من بداهتهم في عقولهم ومن فطرتهم في طبائعهم وان تجتنيها بهم ثمراً يانعاً.

فإن بقيت مع ذلك مصرّاً على اكتفائك بنفسك في اصلاحك ولو طال بك المطال، فأعذرني اذا لم أوافقك لسببين: **الأول**، وهو الأهمّ عندي وكان يجب ان يكون الأهمّ عندك لتعلّقه بما أنت حريص عليه من حفظ استقلالك، هو ان تأخير عمار الأرض من الجنايات الكبرى على نفسك وعلى العمران. والعمران قد ينظر إلى ذلك اكثر من نظره إلى الانسان لأن العمران باقٍ والانسان زائل - عسى ان يستفيد منه سواك إذا لم تعرف انت ان تستفيد منه. **والثاني**، خاص بالمملكة العثمانية نظراً الى مركزها الجغرافي في وسط العالم المتمدّن. فإذا صبرت أنت على نفسك، فهل يصبر العمران عليك حتى تأخذ «لهوتها» رأسك في نومك قبل ان

تستبقها، ولا يمدّ يده إليك في شدّتك ليمنحك كل ما خاف عليه من إشراك الأجانب فيه معك.

وعلى فرض ان العمران صبر عليك، فهل أنت على يقيم من انك قادر على الاصلاح وحدك اليوم وعلى تحمّل وطأته عليك وانت راسفٌ في قيود الجهل والذلّ؟ وهل إزالة أثر ذلك منك بالأمر السهل؟

لا ينكر ان المصري اليوم أرقى من سائر العثمانيين في احكامه ونظاماته، فهل تظنّ انه بعد خبرة ثلاثين سنة من احتلال راق يؤمّن حكمه على نفسه مع انتشار العلم عنده الى درجة صارت الشكوى معها من كثرة المتعلّمين اذا جازت الشكوى من العلم. ولا تستغرب إذا قيل لك ان الاحتلال إذا ترك مصر اليوم عادت الأمور في وقت قصير إلى اسوأ مما كانت في الماضي. وهو قول قد لا يوافق مرام اصحاب الهوى لكنه الحقّ بعينه. أليس الادارات التي بقيت في ايدينا خارجة من سيطرة الرقيب عرضة لكل انواع الانتقاد حتى اليوم مع اننا في وسط بؤرة صالحة. الشرقيّ لا يُرجى دخوله في طور الاصلاح الحقيقي إلاّ اذا بدأ هو نفسه يفهم عجزه ويدلّ عليه وشرع بسدّ هذا النقص فيه بالاستعانة بسواه من القادرين.

وليس هذا بكثير على ابناء وطني إذا قلت لهم جهاراً لا غنى لهم الآن عن الإستعانة بالاجانب وهم بهذا العجز وإذا طلبت ان يكون لبنان آمارة على رأسها أمير اجنبي تحت سيادة الدولة وله أعوان كثيرون اجانب. فلهذا السبب أليس هذا النوع من الاستقلال والادارة «لا مركزيّة» في الجوهر ولكن «لا مركزيّة» راقية. ولهذا السبب عينه أطلب ذلك لجميع الولايات العثمانية التي ترغب في الاصلاح الحقيقي.

وقولي أمير اجنبي لا يُفهم كما فهم البعض بان الأجنبي سيبقى في وطنه الجديد اجنبياً ايضاً. وهو اجنبي في أخلاقه. في علمه، في اختباره، وفي تربيته، وانما يتجنس ويصير وطنياً ويتمذهب أيضاً بمذهب القوم انفسهم كما هو معروف. انا أودّ ان تكون البلاد جمعوريّة أو جمهوريات، ولكن هذا لا يمكن اليوم وقد يمكن في المستقبل بناء على ان هذا النوع من الحكم سيتمّ. ولو كنت في مقام رجال الدولة انفسهم وكنت حريصاً على ملكي كنت ادخل عليه الاصلاح اللامركزي على الصورة المتقدّمة من نفسي حرصاً على دولتي ومملكتي وشعوبي. أقول ذلك وانا على يقين من أن كثيرين يحمدون ربّهم على ما يرتعون فيه، ولكن ابناءهم سيقولون لهم تماماً ما أقول، وأين يكونون حينئذٍ. ولكن التاريخ سيقول لهم انهم كانوا في ضلال مبين.

الدكتور شبلي شميّل
كانون الثاني (يناير) ١٩١٣

لبنان مثل المملكة كلّها

[الأهرام: ١٩١٣/١/٢١]

«جونية فرضة قديمة ومع ذلك فلم ترس فيها إلاّ باخرة واحدة مرّة واحدة. واما النبي يونس فلا تزوره البواخر على الاطلاق».

[من كتاب: خلاصة الحكمة التركيّة، لكامل باشا]

هذا نصّ تلغراف كامل باشا الصدر الأعظم لبعض وجهاء مدينة بيروت يطمئنهم على مصالحهم لخوفهم عليها من مزاحمة المرفأين اللبنانيين مرفأهم، كأنه يقول لهم ان المرافىء لا تعمر إلاّ بعمار الداخليّة. ونحن قد اتخذنا الاحتياطات اللازمة حتى يبقى الجبل في خراب بدلاً من ان يقول لهم لا تخافوا فإن العمار يجلب العمار كما ان «القمل يجلب الصئبان». ولكن كامل باشا لو قال هذا القول لاعترف خلافاً للمعقول بان الاصلاحات التي أنعم بها على لبنان اليوم كافية لاصلاحه وهو بثاقب فكره لا يقدر ان يعتقه ذلك لا منها ولا من مهمّة حاكمه الجديد، ولا من مساعي اللبنانيين انفسهم بعد كل هذا الصياح.

انا لا أفهم الحكمة البالغة من إصرار البيروتيين على بقاء مدينتهم كالورم المشوّه أو كالجسم المشوّه منفصلة عن لبنان تائهة كالرأس بلا جسم وهي منه كالثغر من الوجه وهي المرفأ الطبيعي له. وإن كنت افهم اغراض بعض الدول في مقاومتها لهذا الضمّ لا لمصلحة اللبنانيين ولا لمصلحة أهل بيروت بل لقضاء مصالح لها على ظهور الذين تُقضى المصالح على ظهورهم. وكنت افهم اكثر مسلك الدولة في ذلك بناءً على سياتها العامّة في تعمير بلادها حتى بلغت بها هذا الدرك لحكمة اخرى لا يدركها إلاّ الملهمون وحدهم. وإلاّ فبيروت لا تُضام في مصالحها المالية بالاسم بل تنتفع وربما افادها ذلك جداً في تصليح طرقها وسدّ ثلماتها بتراب الجبل وحجارته... ولكن بيروت كرهت ضيفها الجديد... ويضيمها شيء آخر ايضاً... وقد تشعر بغضاضة عن هذا الضمّ وهي مدينة... والجبل جَبَل... ولو انا في سوء الحال كبعض الامراء الذين لم يبقَ لهم من الامارة سوى الاسم. وكانت تلتجىء إلى هذا الجبل في مصائبها فراراً من القلاقل والأوبئة.

متصرّف لبنان برح الآستانة. واليوم او غداً سيصل الى مقر مأموريته وكان يرجو منه اللبنانيون ان يجاملهم وينزل في ميناء جونية. والظاهر ان التعليمات المزوّد بها لا تسمح له بهذه المجاملة إذ يقال انه أنبأهم بانه مضطرّ لأن ينزل في ميناء بيروت لانها أقرب الى مقام المتصرفيّة... وسيقيم في بيروت كسالفيه أيضاً. ولعل لكل ذلك معاني اخرى سياسيّة تنطبق على معنى تلغراف كامل باشا. ولا بأس فالمسألة ليست مسألة شرف ما دامت النتيجة واحدة في الاصلاح الموعود... ولا أظن ان مركز المتصرّف يحرج كثيراً بذلك.

فليطمئن صديقي النجّار [ابراهيم سليم النجّار] فإن الموظفين المتزلّفين سيهرعون للقائه حتى البحر ويتلألأون على سطح الماء في ميناء بيروت كالشهب السواقط ويسيرون به بالاهازيج وعلى طلقات البارود إلى مقرّ ملكه.

والصائحون اليوم سيخرجون غداً منهم عن كم... ومنهم عن يأس ومنهم عن... وصول إلى الغرض. فكم من صائح اليوم منا لإصلاح لبنان واصلاح المملكة العثمانية يقف الاصلاح عنده عند حدّ وصوله؟

لبنان اذا نام اليوم قضي عليه القضاء الأخير لأن نصيبه مما يسمّونه اصلاحات ليس فيه من معنى الاصلاح إلاّ الاسم. فالإصلاح الذي لا يرمي الى غايتين كبيرتين وهما نشر التعليم وتعمير الأرض ليس باصلاح إلاّ عند الذين يعتبرون ان الاصلاح تغيير زيد بعمرو. وتعمير الأرض ونشر التعليم لا بد لهما من مورد لا يقوم به تغيير عضو بعضو كما اسفر تمخض الدول الست. حتى ولا إعادة المساحة ولذا تكون هذه عند التدقيق تنزيل الحمل عن ظهر ووضعه على ظهر آخر وذلك وإن كان عدلاً فالزيادة المزعومة منه لا تفي بالغرض. والاعتماد على الدولة في المال الموعود ضربٌ من الاعتماد على البحث عند اصحاب التوكل وعندي ضربٌ من المستحيل.

فالذي لا يستطيع ان يعين نفسه كيف يستطيع إعانة سواه.

فتح المرافق للبنان حسن إذا زادوا بها مورد رزقه أي إذا كان دخل الكمرك للبنان لا لسواه وإلاّ فهو احتلال جديد لزيادة نفوذ الدولة وثلمة كبرى مع الزمان في استقلال لبنان نفسه. فكيف بها اذا كانت اسماً لرسم على خارطة فقط، كما يقول رجال الدولة انفسهم. وإذا لم تتسع مع ذلك موارد رزق لبنان الداخليّة من زراعته الملغاة وخصوصاً إذا بقي سهل البقاع مفصولاً عنه، فإن ضيق اللبنانيين لا يزول. فإذا كان لبنان في الماضي خسر اكثر رجاله العاملين فانه اليوم مدفوع بتسهيل السفر من هذه الموانىء لخسارة الباقين حتى النساء والأطفال. فإذا لم يسع المتصرف الجديد باسترداد اراض لبنان الأصليّة فإن سهولة المهاجرة حينئذٍ ستأتي عكس البقيّة الباقية من اللبنانيين وتدفعهم إلى الاغترار هرباً من الضيق.

فمهمّة المتصرّف الجديد اليوم شاقّة جداً وبسيطة للغاية. شاقّة إذا ظنّ ان اللبنانيين تكفيهم هذه المطالب الفارغة التي نالوها اليوم على الورق واكثرها كان لهم في الماضي. وأقلّ اضرارها إقفار لبنان من السكان، على انه يوجد حكومات يبهجها ذلك وهي حكومتنا حتى اليوم.

وبسيطة إذا أراد ان ينظر إلى مصلحة لبنان النافعة وهي توسيع نطاقه الى حدوده الطبيعية قبل كل شيء، ثم توفير دخل مرافئه له. فإذا فعل فهو في غنى عن مساعدة أي كان بالتخدير أو الترويق بالمواعيد أو الكلام. فإن لم يفعل فالعلاج المسكن، كما يقال في الطب، لم يعد ينفع اليوم، والمريض عند «حدّ الفصلين» كما يقال في لغة العامّة الطبيّة.

انا لا اشك بحسن نيّة المتصرّف، كما يقول صديقي المذكور (ابراهيم سليم النجاّر) بل أميل إلى الاعتقاد بحسن ثقة الدولة اليوم بل بحسن نيّة كل صائح منا يطلب الاصلاح. ولكن الذي اشك فيه جداً جدّاً جدّاً هو صدق العلم وصدق الخبرة وصدق التربية الاجتماعية ـ كما أبنت ذلك في مقالاتي السابقة وخصوصاً مقالة «حاجتنا في الاصلاح إلى الرجال» المنشورة في الاهرام [١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣]. ولعلّ شركة الغاز في بيروت تنبئك بشيء من ذلك. ولأجل ذلك طلبت الالتجاء إلى الأجانب في إصلاح المملكة كلها للتحقق من نيله وحرصاً على بقائنا. والغريب بعد ذلك كله ان أرى حضرة ابراهيم افندي النجّار يوجّه الخطاب لي ويطلب مني ان اعطه رجالاً وأنا أفتّش عليهم بالفتيلة والسراج، فلم أجد اقرب الناس إلى «الرجال» الاّ عند سوانا وأغرب من ذلك انه يطلبهم معي من الأجانب لإصلاح المملكة العثمانية في رسالته من الآستانة. ثم بعد حقلين في نفس العدد المنشورة فيه رسالته هذه ينكرهم عليّ في اصلاح لبنان كأنه يريد ان يحرجني لأخلقهم له تماماً من رجال البلاد بعد ان أبنت مبلغ ثقتي بكل من تربّى تربيتنا وتعلّم علمنا.

ولعلّه لم ينكر عليّ إلاّ طلبين: جعل لبنان إمارة، بل جعل بعض ولايات الدولة امارات ايضاً تعلمنا ان ذلك لا يتمّ تحقيقه لأسباب خارجية تضيف مطامع الدول بنا، وداخلية تضيع عمرنا لو تمّت ونحن في يأس من الحياة. فما انا إلاّ مقرّر حقيقة عسى يرعوي فنفهم مصلحتنا الحقيقيّة، ولاعتباره كذلك ان المتصرّف الحسن النيّة يكفي «اذا لم يفسد عليه اولاد الحلال» مهمّته. ولكي لا يفسد اولاد الحلال هذه المهمّة طلبت انا ان يكون هذا المتصرّف اميراً اجنبيّاً عالماً بثبات مركزه شاعراً بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه وان يزَود باختصاصيين لجميع فروع الإدارة والعلم والعمل من الأجانب المشهود لهم بل من الميّالين منهم ايضاً لتعليم الأهالي ولاستعمار الأرض واستثمارها بالطريقة اللازمة «اليوم».

على ان صاحبي أجلّني جداً اذ نظر اليّ نظره إلى فيلسوف ولكنه رآني كفيلسوف ذهلت من تاريخ نهوض الأمم «وانه لا يكون إلاّ بالتدريج» كأن الفلسفة حلية من حلى العلم الخياليّة لا تنطبق على العمل. وقد كان ذلك لما كانت الفلسفة نظرية كما كانت في الماضي حيث انتجت لنا تلك السياسة العرجاء العوجاء التي لا نزال نتسكّع فيها حتى اليوم وانتجت سائر العلوم الأخرى التي تستقي مبادئها منها. وأما السياسة التي نتوكأ عليها ـ اذ آجاز لي هذا الادعاء ـ فهي فلسفة علميّة موجودة من درس الطبيعة نفسها ومبنيّة على العلم ونواميس الاجتماع الطبيعي الآخذة في الانتشار اليوم جدّاً رغماً عن مقاومة اصحاب العلوم النظرية الآخذ بنيانها الهائل بالتداعي.

ونواميس هذا العلم الطبيعي، كما انها تعلّمني ان الطفرة في الكلّ محال، هي تعلّمني ايضاً ان الانتظار في الجزئيات كلّما اشتد التنازع بينها مضيعة للضعيف وعقبة للقوي لا تذهب بغلبته ولكن تذهب بالوقت الذي هو خسارة على المجموع. فإذا كان العمران الكلي يرتقي بالتدريج وقد يتباطأ احياناً كثيرة جداً لقلّة النظير وعدم التناظر وضعف التنازع. فالعمران الجزئي لا يتيسّر مطلقاً بهذه الصورة إذا كثر التناظر واشتد التنازع. وإنما يتحقق فيه حينئذٍ المثل القائل: «متى يأتي الدواء من العراق يكون العليل قد فارق».

فإذا انا طلبت السرعة وعيّنت الدواء الفعّال، فلعلمي الأكيد ان العمران اليوم والتنازع فيه في جدّ جدّيته ومعظم شدته، لا يصبر علينا حتى نكتسب من انفسنا العلم والخبرة والتربية الاجتماعية الراقية التي كلّفت سوانا من مهج الرجال وتبديد القوى وإضاعة الوقت ما لا يحصى. فطلبت هذه السرعة من الذين ملكوا تلك الصفات وجازوا هذه العقبات قبلنا لتستخدمهم عمراناً في مصالحنا الخاصة غير مفترين قبل ان يبتلعونا سادة مستغرقين وبعض الشرّ أهون من بعض.

فإذا كان طلبي هذا يبدو لبعضهم من قبيل الاحلام لصعوبة تحقيقه لمناظرات الدول الطامعة فينا ولغفلتنا نحن انفسنا، لا لتعذره اجتماعيّاً، فأمل حصولنا على الارتقاء اليوم بأنفسنا مع حصول استقلالنا حلمٌ اعرق في الاحلام ووهمٌ ارسخ في الأوهام لتعذّره بالكليّة بناء على العلم ونواميس الاجتماع الطبيعيّة التي لا تقدم إلاّ لماع النهي والتي لا ترجم ولا تخضع مطلقاً لتخرّطات السياسيين مهما علا كعبهم في علم المراوغة ومهما اشتدّت صولتهم في قوتهم.

على اني وقد قرّرت ذلك ولو من قبيل العلم، أراني مضطراً مع الأسف لأن افشي الى اولئك الذين لا يزال لديهم كل ريب في صحة ما أقول سرّاً هائلاً بيني وبينهم ولو انه «سرّ بالمقلاع» ـ كما يقال في المثل، أي على صفحات الجرائد. وهذا السرّ هوانه لا طلبي سيتمّ لوجود

كثيرين منا لن يتمكنوا من ان يفهموه وحتى لو فهموه وعملوا له من تلقاء انفسهم لوقاهم دوقي الدولة معهم إلى أجل بعيد. ولربما لم تعارض به الدول الطامعة ولو من قبيل الحياء. ولا متعناهم سيتمّ لانه مستحيل اليوم لنواميس اجتماعية طبيعيّة. والذي سيتمّ هو اننا اليوم انتقلنا من سبات الحياة إلى حشرجة النزع كما يدل عليه تخبّطنا، وما بعد النزع إلّا الموت لـولا انه لا مـوت بل افـراغ إلى المجتمع الكلي الراقي وهو عزاء كل من يستهويه العمار ويكره الدمار وتعجيله خير من تأجيله للذي يحبّ العمران الحقيقي.

افلا يرى صديقي نجّار افتدي انه خير له ان يطلب لا تلقيح الاغنياء من كفّي الناعمة بل ان يجرّب التناضح بأفكاري وهي ليست بهذا النضوب وأنا ألقيها بيننا عفواً ومن دون تقتير. أم هي أحلام ايضاً. «ومع ذلك فهي حقائق» - كما يقول غليلي!

مصر، في ١٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٦٣

الدكتور شبلي شميّل

اللبنانيون وإصلاح وطنهم

[الأهرام، ١٠ مارس (آذار) ١٩١٣].

ظلَّ اللبنانيون سنة كاملة يوالون الطلب من الباب العالي ومن الدول الضامنة استقلالهم الإداري لتعديل بروتوكول تعيين المتصرِّف تعديلاً يزيل الحوائل التي تحول دون اصلاح وطنهم. فلم ينالوا من هذا التعديل شيئاً كبيراً لأن المتصرف لا يزال الملك المطلق يفعل ما يشاء ويعزل ويولي ويستبدّ. ويمنع مجلس الادارة عن وضع اللوائح والقوانين اللازمة لضبط الأمور واجرائها مجرى حسناً. ولما وصل متصرف لبنان الجديد إلى مركزه الظاهر بمعاونة المجلس على الاصلاح. إلاّ ان الأخبار الواردة على اللبنانيين هنا تنبيء بأنه بدأ ينهج منهج من تقدّموه من المتصرفين ومن بعض الممثلين للوظائف بدأوا يقدمون له مصالح بلادهم قرباناً على هيكل طمعه بالسلطة. وكان اللبنانيون يأملون نهاية مشكلة نظام الحكم في بلادهم، فإذا بهم يرون اليوم انهم لم يبدأوا إلاّ بالنهاية. وقد اشتهرت في لبنان جريدة زحلة الفتاة بمبادئها الوطنية الحماسيّة فوجّه إليها حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميل الرسالة الآتية. وقد أوصل إلينا صورة عنها وهي بنصها:

إلى جريدة زحلة الفتاة

أيتها الفتاة:

أيأسٌ أم جبن أم هما معاً؟ أم نال اللبنانيون الاصلاح المطلوب؟ فإني أرى انحساراً من جهة، وطغياناً من أخرى. وعما قريب ستنقلب حركتكم إلى جزر، وسطوة الحكومة بكم إلى مَدّ.

ويسوءني جداً أن أرى اخوانكم في المهجر منشغلين بالأحزاب المركزية والتغني تارة بهذا الفائز والانحاء أخرى على ذلك الساقط. كأن ليس لنا إلاّ وظيفة طبّالين. ولو تروا قليلاً لعلموا أن آفتهم من هذا وذاك. وما دفعهم إلى هذا الاغتراب إلاّ هذا الشكل المركزي مجتمعاً غير مفترق، القديم كالجديد، والعجوز كالفتى. ولو تستطيعون نشر أكثر لصرّحت لكم أكثر. أم ما هي هذه السحب التي طغت على المدارك فشجبت عنها فهم أبسط الأشياء فهماً حتى انّا نسمع في جرائدهم هذه اللهجات المختلفة. فإن أرادوا الاهتمام بالكل أفلا يسعهم أن يسعوا إليه إلاّ من وراء هذا أو ذلك. والاثنان في «الهوى سوا». أما أنا رجعي أيضاً في زعم مَن أتمنى لهم - ولا أتمنى - أن يكونوا رجعيين نظيري. ولو أنصفوا لعلموا اني رجعي إلى تفضيل البداوة على حضارتنا في كل أطوارها. وإن كان يجوز للتاريخ أن يسمي حالة العثمانيين من أولها إلى اليوم: حضارة. وإن كانوا لا يستطيعون، أفلا يكون أليق بهم أن يقصروا كل قواهم وكل بذلهم على مصلحة لبنان الجميل المسكين.

إذا فشل اللبنانيون هذه المرة - وامارات الفشل أخذت تبدو عليهم - فلا نهضة لهم بعدها وأقفر لبنان منهم. وما فشلهم إلاّ من اشتغالهم بالطوائف والأفراد. وما أسهل انضمام الجمهور لو صفت النيات. والذنب كل الذنب على اختلاف مناهج الجمعيات وأغراض الزعماء: هذا يقول نريد فلاناً لمصلحة فلان. وذاك يغضب لعزل فلان وتشطيب فلان. والعيب ليس في فلان

وفلان بل فينا وفي نظامنا. ضَعْ أصلح انسان وأقدره في مركز فاسد فلا يستطيع الاصلاح فيه. وبالضد، ضعْ حتى الرجل الفاسد في نظام تام راقٍ مستوفٍ كل شرائط الصلاح، لا يسعه إلاّ أن يكون صالحاً. فدعوا عنكم هذه الصغائر والتفتوا إلى المصلحة الحقيقية التي لا يستطيع حتى الخصم أن يقرعك فيها. فإن لم يساعدكم على نيلها فلا أقل من ان لا تخسروا احترامه.

لبنان لا يصلح بتغيير هذا العضو بذاك وبنيل نتف من حقوقه. فلا يجب أن يُقعدكم ذلك عن المطالبة بالكل. اتّحدوا واعلموا ان لاخوانكم الدروز شأناً كما لسائر الطوائف الأخرى فلتتسع جمعياتكم لهذا الضم ولهذا الادماج. واطلبوا جميعكم بصوت واحد حتى تصمّ أذن متصرفكم وآذان مجلس إدارتكم. اطلبوا منهم أن يكونوا معكم يداً واحدة في إيصال لبنان إلى حدوده الطبيعية، واسترداد أراضيه المغصوبة وحقوقه التامة في حكم نفسه. اطلبوا، اطلبوا ولا تملّوا، واحدثوا كل حدث لذلك. فإما ان تساعدكم حكومتكم بتصبيخ لكم الدول. وإلاّ فالسجون ليست دائماً مضرّة (مُعزّة). وكيف يستطيع العقلاء أن يدفعوا المطالب المعقولة التي يتوقف عليها العمار ولا تكون المعزّة في جانبهم. وحرّكوا هِمم اخوانكم في المهجر لينصروكم: هذا بسعيه عن اخلاص وذاك ببذله عن جود. وبغير هذه الخطة ما أنتم نائلون شيئاً حتى ولا فخر السعي الحميد، ولن تحصلوا من حكومتكم ومن الدول الأخرى كل احترام حتى الشفقة التي تجوز على الناس.

الدكتور شبلي شميل

رسالة تهنئة وتشجيع

١٩١٣

رسالة الدكتور شبلي شميّل الخصوصيّة للفتاة
حول وجوب ضمّ سهل البقاع إلى لبنان

من شبلي شميّل إلى زحلة

«تحيتي إلى بلدية زحلة وشبابها النشيطين، ولك أيتها «الفتاة» الممتلئة حياة على وضعكم لائحتكم الجميلة في ما خصّ وجوب ضم سهل البقاع إلى لبنان. وثابروا على خطتكم في جهادكم الحر، وحددوا المناخس لئلا يعود «المتململ» اليوم إلى سباته العميق، ولا ترجعوا عن طلب ما يرد إلى لبنان حدوده الطبيعية وكل مرافقه الحيوية».

* زحلة الفتاة، ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣.

دعوة إلى التمزيق

[الأهرام، ١٩ مارس (آذار) ١٩١٣].

ساء الحكومة المركزية ان ترى الأمة العثمانية ناهضة اليوم نهضة حقيقية. ولا سيما في سوريا العربية. فأوعزت إلى «بوقها» الجديد: «الحق يعلو» أن يبث بين الأقوام العثمانية العربية جهاراً ما كانت تبثه بينهم سراً من روح الشقاق والتفريق بين المسلمين والمسيحيين. مما أوصل المملكة العثمانية إلى هذا المستوى الراقي ارتقاء «دركياً» وحطّها في هذا الحضيض. فقد نقلت جريدة **الأهرام** عن هذه الجريدة الجديدة المنشأة بأموال تجبيها الحكومة من جميع عناصر الأمة العبارة الآتية وهي:

«يا قوم ان بينكم من أهل الذمة (لغة متعفّنة) الذين صافيتموهم (في دمشق وحاصبيا) وآخيتموهم وآزرتموهم (في بلاد البلغار وأرمينية وأضَنَة أخيراً) مَن لو لاحت بارقة رجاء في استباحة حرماتكم وانتهاب أسبابكم واسلابكم ما قعدوا دقيقة واحدة عن البطش بكم واستلاب ما ملكت أيديكم».

وقد علّقت **الأهرام** على ذلك بما يجب على نبهاء المسلمين قبل النصارى أن يصغوا إليه لإزالة أثره السيء من نفوس العامة الجاهلة.

والغريب ان الحكومة التي منعت دخول **المؤيد** و**المقطم** وغيرهما إلى بلاد سورية ـ وهي الجرائد التي تجني منها الأمة فوائد أقلها حثُّهم على الوفاق وتنبيههم إلى أسباب نجاحهم التي بمثلها ارتقت الأمم والحكومات حتى صار البون بيننا وبينها ما بين الأرض والسماء ـ هذه الحكومة التي رأت نتيجة سياستها التخريبية في الماضي. فلم تعتبر، هي التي تنفق اليوم على هذه الجريدة وتسمح لها بالصدور بهذه اللهجة في عاصمتها ولا تحبسها عن دخول المملكة والانتشار بين الشعب لتمهد بذور الشقاق قبل أن تخنقها الحركة الاصلاحية الجديدة وتجهز عليها.

أيها المسلمون، أتعلمون مغزى دعوة الحكومة لكم اليوم بلسان جريدة **الحق يعلو**؟ هي تقول لكم قوموا على النصارى الذين بينكم كما كان يحصل في الماضي على قلّة في البلاد العربية وعلى كثرة في سواها، حتى إذا فرغتم أنتم منهم اتجهت هي إليكم، لأن الدلائل تدل على انها في العهدين لا يروق لها أن تحكم إلاّ على بلاد قاحلة قفراء وسكانها جهلاء أذلاء، لولا انها هي بذلك تسعى إلى حتفها بظلفها وتسهل للأجانب امتلاك قصبتها المجزوزة.

ولكن ساء اليوم فأل جريدة الحق وفأل الذين ينصرونها. فالزمان الأول قد تحول ولا سيما في البلاد السورية. فإن الأمة التي يقوم منها اليوم رجال كالعسلي [**شكري العسلي** ١٨٦٨ ـ ١٩١٦] يرفض وظيفة الاسترضاء أو تنال البلاد الاصلاح المطلوب. والتي تهبّ هبّة واحدة لتأليف الكلمات [الجمعيات] الاصلاحية في كل مكان في سوريا ومصر والمهجر، لم تعد تنطلي على نبهائها مثل هذه الخزعبلات التي تضرب على أوتار الأديان والعواطف لتعمّ على العقول الضعيفة والبلاد أمماً وشعوباً ليتمتع بالخير القصير الأمد لا يستطيع أن يعدّهم التاريخ إلاّ

جناية جُلبت على الأرض التي خربت. جناية على الكنوز الطبيعية الكامنة فيها والتي جنت على الناس الذين أقفرت الأرض منهم وذبحوا بجعلهم عالة على المجتمع البشري بل اجتماعياً سيحاربهم المجتمع ان ظلوا على هذه الحال كما يحارب الآفات المرضية اليوم.

فيا أيها المسلمون العرب عموماً والسوريون خصوصاً! إني أخاطبكم اليوم مخاطبة رجل لرجل. أنتم ترون بعينكم وتسمعون بأذنكم ما صارت إليه الأمم الغربية من العمار وما أنتم به من الخراب والدّال على علوّ مكانتها واتساعها وعلى ما أنتم به من الاستعباد الفطري ذكاء. فإن كنتم لا ترون الفرق العظيم بينكم وبين الممالك الأخرى ومصلحة هذه الممالك ومصلحتكم أنتم، فثابروا على الخطة المميتة التفريقية والتخريبية والتي تدعوكم إليها جريدة الحق اليوم. وإلاّ فاعلموا ان هذه الأمم لم ترتق بمعجزة استعمارية بل ببذلها النفس والنفيس حتى أصبحت شريكة حكامها المستبدين في كل أمورهم وحتى صار لها الشأن الأول في الحكم والتدبير وللحكومة الشأن الثاني. وما أجدر حكومتكم أن تكون هي نفسها الساعية إلى ذلك بالتوفيق لا بالتفريق وبالحكمة لا بالخَرق حرصاً على مصلحتها ومصلحة أممها معها.

وأنتم، أيها السوريون عموماً، ترون السُمّ الناقع الذي تريد جريدة الحق ان تجرعكم إياه. فأدعوكم لاجتماعٍ عمومي تحتجون به على سكوت الحكومة على مثل هذه المنشورات التي لا يعلم عظم ضررها إلاّ الذي يعلم شدة أثر المخمّرات في الطبائع المستبدة. والعامة حتى اليوم محتاجة جداً إلى الهداية. وأرجو من رجال الاصلاحات في كل المدن السورية أن يهبّوا هبّتهم لمقاومة هذه الحركة الشنيعة الجديدة، عساهم أن يقتلوا جرثومتها في مطمرها قبل أن تنتشر وتتفرّع أغصانها. وذلك بالخطابة والكتابة وكل ما ينير الأذهان. وأطلب على نوع خاص من رجال اصلاحية مصر كـ **رفيق العظم** [١٨٦٧ ـ ١٩٢٥] **والشيخ رشيد رضا** [١٨٦٥ ـ ١٩٣٥] **والزهراوي** [١٨٥٥ ـ ١٩١٦] أن يصدّوا الوباء عن بلادهم وأمتهم. وإلاّ فالشر الذي ينتظر الجميع من ذلك هو اليوم أكبر جداً منه في الماضي. فمَن له أذنان فليسمع ومَن له عقل فليَعِ».

الدكتور شميل

تعقيب الأهرام:

نحن نستنكر مع حضرة العالم الفاضل الدكتور شميّل خطّة الحق يعلو ولكننا نوقن بأن حكومتنا لا تعرف ما تبذره تلك الجريدة. فهي تساعدها بنيّة حسنة. ومتى ظهر لها فساد خطّة هذه الجريدة. تمنع عنها المساعدة وتهديها إلى الطريق القويم.

من قبضاي القلم
إلى قبضايات السيف

الدكتور شميل يغضب باسماً،

إلى اخواني «قبضايات» بيروت

قرأت عنكم أخيراً ما ساءني وسرّني في آن واحد. ساءني لأنه دلّني على أن الشر طبيعة متأصلة فينا وتغيير الطبع صعب. وسرني لأني رأيتكم هذه المرة تعتدون على قنصل دولة فخيمة ترتجف منها أعصاب الدول ومن ضمنها دولتنا. وإذا كان لا بد من عمل الشر فلنكن فيه كباراً مع الكبار لا كما كنّا نفعل حتى الساعة مع المساكين منا الذين لا حول لهم ولا صول. فما تأباه نفوسنا الكبيرة. وإن انطبق على مرامينا السيئة، وطباعنا تميل إلى الفخر حتى في عمل الشر. والعمل العظيم ولو أنه شرّ فيه لذة عظيمة. سائلوا عن ذلك نفوسكم في سركم. بل سائلوا كبار اللصوص. وكبار العشائر وكبار رجال المال وكبار الفاتحين الغازين أنفسهم فقد يكونون جميعهم في الهوى سواء. فلا نضيع هذه المفخرة منا في الصغائر التي ينطفىء خبرها «كالريشة في الرجمة» ونفوسنا من فضل الله تميل إلى الكبائر. وأي شيء أكبر من أن يكون الخصم كبيراً والعمل شاقاً. ألا ترون كيف أن الضجة اليوم قامت حولكم ورجال القنصلية يقومون ويقعدون، والحكومة نفسها تهتم بالأمر فوق العادة وربما أخذت الأبرياء بجريرتكم وعوضت المسلوب من جيبها ترضية له واخلاء لسبيلها من المسؤولية لراحة بالها مع انكم لم تزهقوا هذه المرة على جاري عادتكم «روحاً» ولم تسلبوا ساعة ونقوداً معدودة. فاستحلفكم بالله العظيم يا اخواني «القبضايات» المحترمين أن لا تتدّنوا في أفعالكم إلى الاعتداء المبتذل على معيل أطفال مساكين أو وحيد أرملة حزينة لا يهتم لها أحد من الحكام ولا من الدول العظام بل كونوا كباراً حتى في جرائمكم عسى أن يصير لكم شأن عند ذوي الشأن ويرتاح الناس الآمنون. والسلام على من اتبع الضلال ما دام الهدى عندنا بهذه الحال.

أقلبكم على كل المعاني عسى أن التقي فيكم سميعا

الدكتور شبلي شميّل

● مجلة سركيس ـ العدد الثاني، السنة الثامنة، أول فبراير (شباط) ١٩١٤، ص ٣٨ ـ ٣٩.

مـاذا فـي بيـروت
على ذكر الحادث الأخير فيها

المقطم ١٩١٤/٥/٢٠

أي حكامنا، أفيكم من يعرف الواجب عليه ويحسن القيام بـه حتى نرجـو منكم خيراً ونسطر لكم ذلك في الكتب وعلى صفحات قلوبنا.

وأنت أيتها الأمة المتخاذلة هل فيك مَن يتأثر حقيقة للمشاهد القبيحة التي تمثـل كل يوم أمـامك وعـلى حسابـك حتى نقول إن لـك بقيَّة حيـاة تفعم قلوبنا أمـلاً فنقوم ننشدها.

ما دام الحاكم يعتبر الوظيفة حقاً له يتقاضاه ولو من دم الأمة فأي إصلاح ننتظر منه.

ومـا دامت الأمة تعتبـر الفظائـع التي تحل بهـا بأيـدي حكامهـا أموراً عـاديـة لا تستوجب نفوراً أو تقويماً فهل هي إلاَّ أمة ميتة.

خَفَت صـوتي كثيراً في هـذه المدة الأخيـرة فصفَّق قوم وربمـا ألصقـوا بي مـا هـو ألصق بأخلاقهم وفاتهم أن الذي عَجَّز الملائكة والشياطين لا يعجز عن أن يعجزني أنا أيضاً.

بَدَرت مني نبرات متقـطعة كحشـرجة المحتضر فقـال قوم مـا هذا اليـأس المثّبط للهمم وأخذوا يحاسبـونني عليه حتى أشفقت عـلى نفسي من أن أحاسبهـا معهم وفاتهم أنه يأس أشـد من وخز الحـراب لمن بهم حياة عسى أن يكـون ذلك مني صـورة أخرى لتحـريك الهمم وانهاضهـا من خمولهـا بضربهـا في مطارع عـزّتها ومن لا يحـرص عـلى كرامته مهما كان صاحب خرق وطيش لعله يطلبها من غير السبيل الذي ضلَّ بها فيه.

لم يسمع من عهد الوالي رشيد أمثـال الحوادث التي نسمـع بها اليـوم من تعدّي رجـال الأمن على الأمن وقتلهم الأبـرياء عـلى قـارعـة الـطريق بحجـة انهم يـطاردون الأشقياء كما حصل من عهد غير بعيد.

أيريدون أن يحـرجوا الأمـة الخانعـة كالغنم إذ يـظهرون أمـامها وحـوشاً كـاسرة فتتخلّق بأخلاق الـذئاب وتنهشهم كـما ينهشونها كـما حصل أخيـراً فقتل أحـد الأشقياء أحد رجال البوليس وأطلق ساقيه للريح.

جناية فظيعة تستحق أشد العقاب ولكنها تستحقه ضمن دائرة القانون.

سل حكومات الدنيا هل يجوز لرجال الحفظ إذا قبضوا على الجاني الحقيقي المتلبّس بالجناية أن يوسعوه ضرباً وتعذيباً وينزلوا به كل أنواع التنكيل وهم يسوقونه إلى المحاكمة. وماذا يكون سلوكها مع رجالها الذين يرتكبون كل هذه المخالفة للقانون وكيف يكون صوت الأمة حينئذٍ فكيف لو كان المقبوض عليه متهماً فقط لا دليل ثابت على أنه الجاني الحقيقي.

بل ما قولهم لو أن هؤلاء المحافظين على الأمن تمادوا في تعديهم فانقضوا كالوحوش على البيوت الآمنة وطاردوا النساء والأطفال وساقوهم بالحديد ولا ذنب لهم إلّا أنه ليس هناك عدل يدفع عنهم.

بالحقيقة أن أمر هذه الأمة العثمانية مع حكامها غريب.

وأغرب منه أن لا تجد من أهل بيروت أنفسهم ومن صحافتهم من يهتم بهذا الأمر كأنه شيء بسيط لا يُؤْبَه له. وربما استسخفوني لإعطائي هذه المسألة كل هذه الأهمية فقالوا ما بال صاحبنا بعد أن نام نوم أهل الكهف هبّ كأن البلاد في ثورة وما دروا أن هذه الصغائر ميزان كل شيء ومقدمة للكبائر كذلك.

نحن نعلم ماذا عملت الحكومة في هذا الحادث. فإنها على جاري عادتها لم تعمل شيئاً. ولكن أنتم أيها الأعيان والرؤساء ماذا كان وقع ذلك فيكم وماذا أخذتم له من الاحتياطات. بالأمس كان التعدي من الأمة على الأمة لجهل أنتم تعلمون من المسؤول عنه ولأغراض أنتم أدرى بها. وأما اليوم فقد صار من رجال الحكومة على الأمة حتى استنسر البغاث وقام ينشب أظفاره برجال الحكومة أنفسهم. فإذا استمر الحال هل تأمنون امتداد الشر إليكم. وحينئذٍ هل يكون العدل غير ذلك؟ فاتّقوا الذي تتقونه «يا ناس» في مصلحتكم وفي ناموسكم واعذروني.

علمونا من واجبات حقوقاً نيلها عندنا هو المطلوب
علّمونا أن الهنا من هناء الغير منّا صحيحه مكسوب
إنما نحن مثل أعضاء جسم إن نؤلّم فكلّه معصوب

الدكتور شبلي شميّل

رحلة مباركة
في سبيل لبنان

مجلة سركيس العدد الثاني / السنة الثامنة، ١٩١٤، ص ٥٤ ـ ٥٦

مرّ عليّ في هذه الأونة اثنان من خيرة المجاهدين. أحدهما الشيخ الوقور صاحب المهذب والثاني الفتى الجريء محرر زحلة الفتاة. وقد ضاق عليهما المحيط فقصدا اخوانهما في المهجر يستنصرانهم لا لشؤونهما الخاصة بل لشؤون أبناء أمتهما العامة، بعد أن يعرجا على بلاد المدنية يقتبسان محاسنها ويستميلان عطف رجالها النيرين القادرين. ولعلمي بما انطويا عليه كلاهما من الاخلاص في الخدمة والثبات في المبدأ لا أشك أنهما سيؤوبان من هجرتهما بفوائد يسطّرها لهما لبنان بالشكر والامتنان.

كل منهما ينصر مبدئاً ولكنهما يرميان فيه إلى غاية واحدة «هي عمار البلاد» واصلاح حال العباد. فصاحب المهذب يجاهد جهاد الأبطال بحنكة الكهل وحكمة الشيخ لتحرير العقول من قيود التعصب الذميم. وتطهيرها من صدأ السخافات، ليفتح منافذها لقبول حسنات العمران التي يراها كثيرون من المبصرين اليوم. ولكنهم لا يعون منها شيئاً كأنهم عميان. ولقد أكبرت منه هذه الهمّة في سن يقعد فيه المجاهدون.

وتلميذه ـ لأنه تلميذه حقيقة ـ محرر زحلة الفتاة. الفتى المقدام الذي وددت لو تمثلت فيه شبابي وتمنيت لو أنه يعود لي ومعه الاعتقاد في الحياة أو الأمل في الغد والحمية التي لا تملكها نفس شيخ قانط مثلي ويوم يرى الأفق أسود قاتماً، شاب صحافي أشتم من مطالعتي مقالاته رائحة الجبل الأشم ينفح منذ عامين روحاً جديدة في لبنان، ويصرخ دوماً مع الأرض الصارخة من تخريب المخربين ـ والأرض الباقية أفضل من الناس الزائلين ـ يرفع صوته عالياً، لا يتعب ولا يملّ لتأييد حقوق السكان. وقام مؤخراً يدافع دفاع المصارعين عن شرف أمته وتاريخها المجيد.

فيا أيها المجاهدان الكريمان سيرا صائحين في أوروبا وأميركا اننا أمة يتهددها الانقراض والأرض من ورائها خراب واننا نريد الحياة الفخورة والذكر المجيد من أي باب أتيا. وأنتم يا اخوان المهجر حققوا الآمال واجمعوا قواكم المتشتتة وردّدوا القول «المحبّة المرتبة تبتدىء بالذات» وأي أقرب إليكم من مصلحة جبلكم الشامخ. فإن

أخذتموه بكل قواكم تكونون قد خدمتم أنفسكم وقمتم بـالواجب عليكم نحـو وطنكم وأمتكم ونحو المجتمع الأكبر نفسه حتى لا تبقى عليه عالة ولا نكون فيه كما نحن اليوم أعضاء عاطلين.

وأنتم يا أهل لبنـان في الوطن الأصـلي كم شكوتم في المـاضي من سوء تصـرف حكامكم السابقين أو كأني بمتصرفكم الجديد رجل يود لكم كلّ خير فهل أنتم له اليوم أعوان بغير الكلام؟ وهل لمجلس إدارتكم أن يكـون له خـير مرشـد وخير نصـير؟ فلا يقعد بكم الصعب عن الطموح إلى الأصعب لصون حقـوق لبنان كـما يجب أن تكون للعمار لا كما هي الآن للانقراض والدمار.

الدكتور شبلي شميّل

* * *

رسالة إلى رئيس الولايات المتحدة الاميركيّة

هل بعث الدكتور شبلي شميّل برسالة أو كتاب مفتوح إلى الرئيس وودرو ويلسون؟ من المؤكّد ان ثيودور روزفلت لم يزل في سدّة الرئاسة الاميركيّة حينذاك. ربما تزامنت هذه الرسالة مع رسالة شميّل إلى العالم الألماني ارنست هكل. فالمقطع الوارد أدناه يؤكد لنا ان الكاتب يخاطب الشخص موضوع الرسالة بـ «سيادة الرئيس».

Lettre au Président des Etats-Unis

«D'un cœur meurtri et dans un état d'âme tout de désespoir, désespoir de la dégénérescence de cette civilisation scientifique que la *Kultur* allemande a cyniquement entachée de tout ce qui fait renaître dans les cœurs les sentiments ataviques les plus sauvages et confiant en l'homme public que vous êtes, M. le Président, dont la voix autorisée remue les masses, je m'adresse à vous pour faire parvenir ces faits à la connaissance du public américain. Que ce grand et généreux peuple intervienne énergiquement pour ouvrir la voie et faire parvenir aux malheureux survivants de cette mort atroce les vivres qui abondent autour d'eux ou ceux que les différents comités de secours leur proposeront».

«هذه الحرب الجنونيّة، اسأمتني حتى أسقمتني»

أصخور أم صدور؟

الدكتور نمر يبكي، والدكتور شميل يزمجر

[يروي بخّاش* في افتتاحية وقائع اللقاء الذي جرى في مصر بين مرسل اميركي كان في ما مضي رئيساً لمدرسة سوق الغرب في لبنان وبين كل من فارس نمر والدكتور شميّل على النحو التالي:]

«دخل على العالِم الشيخ ـ فارس نمر ـ وسأله عما في سوريا، [فـ] وضع الدكتور يديه على رأسه وأخذ يبكي ويتنهد كطفل صغير ثم قال للمرسل بصوت يقاطعه الدمع: لقد جاهدت من أجل بلادي ثلاثين عاماً. وأنفقت ثلاثين عاماً من حياتي عاملاً على إصلاح الشرق وإنهاض سوريا، حتى ابيض رأسي وأنهكت السنون قواي، ولقد كنت عازماً على العودة إلى مسقط رأسي لأموت بطمأنينة تحت سماء وطني. أما الآن فإني أعتقد بأني إذا عدت إلى هنالك فلن أجد أحداً يدفنني في تربة أجدادي... لأن من لا يموت اليوم شنقاً، فسيموت جوعاً.»

[وحين جاء المرسل إلى منزل الدكتور شبلي الشميّل]:

«فرأى الفيلسوف غاضباً مزمجراً، مرت عليه أسابيع لم يغادر منزله، ولم يخالط أحداً، فكأن نكبة وطنه أثرت فيه إلى حدٍ زهد معه في الدنيا، ويئس من الحياة. فأقفل نوافذه: ولم يشأ أن يرى النور، وأبت نفسه الكبيرة أن يلقى في الشارع رجلاً يضحك ويسعد لاهياً».

«دخل المرسل عليه وهو كذلك وأخبره أنه عائد إلى نيويورك وسأله عما يمكنه أن يفعل لإنقاذ سوريا ولبنان. فصاح الشميل صيحة جازت أعماق نفس هذا الأميركي الذي قابلناه هنا منذ يومين فروى لنا هذا النبأ وهو يهتز تأثراً من مرأى فيلسوف الشرق الذي قال له»:

---

* عنوان الافتتاحية التي نشرها شكري بخّاش صاحب جريدة زحلة الفتاة على الصفحة الأولى بكاملها، في عدد ٢٦ تموز (يوليو) ١٩١٦، وقد استأنف بخّاش إصدار صحيفته من نيويورك منذ شهر آذار (مارس) ١٩١٦.

«لقد بتّ أتمنى أن يموت الناس بأجمعهم. وتحلّ بهذا الكون ضربة تفني الانسانية عن بكرة أبيها. فبلادي، بلادي التي اضطهدت كثيراً من أجلها، تنقرض اليوم. وليس من معين. فهل قضي عليَّ أن ترى شيخوختي هذا البلاء الأكبر؟ لتمت أوروبا كلها. ولتمت أميركا كلها ما زالت بلادي مائتة كلها».

[ومن ثم ينتقل شكري بخّاش إلى مخاطبة المغتربين لكي يحثهم على تقديم العون والمساعدة إلى أهلهم في الوطن]:

«بالله عليكم أيها المهاجرون، إن المال وحده اليوم سلاحكم. أفتضنّون به على أمتكم الجائعة؟ إن كبار علمائكم وفلاسفتكم يذرفون الدموع مدراراً. أتتقاعسون عن تضحية المال. حيث أن الدم ملأ بقاع الأرض وأرجاءها؟»

برقية الدكتور شميّل الاحتجاجية
١٩١٤

«إلى طلعت بك «ناظر داخلية الحكومة التركية»:

عَدَل القضاء في زمن دولتكم مرة واحدة فانتقمتم للظلم من العدل ونفيتم القاضي العادل إلى سيواس. فيا ويلكم (من الله) ويا ويل أنفسنا منكم».

شبلي شميّل

● القاضي العادل هو سعيد زين الدين (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥) والد السيد نظيرة زين الدين مؤلفة كتاب «السفور والحجاب». تولى سعيد زين الدين منصب النيابة العامة الاستئنافية في بيروت عام ١٩١٤، بعد نقله إليها من متصرفية القدس. واتخذ القاضي النزيه موقفاً مشرفاً إبان حادثة إلياس رفول الشهيرة، إذ جرى اعتقال رفول هذا بتهمة إطلاق النار على أحد رجال الدرك قرب مدرسة الحكمة. واعتبرت الحكومة أن حادثة الاغتيال تخفي وراءها دوافع سياسية لتعكير صفو الأمن. لكن الياس رفول لم يكن الفاعل، علماً بأن الوالي تستّر على القاتل الحقيقي وأمر بإرسال رفول إلى السجن. وهنا أطلع القاضي زين الدين على أوراق القضية وملابساتها، فانتصر لرفول المظلوم وأحال رجال الشرطة إلى المحاكمة. مما حمل الوالي على نقله إلى «سيواس» التي كانت مقراً للمنفيين.

سوريا ومستقبلها

(١٩١٥)*

* نُشِرَت مقالة الدكتور شميّل في كرّاس من ٢٩ صفحة: مطبعة المُقَطَّم، ٢٥ اكتوبر (ت ١) ١٩١٥، القاهرة. وأعادت نشرها جريدة «لسان الحال» في العام ١٩١٩، تحت العنوان التالي: «السوريون ومستقبلهم» ـ رأي الدكتور شبلي شميل سنة ١٩١٥. انظر: لسان الحال، أعداد ٢٠ و٢١ و٢٢ أيار (مايو) ١٩١٩. واستهلّتها بالتقديم الآتي:
«قبل أن فاضت أنفاس المرحوم الدكتور شبلي شميل ببضعة أشهر كتب رسالة عنوانها سوريا ومستقبلها جاءت تحية ووداعاً للبلاد التي رجا ذلك الفقيد الكريم أن لا تلمس شفتاه غير ترابها يوم لا يبقى له إرادة.
وكأن ذلك القلب الكبير في صدره الرحيب أحس بدنو الأجل فأهدى عاطفته الأخيرة إلى الوطن الذي طالما خفق له قلبه.
وفي الرسالة وصف وطني فيلسوف لحالة سوريا وأبناء سوريا ودمعة محرقة على شهدائها ونبوءة صادقة عن مستقبلهم وقد أردنا أن ننقل ما كتب إلى اللسان ليطلع السوريون على أقوال فقيدهم.»

ـ ١ ـ

سوريا لا ينقصها شيء من المواهب الطبيعية لتكون في عداد الدول الممتازة في العمران. فتربتها خصبة وأنهارها كثيرة وأمطارها وافية تنجح فيها كل أصناف المزروعات وفيها من المعادن للأيدي العاملة ما يغني الصناعة عن سواها وموقعها الجغرافي المتوسط بين البلدان والمتصل بالبحر يجعلها من المراكز التجارية المعدودة ذات الشأن. وقد كانت كذلك منذ القديم أي منذ أيام الفينيقيين سكانها الأولين الذين هم أول من ركبوا بتجاراتهم البحار وداروا حول العالم. واقليمها المعتدل وهواؤها البليل وماؤها العليل مع سرعة الانتقال من أوديتها إلى سهولها إلى جبالها كل ذلك يجعلها من أفضل المواقع الصحية ومن أجملها ومن أغناها بنفسها عن سواها وناسها يستمدون من طبيعة اقليمهم نشاطاً لأن طبيعة كل بلاد تؤثر في طبائع أهلها فتكسبهم نشاطاً أو فتوراً بحسب ذلك. وفي الأمثال المأثورة عن السوريين «أن اعرجهم بلغ الصين» ويمكن أن يقال اليوم «إن أمّيهم زاحم سكان العالمين»، ولم يسمع بمجتمع في أقاصي الكرة الأرضية إلاَّ راده. فمن هذا القبيل لا ينقص سوريا والسوريين شيء ليكونوا في طليعة الأمم في العمران.

ولكن إذا كان للطبيعة اليد الكبرى والأولى في تكييف طبائع البشر وطبع أثر فيها لا يمحى فإن للصناعة يداً في ذلك ذات شأن، ولو انها ثانوية وأثرها زائل. فلقد مرّت على السوري حقاب شغله بها الفاتحون حتى استتبت الغلبة عليه أخيراً للسيف. والسوري فاتح ولكن بالأعمال النافعة كالملاحة والتجارة. فصرفه ذلك عن مهامه المطبوع عليها وأفقده كثيراً من أسباب الاستقلال والتدرب على الأعمال، وتنازعته عوامل أخرى غير العوامل السياسية فمزقته مذاهب وذهبت بوحدته وأفقدته مزايا التربية القومية وأبعدته عن الأعمال الاشتراكية مراحل حتى لم يعد يقوى على مناهضة أي مريد به شراً ولو في شبه نهضته الأخيرة اليوم.

فالسوري اليوم وإن كان لم يمح من طبيعته ما لا يمحى من النشاط الفطري والاقدام والذكاء مما هو مكتسب من طبيعة بلاده إلاّ أنه فاقد للأسباب الأخرى المشار إليها آنفاً. أهم شيء تحتاج إليه الأمم في نهضتها مما يكتسب بالاختبار والمزاولة ويفقد بفقدهما. وأهم هذه الأسباب نوع الحكومات وما كانت حكوماته حتى اليوم إلاّ من شر المدارس له. والسوري محتاج إلى الدرس طويلاً ليسترد ما فقده من العِلم بأسباب العمران بل أن يعمل بنفسه زماناً أطول في معامله الاختبارية ليتدرب فيها على حسن العمل كما ينقص ذلك سائر الشعوب التي رزحت تحت نير الظلم زماناً طويلاً.

قلت إن السوري بات لا يقوى على مناهضة من يريد به شراً وأريد به كأمة لأن تفرّق المذاهب أفقده العصبية الجامعة الكبرى التي لا تنهض أمة بسواها، ولأن الجهل الذي خيَّم عليه كل هذه القرون ولا سيما تحت الحكم العثماني أفقده كل مزايا العلم الذي لا يستتب استقلال إلاّ به. فتفرّق المذاهب جعل فيه بدلاً من العصبية الواحدة عصبيات كل واحدة تقاوم الأخرى وتضعف كلمة المجموع. والجهل جعله بالقياس إلى الأمم الراقية كأنه لا يزال في البداوة الأولى في سائر مرافقه لا غنى له بنفسه عنها ولا طاقة له عن رد غاراتها عنه. وجاءت سياسة حكومته تمكن ذلك فيه وتنفره منها بالمظالم التي أرهقته بها فأفقدته حتى العصبية السياسية التي ينضم تحتها أقوام مختلفون تصونهم فيصونونها. فأصبح السوريون في مجموعهم كالكريات التائهة السابحة في محيط الاجتماع قبل أن تتضام وتكوّن جسماً تاماً يضارع الأجسام المعروفة. فإذا كان السوري كفرد يُعد في الاجتماع جوهراً ثميناً نظراً إلى مزاياه الطبيعية فهو كمجموع لا يزال عالة عليه فهو كالماسة الغشيمة قبل أن تصقلها يد الصانع الماهر شأن سائر الأقوام الذين هم في أحواله وما أكثرهم حتى اليوم.

والسوري سريع التحصيل للعلوم كافة، فالمتعلم ولو بعض العلم اذا تحدث أو كتب أو خطب في العلوم الاجتماعية التي تقتضي سعة نظر لم يضق به المجال بل نقل إليك مبادىء أشهر أساطين علماء الاجتماع المتأخرين وبيّن لك مزيتها على سواها

وعلق عليها بما يدل على أنه فاهم جيداً. ولكنك لو تحريته عاملاً لرأيت أنه راوٍ فقط لأن العلم شيء وانغراس مبادئه في الطبائع شيء آخر. وما الذكاء بمغنٍ وحده عن طول المزاولة في العمل المحكم.

وهو سهل الاقتباس أيضاً فقد لا يكون من يضارعه في سرعة الحكم بمزايا الأمم الراقية واقتباس محاسنها حتى انه ليتمثلها في كل شيء. ولكن ذلك فيه لا يتعدى الظواهر على الأكثر ويقتصر على الفرد وحده ولا يمتد منه إلى المجموع لأن السوري فرد كما تقدم وليس بمجموع. ولهذا فهو يخضع غالباً للظلم ولا يقوى على مناهضة هاضمي حقوقه.

- ٢ -

السوريون ومستقبلهم

ما يحتاج إليه السوريون

أدرك السوري اليوم موضع الضعف فيه لتعدد مساعيه لمداواته وهو لا يجهل أنه في نهضته الأخيرة محتاج إلى ثلاثة أمور جوهرية لا يصلح له حال ولا يتم استقلال إلاّ بها.

أولاً: إلى قوة تنجده وتخرجه من نوع الحكم الذي هو فيه وتصونه من نظائره.
ثانياً: إلى شرائع توحده وتصونه من نفسه.
ثالثاً: إلى علم يرشده وصناعة تعضده يضمنان له شيئاً من الفوز في معترك الحياة.

ومع أنه لا شيء من ذلك فيه نرى من حركات البعض ما يدل على الضد كأنهم يتوهمون أنهم قادرون على تدارك ذلك فيهم بأنفسهم ناظرين إلى ما بهم من الاستعداد الحسن وذاهلين عما ينقصهم من المزايا الأخرى الاجتماعية التي لا يقوى مجموع إلاّ بها كأن الإرادة الصالحة وحدها كافية لأن تقوم مقام المعرفة والاختبار والتدرب على الأعمال. ثم يبنون على ذلك العلالي والقصور في أمر استقلالهم والاستغناء عن سواهم في شؤونهم مع علمهم بأن حركاتهم لا تجديهم نفعاً. وقد تجني عليهم في حكم الآخرين وتقبض عنهم الأيدي الممدودة لانتشالهم مما هم فيه. ولو كانت حركاتهم وحدها تجدي أو تنفعهم لما صبروا على الضيم تحت نير حكومة تركية لم يروا منها غير المظالم.

قال لي أحد نبهاء السوريين في سياق حديث من هذا القبيل «لتكفّ الدول ـ وسمى دولتين ـ يدها عنّا ونحن العرب نريك كيف نستقل عن الترك». وهو قول إن كان فيه شيء من الصحة في الماضي بالنظر إلى الدول فليس فيه شيء من ذلك بالنظر إلينا. فأية حركة جدية فعلية أتيناها في وجهنا. وما هي الحركة التي قمنا بها اليوم والدول في ميل إلينا والمظالم تنتابنا تترى.

والصحيح الذي لا غبار عليه هو أننا لا في الماضي ولا في الحاضر قمنا بشيء من ذلك. ولا كان في مستطاعنا ولا هو اليوم لتفرّق كلمتنا ولتنابذنا بمرامينا في طوائفنا ولفقدنا كل وسائل القوة التي تؤيد بها المطالب من عدة وسواها لو اجتمعت لنا كلمة. ولا أظن أن الحركة الاصلاحية التي ظهرت من عهد قريب كان يقصد بها سوى لفت النظر إلينا لعل الفرج يأتينا بحوادث من مثل الحوادث الجارية اليوم والمرجو أن تخرجنا تماماً من حالتنا القديمة مهما تكن النتيجة.

حسن أن يتغنى الانسان باستقلاله وينشده بكل قواه ويترفع به مما يشوبه. ولكن أحسن من ذلك أن يسعى إليه من أقرب الطرق الموصلة إليه المأمونة المضمونة على أيدي أناس خبيرين ساروا في هذا المضمار شوطاً بعيداً فيكونون له بمقام الاساتذة المرشدين. ذلك خير له من استقلال غير مضمون ولا مأمون يقوم فيه التذبذب مقام الاختبار والدعوى مقام العلم والمعرفة والفوضى مقام الانتظام. والسوري العارف يجب أن يكون بعيداً عن ذلك حتى إذا نال قسطه الوافر من العلم والاختبار والتدرب على حسن العمل نال عفواً ما لا يبقي به من حاجة إلى طلبه. ولا يجوز للسوري أن يجهل ذلك أو يكابر فيه تغليباً لهواه على عقله وهو السريع التحصيل لأقل نظر في العلم والمقارنة، ولا سيما «إن الشك ـ كما يقولون ـ أول مراتب اليقين». فمعرفة الانسان ما ينقصه وعدم انخداعه فيما يستطيعه خطوة واسعة في سبيل إصلاح نفسه.

ـ ٣ ـ

السوريون ومستقبلهم

حالة سوريا الادارية والسياسية

بعضنا يصبو إلى الاستقلال التام وحجته أن الانسان أخلص لنفسه من سواه وهو قول حق. ولكن مثل هذا الاستقلال يحتاج قبل كل شيء إلى قوة تدعمه وتصد عنه كل اعتداء عليه من خارج. ونحن ليس عندنا قوة لا للحصول عليه ولا للاحتفاظ به. فكأن طالبي مثل هذا الاستقلال في أحوالنا الحاضرة ساعون بحركاتهم إلى إضاعته من أقرب السبل وبأول فرصة.

ومنّا فريق يعرف حق المعرفة ان ليس في مستطاعنا أن نحصل على استقلال سياسي ولكنه مع ذلك يطلب استقلالاً إدارياً تاماً بحماية دولة أو دول تدفع عنا من خارج، ولكنها تتركنا أحراراً في إدارة شؤوننا الداخلية. يطلب ذلك من الدول ويطلب أن تضمنه وأن تتعهد لنا بحيادها. ونحن لا نجهل اليوم قيمة هذه الضمانات. يطلب ذلك وهو لا شك مقتنع بأن في إمكاننا إدارة شؤوننا بنفسنا على ما يرام.

ونحن إذا تجرّدنا عن الهوى قد نقول إنه ربما عرفنا أن ندير شؤوننا أحسن مما هي عليه الآن. وأنا أشك ـ ولكننا بكل يقين نديرها على غير ما يرضي إذا كانت وجهتنا العمار بمعناه التام. فتعمير البلدان اليوم يتطلب أموراً كثيرة نجهلها ولا نستطيعها من تثقيف عقول وتقويم تربية وسن نظامات وشرائع شاملة عادلة وحسن قيام على تطبيقها وإصلاح طرق وري وتحسين زراعة وعلم بالتعدين ومد سكك حديدية، الخ. وكل ذلك يتطلب علوماً ومعارف كثيرة من طبيعية وكيماوية وهندسية. ويتطلب صناعة راقية ومالاً طائلاً وخبرة تامة. وأين نحن من ذلك كله! ومع ذلك يطلب لنا هذا النوع من الاستقلال لنلعب به كأنه من الأكر. بل يطلب من الدول أن تهبنا إياه وأن نتطوع في ذلك حباً بما يقطع النظر عن كل مصلحة أخرى حتى المصلحة العامة. ولا يخفى ما في هذا الطلب من التجني والدلال كما يفعل من نحن في العمران اليوم نظراؤهم في السن.

فإذا جاز للشعب أن يجهل كل ذلك فلا أظن أنه يجوز للشعب السوري أن يجهله اليوم. ولا سيما بعد ما رأى بعينيه وخبر بنفسه ما جنى لبنان من مثل هذا النظام كل هذه السنين فكأنه لم يستفد به شيئاً من تطريئات العمران بل فقد أشياء به من محاسن الفطرة.

على أن منا فريقاً لم يذهب عنه عيوب مثل هذا النوع من الاستقلال. وهو لذلك يطلب أن يضم إلينا اختصاصيين أجانب لا علاقة لهم سياسية أو إدارية بدولهم، وفي زعمه أن ذلك كان لتدارك هذا النقص وهو وهم فادح. لأن العيب يبقى حينئذٍ في نظام هيئة الادارة العامة نفسها ولا يكون مركز هؤلاء الاختصاصيين لديها إلاّ مركز موظفين فقط. هذا علاوة على أن المال اللازم للقيام بالاصلاح المطلوب في حينه ليس متوفراً من داخل وليس هناك ثقة كافية للحصول عليه من خارج.

فحيال كل هذه الصعوبات لا مندوحة للسوري الطامح إلى مستوى راقٍ والراغب في تعمير بلاده واصلاح شؤونه عن الانقياد في البداءة عن طيبة نفس للسيطرة التامة عليه في كل أموره إلى أن يتاح له مع الزمن والاجتهاد القيام بها وحده

وإلاَّ فكل استقلال يطلبه من غير هذا السبيل وهو خلو من أقل مقوماته ليس إلاَّ إضاعة له وإضاعة كل أمل به والوقوع في الفوضى والاستسلام أخيراً إلى العبودية التامة.

فاعتصام السوري بنفسه في تدبير شؤونه على ضعفه المعهود وعدم كفاءته خرق يفضي به حتماً إلى ما لا يجب مع الدول ذات المصالح في بلاده فيقع تحت سيطرتها ولا يستفيد الفائدة المطلوبة من هذه السيطرة بالنظر إلى روح العداء الذي يكون في صدره ضدها فلا هو يخلص لها وهي تضطر أن تحذره. والضرر من ذلك عليه أكثر.

بيان جمال باشا

عن شهداء ١٩١٥*

«وقد كانت الحكومة السنية استخبرت عن «الجمعية الثورية العربية» التي غايتها الفساد، والمجتمعة في مصر تحت عنوان «حزب اللامركزية» الظاهري، ومرماها فصل البلاد السورية والعراقية عن الممالك العثمانية وجعلها حكومة مستقلة تحت حماية الانكليز. وإن منتسبي هذه الجمعية يجرؤا على ارتكاب الفظائع الجنائية لأجل الوصول إلى غايتهم الشنعاء، وما ينتج عنه من وضع جميع المسلمين تحت ذل الاسار».

وبما أنه من الأمور البديهية عدم حصول أدنى ضرر عمومي في المملكة بحركات بضع أشخاص ممن لا أخلاق لهم من متبعي أهوائهم ومنافعهم الخسيسة، لما عليه القوم العربي النجيب من عواطف الاخلاص والإحساسات الدينية العالية، التي لا ريب فيها أصلاً.

وكنا بدأنا لإجراء التعقيبات السرية لأجل قمع مضرات هؤلاء المفسدين ورفع شرورهم لعلمنا أن أعداء الدين والمملكة يريدون أن ينتهزوا أدنى فرصة يرقبونها. كنا ظننا أن رفيق العظم وأحد أقاربه حقي العظم المعروفين بسوء الأخلاق لدى عموم السوريين، المترئسين هذه الجمعية أن يكفوا عن خيانتهم تجاه الوطن بعد اندلاع الحرب العمومي، ويعدلوا عن مساعيهم بالاشتراك مع الانكليز الذين هم أعداء الاسلام والعثمانية، والساعين لاضمحلال بلادها.

ولكننا فهمنا بكل أسف أن هؤلاء الأشخاص لم يزالوا ساعين بأكثر أماكن البلاد السورية لحصول آمالهم الشيطانية بعد اعلان الحرب أيضاً. وعليه قد كنا أودعنا الوثائق المهمة وأوراق المخابرة التي استحصلنا عليها من بدء المسألة إلى ديوان الحرب العرفي في عاليه. وكان ابتدر هذا الديوان لاجراء محاكمة من لهم علاقة بالمسألة.

وقد فهم من التحقيقات والمحاكمات العميقة والدقيقة أن هؤلاء المجترئين كانوا قد عقدوا النية على ترتيب شراذم عديدة ليجوسوا خلال الديار، ويقلقوا الأمن والراحة في البلاد، بارتكاب الجرائم ويجسروا على قتل أركان الحكومة وكثيرين من

---

* أوراق لبنانية، المجلد الثاني، جزء ٤، نيسان ١٩٥٦، ص ٢٠٥ - ٢٠٨.

الذوات وغيرهم. وتحقق بأن هؤلاء كانوا دائبين على ترتيب الجنايات العظيمة، كالقتل وايقاع الفتن الداخلية في البلاد على حساب الأعداء، إذ ذاك جميع العالم الاسلامي مشغول في حل أحد الأمرين: إما الموت أو الحياة.

وقد قرر الديوان الحربي العرفي المذكور، بموجب المادة الرابعة والخمسين من قانون الجزاء، الحكم بالاعدام وجاهاً، على كل من:

عبدالكريم الخليل رئيس نادي المنتدى الأدبي وأحد وكلاء الدعاوى (أي: محام)، وسليم الأحمد عبدالهادي من أشراف قضاء جنين (فلسطين) وأحد أعضاء مجلس إدارتها، ومحمد المحمصاني البيروتي المجاز من مكتب الحقوق بباريز، وأخيه محمود المحمصاني التاجر في بيروت، ومحمود العجم التاجر في بيروت، ونور القاضي وعبدالقادر الخرسا من أشراف بيروت. ومحمد علي الارمنازي من أهالي حما وصاحب جريدة «نهر العاصي»، ونايف أفندي تلو، الراقي لمأمورية تحصيل لواء الكرك أخيراً من مأمورية تحصيل قضاء بقاع العزيز، ومحمد مسلم أفندي عابدين الشامي مأمور أوقاف لواء اللاذقية، وصالح بك حيدر رئيس بلدية بعلبك، وحافظ بك سعيد من يافة، مبعوث القدس السابق، وسعيد أفندي الكرمي مفتي قضاء بني صعب (فلسطين).

وكذلك بموجب المادة المذكورة، حكم بالاعدام غياباً ـ لفرارهم قبل الحرب إلى مصر وللبلاد الأجنبية المختلفة، ولعدم تيسر توقيفهم ـ على كل من:

رفيق وحقي العظم، المعلومين الأحوال، من أشراف الشام، والشيخ رشيد رضا الطرابلسي صاحب مجلة «المنار» المعروفة بمصر، وداود بركات رئيس محرري جريدة «الأهرام» المنتشرة بمصر، وفارس نمر رئيس محرري جريدة «المقطم»، والدكتور شبلي شميل، وخليل مطران، وابراهيم النجار، وجورج عبدالمسيح من محرري «المقطم» وجبرائيل اصفر، وكيل دعاوى، ونجيب عازوري، وجورج وعزيز بحري، وأمير خليل أبي اللمع، وخليل بولاد وكيل دعاوى، وأمين بك البستاني، ويوسف البستاني، وحبيب البستاني المهندس، وفيلي شيحا، ونجيب قطان، ونجيب قريصاتي، وجان عبيد، ونجيب غناجه، والدكتور عرزوزي، ونعمة الله غانم، وروفائيل غره، وميشال بك لطف الله والدكتور يوسف كحيل، والشيخ يوسف الخازن، وجورج خير، ورشيد بك خياط وكيل دعاوى، وادمون ملحمه، والدكتور خليل مشاقه، ويوسف سمعان صيدناوي، والياس حيني زنانيري وكيل دعاوى، وسليم شميل، ويوسف حبيب زنانيري، والياس زهار، والفونس زينيه وكيل دعاوى، وهم من القضاوات المختلفة في سوريا، وفؤاد الخطيب الشامي (كذا، وهو من شحيم في جبل

لبنان) وقسطنطين يني من حمص (كذا، وهو من بيروت) وعبد الحفيظ أفندي محمود الحسن.

وكذلك حكم بالاعدام غياباً، لفرارهم بعد دعوتهم لديوان الحرب لأجل استجوابهم، على كل من عبدالغني العريسي من أهالي بيروت وصاحب جريدة «المفيد»، وحسن أفندي حماد من أشراف نابلس، وعمر أفندي حمد من معلمي المدارس العثمانية في بيروت.

وحكم بالنفي المؤبد: على كل من رضا بك الصلح مبعوث بيروت السابق وابنه رياض الصلح، وأسعد بك حيدر من بعلبك، والدكتور حسين بك حيدر من متعهدي النافعة.

وقد أنفذ حكم الاعدام، اليوم صباحاً، على:

عبدالكريم الخليل، وسليم الأحد عبدالهادي، ومحمد ومحمود المحمصاني، ومحمود العجم، ونور القاضي، وعبدالقادر خرسا، وعلي الارمنازي، ونايف تلو، ومسلم عابدين، وصالح حيدر.

وبما أن حافظ بك اليافي (يريد حافظ السعيد مبعوث القدس الذي ورد اسمه في أول البيان) وسعيد الكرمي مفتي بني صعب هما من المتقدمين في السن، ومن منتسبي العلم، استنسب استعطاف المراحم السلطانية بتحويل حكم الاعدام بالكورك (السجن) المؤبد، وعرض الكيفية للاعتاب السنية.

وأدرجنا أدناه بعض الفقرات المندرجة في الوثائق والبيانات التي استوجبت محكوميتهم، ليتضح الأمر بنظر عالم الاسلامية والانسانية(؟!) ما لهؤلاء المحكومين من المقاصد السيئة الخائنة. وإنما ما لم ندرجه من الفقرات من هذه الوثائق هو بقصد عدم إشكال التحقيقات الجارية بحق رفاقهم ومشاركيهم الأشرار الذين لم نتمكن بعد من القبض عليهم.

وسننشر قريباً صور المكاتيب المستنسخة عن الأصل، بالتصوير الشمسي عيناً» ا. هـ

عن جريدة «البلاغ» البيروتية، العدد الـ ٣٦١
الصادر السبت في ١٠ شوال ١٣٣٣ و٢١ آب ١٩١٥

«دَعنا في جهلنا، يا حضرة العالِم، ودَع عِلمك لبلادك»!

العالم بعد ٦٠ سنة

«او امتياز قناة السويس وحقوق مصر»

ان الناظر الى مصالح الامم والباحث في حقوق الاوطان لا يسلم حكمه من الخطل الأ اذا نظر الى ذلك من خلال البحث في طبائع العمران ليقف على نواميسه في سيره البعيد وعلى تقلباته في اطواره المختلفة. والباحث في ذلك لا يسعه الا الاقرار بان حركة العمران الارتقائية اليوم اسرع جداً منها في الماضي.

فقد كانت هذه الحركة في الماضي بطيئة للغاية تمر على العمران آلاف السنين وهو واقف لا يتغير سواء كان في علومه او صناعاته او شرائعه. يتقلب فيها على غير هدى ويعود فيها من حيث اتى.

فكانت علوم اليونان وفلسفتهم وشرائعهم وسائر نظاماتهم حتى اوائل القرن الماضي موضوع بحث الاجيال التابعة يستقون منها ويتخبطون فيها ويتناقلونها لينسجوا على منوالها كأنها الغاية في الكمال والنهاية في الحسن حتى رسخ في الاذهان ان غاية الانسان من ارتقائه في العمران هو الوقوف عند فهم فلسفة ارسطو وطب ابقراط وكيمياء هرمس وعلوم ارخميدس. وتطبيق شرائعه على شرائع تلك العصور المتحيرة في ظلمات الجهل والموسومة على تباينها بميسم الاثرة والاستبداد.

وكانت الصناعات بسيطة جداً وقائمة على استخدام قوى الحيوان والقوى الطبيعية الاخرى البسيطة كهبوب الرياح ومجاري المياه والجاذبية العامة فكان الناس ينتقلون من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر على الجمال والخيل والعجلات في البر والمراكب الشراعية في البحر ولا يخفى كم كان يقتضي لذلك من المشقات والزمن مما كان يجعل المسافات بين الاقطار متباعدة جداً والمصالح العامة بين الامم متباينة كذلك.

وكانت الشرائع بناء على هذا الفصل والتقاطع بين الافراد والجموع وبين البلدان والاقطار بسبب هذا التباعد اميل الى تأييد المصالح الخاصة المنفردة منها الى تأييد المصالح العامة المشتركة. فكانت حقوقاً ممتازة ينظر فيها الى مصلحة البعض لا الى مصلحة الجمهور والى مصلحة كل بلد لا الى مصلحة العالم. وكانت اكثر الآثار القديمة لخدمة اغراض خاصة لا آثاراً ذات شأن في المنافع العمومية. فكانت قصور ملوك كالخورنق والسدير ومقابر ملوك كالاهرام ومعابد آلهة كبعلبك. بل صار الملك حقاً خاصاً يجيز لصاحبه ان يصد به النفع العام. وكما قامت حقوق الافراد على هذا الاساس الواهي قامت حقوق البلدان والاوطان وضحوا بذلك المنافع العمومية على مذبح المصالح الخصوصية.

وما زال الانسان في المجتمع العمراني على هذا الحال شرائعه لا تتغير لجهله ومواصلاته لا تختلف ومصالحه لا تأتلف لبعد المسافات بين البلدان حتى اوائل القرن الماضي فارتقت حينئذٍ علومه الطبيعية واكتشف البخار اولاً ثم الكهربائية ووقف على الرابطة الذي يربط قوى الطبيعة بعضها ببعض فركب البخار وامتطى البرق وانطق الجماد فتقاربت المسافات بين الاقطار المتباعدة وارتقت صناعاته جداً والذي شهدناه من ذلك في النصف الاخير من القرن الماضي وفي العقد الاول من هذا القرن لم يذكر له مثيل في مئات الاجيال بل الوفها. حتى ان الاضاءة التي بقيت آلافاً من السنين لم تتغير السراج الذي كان مستعملاً على عهد الفراعنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً بيننا من عهد اربعين سنة اصبحت في هذه الآونة الاخيرة وامرها كل يوم في شأن من التفنن والابداع وقس على ذلك سائر الصناعات وسائر وسائل الانتقال بين البلدان بالبخار والكهرباء في البر والبحر وفي الهواء أيضاً.

وكما انه حصل هذا الارتقاء في العلوم والمخترعات والصناعات حصل ايضاً في الافكار فتغير نظر الانسان في الشرائع والحقوق والواجبات. فعلم عن يقين ان حقوق الافراد لا يجوز ان تبتلع في جوفها حقوق الجموع وان المنافع العمومية مقدمة على المنافع الخصوصية وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً فضعفت سطوة الملوك وما عهدنا بقيام الشعب في وجه تبجح بعض العواهل ببعيد. وعلم ان حقوق الامم هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم وحقوق العالم اجمع فوق كل مملكة. بل علم ايضاً ان المصالح المختلطة اليوم يجب ان تجعل وطن الانسان العالم كله لا بقعة في الارض نشأ فيها ودب عليها وان شريعة يجوز لها ان تحظر عليه هذا الطبيعي المقرر بالعلم والمصلحة اليوم. بل علم الانسان من كل ذلك ان الشرائع السائدة حتى اليوم موسومة بميسم الحيف وانه يجوز له الانتقاض عليها دفعاً لشرها وتعميماً لنفعها.

وقد بدت في الاجتماع البشري الراقي حركة هي كل يوم في شدة لنقض القديم وتأييد الحديث. والاشتراكية التي تنتفض لذكرها اعصاب الكثيرين اليوم لانهم لا يفهمونها على حقيقتها ليست الا تمخض الاجتماع بهذه المبادىء الحديثة لاقامتها على اطلال القديم الذي لا بدّ من نقضه عاجلاً أو آجلاً ولكنه اجل بالنسبة الى نظام الاجتماع قريب. ولا يدري مبلغ سرعة هذه الحركة الانتقاضية الارتقائية الا من تروّى قليلاً في مبلغ العلوم والصنائع في ارتقائها السريع في هذا العهد الاخير. وسنن الطبيعة في الاجتماع واحدة فهي في سرعتها دائماً بالقلب كمربع البعد بحيث ان الذي كان يلزم له مئات السنين بل ألوفها لأن يتغير في الماضي صار في الامكان اليوم أن يتغير في بضعه سنين.

وما حملني على هذا البيان الموجز الا ما رأيته من الحركة الانتقاضية الشديدة ضد مشروع تمديد قناة السويس مقابل مبلغ تتقاضاه مصر وتنتفع به قبل انقضاء اجل الامتياز المضروب اي قبل ستين سنة لا تنتفع مصر فيها بشيء. وعجبت جداً لما رأيت ان اكثر الباحثين في الموضوع وقفوا فيه كأنهم في الماضي لا ينظرون الى ما نحن فيه من الحركة الارتقائية الشديدة غير حاسبين

ادبي حساب لما سينجم عنها من التغيرات الاجتماعية المهمة في المستقبل القريب. وفي نظرنا ان الستين سنة اليوم هي بمقام ستة آلاف بل ستين الف سنة من سني الماضي ستصبح فيها المواطن بالنسبة الى العالم كالمدن بالنسبة الى الوطن الواحد وتغير حقوق المرور بالنظر الى ذلك.

فعسى الذين يهمهم امر مصر ان لا يذهب عليهم ذلك لئلا يضيعوا برفضهم حقاً راهناً محافظة على حق موهوم لانِ قناة السويس صارت اليوم للعالم اجمع من المنافع العمومية التي سوف لا يقرّها المستقبل القريب انها من حقوق مصر اكثر مما هي من حقوق الصين او اميركا. فعلى الجمعية العمومية ان احسنت رأياً النظر اليوم لا في قبول هذا العرض أو رفضه بل في تعديله وخصوصاً في كيفية صرفه في منافع مصر فذكّر علها تنفع الذكرى[1]

تمديد امتياز قناة السويس: ١٩٠٩

فقد قال لي بعضهم يوم انتقدت قرار الجمعية العمومية في مسألة القنال ما أرويه بالحرف قال: «اليوم الوحيد الذي «فازت» الأمة فيه على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك». وحتى الساعة لم اكن أدري ان الحكومة اليوم تشتغل بفكرة الشر وإنها عدوة الأمة وان كنت اعتقد ان الخطأ قد يتسرب إلى أشد الأعمال اخلاصاً. وقد مرَّ عليَّ وأنا في مصر نحو «أربعين سنة» ـ ما كفى پاناس اليوناني واقل منهُ لأن تتنازعهُ الوطنية الفرنساوية ـ شاهدتها فيها في الحالين وخبرتها في الطورين.

وتعزيتي الكبرى ان وطني أعم من ان ينحصر في بقعة من الأرض وان مصر الراشدة اعدل من ان تجوز عليَّ بمثل هذا الحكم. وقد خبرتني صديقاً مخلصاً كما خبرتها بلاداً تنسيك بحسن وفادتها الأوطان وقوماً يعيضونك بجميل عطفهم اهلاً بأهلٍ واخواناً باخوان. أو ان الصديق الصادق هو الأعمى في كل حال وإلاّ فهو العدو اللدود. وبئس مثل هذا الصديق».

---

(١) ولقائل ما فائدة الشركة من تمديد الامتياز وتحمل هذه الغرامة الزائدة اذا كان لا بد من سلبه منها قبل ستين سنة والجواب على ذلك ان الحال لو بقيت على ما هي عليه اليوم بين الشركة ومصر لسهل على التجارة الدولية سلب الامتياز ودفع التعويض اللازم في مدة قصيرة واما لو تم الاتفاق على التمديد وقامت الشركة باصلاحات اخرى استوجبت زيادة نفقات على القنال فان هذا التعويض يصبح اصعب ويجيز للشركة الانتفاق من امتيازها مدة اطول تستفيد منها فوائد مالية جمة لا تستفيدها هي ولا مصر ايضاً اذا بقيت الحال على ما هي عليه الآن.

● شميّل نشرها في الجزء الثاني من مجموعته (١٩١٠)، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦

اطالة امتياز القنال

[**المقتطف**. ج ٣٦ (١٩١٠)، ص ٢٠٥ - ٢٠٧]

١ - امتياز شركة قنال السويس (الذي كان ميعاد انتهائهِ في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨) يمتدُّ إلى ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٨.

٢ - تكون قسمة صافي الإيراد أو الأرباح السنوية باعتبار خمسين في المائة للحكومة المصرية وخمسين في المائة للشركة في المدة التي تبتدىءُ من أول يناير سنة ١٩٦٩ وتنتهي في ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٨ وذلك بمراعاة الشروط الآتية.

اولاً: إذا نقص صافي الإيراد أو الأرباح السنوية في سنة من السنين عن مائة مليون فرنك فتمتاز الشركة بأخذ خمسين مليون فرنك وتأخذ الحكومة المصرية ما يتبقى بعد هذا المبلغ.

ثانياً: إذا حدث في احدى السنين ان صافي الإيراد أو الأرباح السنوية يكون معادلاً لخمسين مليون فرنك أو ناقصاً عن هذا المبلغ فيكون كامل هذا الإيراد الصافي أو الأرباح حقاً للشركة.

ومقاسمة الحكومة المصرية للشركة في الأرباح تقضي على الحكومة بأن تتجاوز من أول يناير سنة ١٩٦٩ عن الخمسة عشر في المائة المقررة لها بمقتضى المادة ٦٣ من نظامنامة الشركة.

٣ - في مقابل امتداد اجل الامتياز تتعهد الشركة بأن تدفع إلى الحكومة المصرية في القاهرة مبلغ اربعة ملايين جنيه مصري (١٠٣,٦٩٤,٠٠٠ فرنك) على اربعة اقساط متساوية القيمة في ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ و١٥ ديسمبر ١٩١١ و١٥ ديسمبر سنة ١٩١٢ و١٥ ديسمبر سنة ١٩١٣.

٤ - وزيادة على ذلك تتعهد الشركة بأن تدفع في أول سنة ١٩٢١ للحكومة المصرية حصة من صافي الإيراد أو الأرباح على النسبة الآتية:

٤ في المائة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٣٠.
٦ في المائة من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٤٠.
٨ في المائة من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٥٠.
١٠ في المائة من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٦٠.
١٢ في المائة من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٨.

ويكون تقدير حصة الحكومة في الأرباح حسب القواعد المتبعة في تقدير ربح المساهمين بدون أي تمييز ويكون دفعها إليها في ذات المواعيد المحددة لدفع ربح المساهمين.

أما الشركة المدنية المنتفعة لغاية ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ بالخمسة عشر في المائة التي كانت من حقوق الحكومة بمقتضى المادة الثامنة عشرة من عقد الامتياز المؤرخ في ٥ يناير سنة ١٨٥٦ فلا تكون ملزومة بشيءٍ مما تتحملهُ شركة القنال من المنصوص عليهِ في المادة الثالثة الأنفة الذكر وفي هذه المادة.

٥ ـ عند تسوية حساب السنين التالية لسنة ١٩٦٨ لأجل تقدير حصة الحكومة في الأرباح على مقتضى المادة الثامنة من هذا الإتفاق لا يدخل في هذا الحساب إلاَّ فائدة واستهلاك القروض التي تعقد بعد سنة ١٩١٠ لاستعمالها في اعمال تحسين حالة القنال والموانىء الموصلة إليهِ التي يشرع فيها من ابتداء سنة ١٩١١ ويشترط أن يكون توزيع الفوائد والإستهلاك على اقساط سنوية متساوية عن كامل مدة هذه القروض.

ويكون تقدير حصة الحكومة حسب القواعد المتبعة في تقدير نصيب المساهمين من الأرباح ما لم تدع الحال لتطبيق القيود المدونة في الفقرة السالفة الذكر.

٦ ـ حساب الخمسين في المائة التي تخص الحكومة بعد انتهاء مدة الامتياز يكون عن الباقي من رأس مال الشركة بعد رجوع القنال إلى الحكومة طبقاً للشروط المدونة في عقد الإمتياز المؤرخ في ٥ يناير سنة ١٨٥٦.

٧ ـ تعترف الشركة بلزوم وجود نائبين عن الحكومة المصرية في مجلس إدارتها من ابتداء سنة ١٩٦٩ نظراً لأهمية حصة الحكومة في ارباح القنال.

وعلى ذلك قد تقرر من الآن بان للحكومة المصرية بناء على طلبها ثلاثة اعضاء على الأكثر تنتخبهم هي ويقدمهم مجلس الإدارة وتعينهم الجمعية العمومية حسب القواعد المتبعة.

٨ ـ بناء على طلب الشركة تتكفل الحكومة بعد انتهاء مدة الامتياز بدفع المعاشات والإعانات ومرتبات التقاعد التي يقتضيها تنفيذ اللوائح المتبعة الآن الخاصة بالمستخدمين ورؤساء البوغاز والعمال وقد سلمت الشركة للحكومة صورة من هذه اللوائح.

٩ ـ تتعهد الشركة بأن تجري في المستقبل على نفقتها اعمال الحفظ والصيانة والتحسينات التي تراها لازمة لجعل مداخل القنال من جهة السويس في حالة مرضية وتقبل ايضاً ان تتكفل بنفقات اعمال التطهير التي تباشرها الحكومة المصرية في ميناء السويس لتعميق الممر الموصل للقنال بشرطان لا تتجاوز هذه النفقات ٩٠٠٠٠ جنيه مصري (٢٣٣٣٠٧٠ فرنكاً).

١٠ ـ قد صار الاتفاق على ان جميع العقود والإتفاقات التي ابرمت قبل الآن بين الحكومة والشركة تعتبر نصوصها المتعلقة بمدة الإمتياز أو نهايته سواءً كانت هذه النصوص تشير إلى ذلك صريحاً أو ضمناً كأنها منطبقة على مدة الامتياز أو نهايته حسب امتدادهِ في الإتفاق الحالي.

١١ ـ لا يعتبر هذا الإتفاق نهائياً ولا يكون نافذ المفعول إلاَّ بعد مصادقة الجمعية العمومية لمساهمي الشركة.

وقد عرضت هذه الشروط على مجلس النظار في ٢٧ يناير فقرر ان تدخل فيها التعديلات التالية:

أولاً: إلغاء ضمانة الخمسين مليون فرنك الممنوحة للشركة بمقتضى المادة الثانية عن كل سنة من سني الإمتداد وبعبارة أخرى جعل قسمة الأرباح من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ٢٠٠٨ بالمناصفة الكاملة بدون خصم شيء ما تمتاز بهِ الشركة.

ثانياً: حفظ الحق للحكومة في نصف الأرباح لا يكون من أول يناير سنة ١٩٦٩ بل يبتدىءُ من ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ الذي هو تاريخ الإمتداد.

ثالثاً: حذف المادة الثامنة التي تلزم الحكومة ان تدفع في أول سنة ٢٠٠٩ الذي هو تاريخ نهاية الإمتياز معاشات مستخدمي الشركة ومرتبات تقاعدهم واعاناتهم.

وسيعرض هذا القرار على الجمعية العمومية في جلستها القادمة حتى إذا وافقت عليهِ جعل اساساً للمفاوضات بين الحكومة والشركة على إطالة مدة الإمتياز.

«لويس الرابع عشر، ملك فرانسا
ومحمد علي فاتح مصر»

ممن اشتهر من الملوك في العصور المتأخرة وحاكى بتنشيطه العلوم خلفاء الاسكندر الكبير اثنان وهما لويس الرابع عشر ملك فرانسا ومحمد علي فاتح مصر. وقد كتب فولطير الشهير الى اللورد هرفي كاتم اسرار انكلترا يعتذر اليه لتسميته تاريخ القرن الذي عاش فيه هذا الملك (١٦٤٣ - ١٧١٥) بقرن لويس الرابع عشر. قال من كلام ضاف يتبين منه فضل هذا الملك العظيم ما نصه: «فاي ملك افاد الجنس البشري من هذا القبيل اكثر من لويس الرابع عشر. وايُّ ملك عمت حسناته وحسنِ ذوقه وامتاز بتشييد الآثار اكثر منهُ - لا شك في انه لم يصنع كل ما كان يستطيعه لانه اكان بشراً وانما صنع اكثر من كل احد غيره لانه كان رجلاً عظيماً - واكبر سبب عندي لعظم اعتباره هو انه مع ارتكابه اغلاطاً معلومة أشهر من كل معاصريه. ومع انه كان سبباً لحرمان فرانسا من مليون من رجالها كل اوربا تعتبره وترفعه الى مقام اعظم الملوك وافضلهم».

فسمِ لي مولاي سلطاناً اجتذب اليه من الغرباء الحاذقين ونشط الاستحقاق في رعاياه اكثر منه. فانه كافأ دفعة واحدة ستين عالماً في اوربا على غير انتظارهم ان يكونوا معروفين منه. وقد كتب اليهم كوبرت يقول لهم «وان لم يكن الملك سلطانكم الاَّ انه يريد ان يكون محسناً اليكم وقد امر لي ان ارسل لكم السفتجة (تحويل بدراهم) المودعة من طيهِ كعلامةٍ على اعتباره اياكم» وعالمٌ بوهيمي وآخر دانوازي وصل اليهما من هذه الرسالات المؤرخة من فرسائل. وجوجلياني بنى بيتاً في فلورنسا من احسانات لويس الرابع عشر ونقش على بابه اسم هذا الملك. فكيف لا تريد ان يكون على راس القرن الذي اتكلم عنه». واما محمد علي العظيم جد العائلة الخديوية فمآثره في تنشيط العلم والعلماء على اختلاف اجناسهم لا تزال آثارها حتى اليوم ناطقة بعظيم فضله فهو المقول فيه في الفضل

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثارِ

ولعل هذا القول يكون عبرةً للمقتصدين في العلم اليوم*.

---

* - انظر مقالات شميّل «الطواف حول الطب» - «النبذة العاشرة: في مدرسة الاسكندريّة»، الشفاء، جزء ١٢، السنة ٢، ك ٢، ١٨٨٨، ص ٤٥٩ - ٤٦٠. وقد كرّر شميّل هذا الكلام في رسالته «شكوى وآمال» المرفوعة إلى السلطان عبد الحميد (١٨٩٦).

«جمعية الاتحاد اللبناني»

[الشميل واسكندر عمون في زيارة المعتمد البريطاني بمصر] (١٩١٤)

«لكثرة ما كتبت وقرعت ولمت الدولة العثمانية والدول الست الموقعة على نظام لبنان الناقص وحدوده المبتورة، حتى اني خرجت مرة في زيارة رسمية لمعتمد احدى الدول الموقعة. رأيته يصغي باستخفاف لمطالب رأت أن ترفعها لجنة الاتحاد اللبناني إلى الدول المذكورة وكنت صحبتها مكرهاً في هذه الزيارة الرسمية لأني أكره أن أظهر مظهر الملتمس لحق صريح. فرأيت المعتمد يكثر من الصقاعة وهو جالس ومجعوص، ورئيسنا شديد التحفظ في كلامه الرسمي معه. فغلبتني السليقة وأخذتني الحدة التي لا تقدر عواقب في دائرة الحق الواجب، فقاطعت الكلام واسترعيت سمع المعتمد أن رئيسنا يخاطبك بكلام مألوف لك، وأما أنا فأريد أن أخاطبك بلغة لم تتعودها في مجالسك الرسمية».

. . .

«الدول، ومنها دولتك، ارتكبت في حق لبنان، بسبب أغراضها المتنابذة، خطأ فظيعاً. والواجب يقضي عليها بتداركه إلاّ إذا كانت تريد لهذا الجبل الموت. ولكن النزع الذي يسبق الموت لا يكون غالباً بدون اضطراب شديد. فجمعيتنا وضعت هذا التقرير الذي أمامك منه هذه النسخة ورفعته إلى الدول المذكورة رأساً. وزيارتنا لك لإحاطتك علماً بالأمر لا لشيء آخر. حتى إذا سألتك دولتك عنا كنت عالماً بنا وبما قدمته لك جمعيتنا.»

. . .

[وكان من نتيجة الكلام القاسي في الحوار أنه] «جعل الرجل يعتدل في جلسته إلى الاجلال ويتحول في حديثه إلى الجد والكمال».

---

* في مطلع حزيران (يونيو) من العام ١٩١٤، قام الدكتور شميل يرافقه رئيس «جمعية الاتحاد اللبناني» ـ اسكندر عمون ـ بزيارة المعتمد البريطاني في مصر. وخلال الزيارة جرى الحوار المدرج أعلاه على لسان شميل. انظر الأهرام ١٩١٤/٦/٦.

إلى جريدة «الوطن» في بيروت*

١٩١٠

«في عدد الأربعاء من «الوطن»*

رسالة شبه خصوصية من الدكتور شبلي أفندي الشميّل إلى شبلي بك ملاط.
رسالة الشميّل جواب على تهنئة سبقتها من صاحب [جريدة] الوطن.
الدكتور في نثره يقول:
«فإن دام دستوركم دستوراً بضع سنين فأنتم راقون لا محالة».
ويقول في شعره:

لا يصلح الانسان مجتمعاً   ما دام فيه الدينُ والوطنُ

وهو في نثره جزم باصلاحنا بعد سنين - تفاؤل حسن!
وفي شعره اشترط للاصلاح شرطين غير هّينين: إلغاء الدين والوطن.
إذاً يجب أن نكون بعد بضع سنين بلا دين ولا وطن لتصحّ قضية الفيلسوف الأولى».

أيها الوطن العزيز

افتقدتك هذه المرة فحسبتك وُهمت بي أني أقول باللاوطنية فحنقت عليَّ فأردت أن تختبرني فأحتجبت عني. فقمت أبحث عنك وقد قيل لي إنك في شاغل عني بي في التفسير والتأويل في أمر لا يحتاج إلى تفسير حتى عثرت عليك أمس فإذا أنت مضطر. وقرأت لك شرحاً يزري «بعرف الطيب» فزاد اعجابي بك ووددت لو أني المتنبي لتكون أنت اليازجي. فلا أعدم حينئذٍ خير شارح لقولي:

لا يصلح الانسان مجتمعاً   ما دام فيه الدين والوطن

كما لم يعدم المتنبي خير شارح لقوله:

فلو سرنا وفي تشرين خمس   رأوني قبل أن يرَوْا السماكا

---

* نـلاً عن جريدة «البرق»، السبت ١٥ ك ٢، ١٩١٠ العدد ٧١، ص ١٥٦. وشبلي ملّاط هو صاحب جريدة الوطن.

* كانت جريدة الوطن البيروتية نشرت أبياتاً لي جاء في مطلعها:
لا يصلح الانسان مجتمعاً   ما دام فيه الدين والوطن
وكأن الناس هناك انتقدوا عليها ذلك فكتبت مقالة بليغة بينت فيها صواب القول من الوجهة العملية وكانت الجريدة تصلني بالترتيب إلّا هذه المرة فقمت أبحث عنها حتى وجدتها فكتبت المقالة المذكورة أعلاه وقد نشرت في «الأخبار» (المصرية) سنة ١٩١٠ وضمها الدكتور شميل إلى الجزء الثاني من مجموعته.
تأسست جريدة الوطن في بيروت بتاريخ ١٥/١٠/١٩٠٨ لأصحابها شبلي ملاط وشوشاني وفليكس فارس.

وعذرتك ولم أعذل الدافع أو الدافعين لك أن تسنم هذا المركب وقد رأيت ذلك «الموكب» على باب «الاتحاد[1]» بل كان لهم فضل الكير ولك فضل النار لإزالة الصدأ عن حديد الأفكار الراكدة في مستنقع الاقتناع.

مسألة الدين والوطن مبحث وعر المسالك ومجرد ذكر اسمها يقلق الأفكار المطمئنّة ولو أنها بحالة اجتماعية لا تحمد ولا توجب الاطمئنان حتى انه لتسد لديها منافذ العقل ولا تبقى سوى عواصف العواطف. مع أن المسألة بسيطة جداً ككل الحقائق فالدين للآخرة والوطن للدنيا. والذي يهم الانسان منها في هذه الدار هو إصلاح حاله مجتمعاً ولا ينكر أن غرض الشارعين كل بحسب روح عصره كان هذا. ولا ينكر كذلك أنهم جاؤا من أول الخليقة إلى اليوم متعاقبين لأجل هذا الغرض وقد رأوا تعذره على من تقدمه أو اختلاف الحاجات بحسب المواطن والعصور. جاؤا متفقين في الكليات مختلفين في المرغبات والجزئيات ولكنهم جميعهم لم يفلحوا بجعل العالم ديناً واحداً ووطناً واحداً فقامت الاختلافات بين الأديان والمذاهب والمواطن عراقيل في سبيل ارتقاء المجتمع فرأى العلم أن لا سبيل إلى ذلك إلّا بفصل الدين عن الدنيا أولاً فأخذ يبث تعاليمه الصادقة الحرة والناس يدخلون فيها أفواجاً وكلما زادت بينهم انتشاراً زادت حالهم في مجتمعهم صلاحاً ثم رأوا أن العلم كلما انتشر قلل الفواصل بين الأوطان وذكروا ما كان تخاصمهم بسبب ذلك يجر عليهم من الشقاء ورأوا مزايا التعاون الكلي فمالوا ورأوا أنهم كلما مالوا إليه قل شقاؤهم وكادوا يكونون سعداء ورأوا كذلك أن الاتفاق ممكن وليس حلماً فلم يعد يستهوي العقلاء تعليم آخر في مجتمعهم سوى تعليم العلم الذي اعتبروه أنه الدين الحق الذي يستطيع إتيان هذه المعجزة التي عجز عنها سواه وأرصدوا كل قواهم له وعلقوا كل آمالهم به وتركوا للدين الغاية الاخروية يتعلق بها من شاء على شرط أن لا يتذرع بها لمعاكسة سواه في دنياه كل يبث تعاليمه كما يتراءى له وإلّا اشتد التنازع بينهما على نفقة المجتمع المسكين إلى أن تتم الغلبة لأحدهما ولكن كلما اشتد التنازع دان حلول أجل وقرب حلول أجل والغلبة النهائية اليوم للعلم لا محالة.

وبالحقيقة إذا نظرنا إلى الدين والوطن نظراً اجتماعياً فإن لم نستطع أن نجعلهما وسيلة لترقية المجتمع ـ وكيف يمكن ذلك مع اختلاف الأديان وتفرق المذاهب وهو لا يرتقي إلّا بالتعاون ـ فما الحكمة من الوقوف بهما سداً في سبيل كل اصلاح؟ فإذا لم

---

(١) إشارة إلى ما كان قد وقع في هذه الأثناء من تجمهر الناس وهجومهم على مطبعة جريدة الاتحاد ببيروت بدعوى الدين. يقصد جريدة «الاتحاد العثماني» لصاحبها الشيخ أحمد حسن طبارة. وقد صدرت في ٢٢ أيلول، ١٩٠٨.

نفصل الدين عن الدنيا واتخذناه كما هو اليوم وسيلة للشقاق ولم نتوسع بالأوطان فصددنا بها عنا غوث المدنية بسدود التعصب ولم نقتبس من محاسنها ما يجعلنا شركاء في العمران متضامنين متساوين في المساعي واستمسكنا بما يجعلنا أعداء متخاذلين ونحن لا نستطيع أن نكون إلاّ متفاضلين فماذا تكون النتيجة على المفضولين سوى خسارة الدين والدنيا معاً؟ ولا يفعل ذلك الاتقياء العقلاء من أهل الأديان والمخلصون في حب الوطن ولا يفعله ـ وهم العدد الأكثر ـ إلاّ الجهلاء منهم ولا سيما المنافقون المتاجرون بهما الذين إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. هؤلاء هم الذين في كل أمة وزمان يتذرعون بعامل الدين والوطن ويسطون بهما على الاغرار ويلصقون بهما العار فيهدمون المجتمع ويهدمون الوطن ويهدمون الدين نفسه ليبنوا على أطلالها عروشهم إلى حين. وكم قامت أمة على أمة ومملكة على مملكة ومذهب على مذهب لعلة دينية أو وطنية طفيفة كان يمكن حلها لمصلحة الاجتماع على أسهل سبب مع بقاء الدين ديناً والوطن وطناً. وماذا يمنع اعتبار العالم كله وطن الانسان الأكبر من اشتغال هذا الانسان لوطنه الأصغر؟ ألا يشتغل الانسان اليوم لوطنه وهو يشتغل لنفسه معتصماً في بيته؟ نعم أنه يشتغل لنفسه حينئذٍ أحسن ويكون ارتقاؤه أسهل كذلك.

وقد كان الناس في الماضي لا يدركون ذلك فكانوا لأقل سبب يخدم أفراداً منهم ولا يخدمهم يمثلون بأنفسهم وبوطنهم وبالمجتمع كله. ولكن الانسان كلما ارتقى في العلم علم مزايا الارتقاء بالسلم أكثر. والأمم الراقية اليوم أميل إلى التنازع العلمي والمباراة باتقان العمل ولو أبرقت وأرعدت منها إلى التنازع بالحروب حتى غلب بفضل العلم على المجتمع اليوم الارتقاء بالنشوء التحولي على الانتقال بالثورات الهمجية.

هذا من الجهة الاجتماعية. ولقد أجدت أنت الكلام فيها. وأما من الجهة العلمية البحتة فلا أعلم السبب الذي يثير الضغائن والأحقاد إذا تراءى للبعض أن الأديان متحولة عن الأوهام في الماضي وأبدى رأيه في ذلك بصراحة حتى يقوم عليه الناقمون ويصدعونه بالكثرة ويحجونه بالقوة وماذا يضر ذلك باعتقادهم الخاص والمقام حينئذٍ يكون أفسح لهم. يدعون بعضهم بعضاً إلى المزاحمة هناك على كنز دائم وهم هنا لا يطبقون المزاحمة على كنز فانٍ. فيا للعجب من هذه المفارقات: استشاريون إلى حد الجشع هنا واشتراكيون بل إباحيون هناك! فليستبدوا بأموال الأمم وليشيدوا بها المعاهد على ما يهوون لترسيخ تعاليمهم في الأفكار وليستدروا بها المزيد وليلوذوا بها وليقصدوها لقضاء مآربهم وليحرموا المجتمع من كل ما هو باحتياج شديد إليه بشرط أن يعلموه مع ذلك التساهل حتى يستطيع سواهم أن يرفع صوته أيضاً ويبدي رأيه بدون أن يكون عرضة للمثالب والتضييق حتى يعدم الصدق بين الناس ملاذاً وينتشر

الرياء وتصير الحكمة مداجاة ونفاقاً. وما أعجب مما تقدم إلاَّ خوف الراقين منهم على الأخلاق والآداب إذا تراخت المبادىء الدينية. فلقد ربينا حتى اليوم في مهدهم واغتذينا بلبانهم كل هذه العصور الطويلة - فهل نحن اليوم - ونكاد نبصر قليلاً اسوأ حالاً منا في الماضي كلا نحن اليوم أصلح حالاً ومن المسئول عن البقية الباقية الفاسدة الكثيرة فينا سواهم؟

«إعانة السوريين»

«سوريا المعذبة الجائعة»

الأهرام، ٥ يونيو ١٩١٦

الأهرام، ٣٠ سبتمر ١٩١٦

. . .

«رجائي إلى عموم السوريين في أنحاء القطر المصري كله أن لا يتواكلوا ولا ينتظر بعضهم بعضاً ولا ينظر بعضهم إلى بعض. فإن هناك اخواناً يتضورون جوعاً. فالإسراع الاسراع يا أهل النجدة. وحتى لا يقعدنا التناظر الفارغ من غير مقدرة، فأنا افتتح باب الاكتتاب أمامكم بخمسة غروش صاغ، ولا أقصد بذلك اني لا أزيد، فالعار ليس في القليل، بل في الاحجام عن القليل والكثير لتفاخر فاضح مع عسر وشح كثير مع يسر».

. . .

«إذا لم يفلح السوريون هذه المرة فالذنب ذنبهم وتُحسب عليهم جناية فوق ما جنوا على أنفسهم وذويهم حتى الآن بكثرة اللغط والخلط وهم على هذا الاستعداد».

[صرخة الشميل في وجه التقصير و «الشباع إلى حد البطنة» جاءت في أواخر أيلول، ١٩١٦، قبل وفاته بثلاثة أشهر تماماً]:

«أغيثوا اخوانكم وجيرانكم الجياع وقد تركهم الجوع كالخلال. . . فاذكروا الجامعة الوطنية أولاً. . . وإن لم تجمعكم لا هذه ولا تلك، اذكروا الجامعة الانسانية التي هي ملاذ الانسان الراقي».

موقف الدكتور شبلي شميل من الحركة الصهيونيّة ونشاطها الاستيطاني

رأي شميّل في الصهيونيّة

(١٩١٤)

نشر الدكتور شميّل مقاله الأول تحت عنوان «عمّروا واستعمروا، فالأرض ميراث المجتهد» في اوج الجدال الدائر آنذاك على صفحات الجرائد (ومنها المقطم والاهرام، والاقدام بنوع خاص. فتصدى له الصحافي الفلسطيني (اللبناني الأصل) نجيب نصار، صاحب جريدة الكرمل الاسبوعية في حيفا، بمقال منشور في الكرمل (٥/٥/١٩١٤، جاء فيه إن الدكتور شبلي شميل كتب مقاله المشار اليه في «ساعة حق من تغاضي الحكومة عن شؤون الأهالي الاقتصادية والعمرانية ومن عدم نهوض الاهالي لإحياء جامعتهم». وفي معرض تأييده لأراء شميل لم يخطر في بال نصار «ان الفيلسوف سيعود ليفرغ جام غضبه على خصوم الصهيونية وينكر عليهم حقاً مشروعاً وهو الدفاع عن بقائهم بالدفاع عن مجموعهم. . .» كما أثنى نصار على موقف شميل بقوله: «لا يمكننا حفظ كرامتنا إلاّ بمناهضة الصهيونيين بالعقل ومباراتهم بالأعمال العمرانية لئلا نخسر هذا الميراث العزيز الثمين».

* * *

وعندما نشر الدكتور شميل مقالته الثانية، في صحيفة الاهرام هذه المرة (عدد ٣ حزيران - يونيو - ١٩١٤، عامود ١، ٢، ٣، ٤، على الصفحة الأولى)، ردّ عليه نجيب نصار في الكرمل (١٢/٦/١٩١٤) بمقال عنوانه، «معك حق ومعنا حق». وتعجب نصار كيف ان شميل ينكر على خصوم الصهيونية حقهم المشروع في الدفاع عن بقائهم ويتهمهم بتضليل الجمهور، مع العلم بان المقالات التي كتبها هؤلاء الخصوم تدعو إلى الالفة وتكوين الرأي العام والى الاتحاد واتقان الزراعة وتأليف النقابات - وباختصار إلى ضرورة قيام نهضة علمية وعمرانية وعملية اجتماعية.

ثم لفت نصار نظر الفيلسوف شميل إلى العرب «ليسوا كما يخيل لكم ضعفاء، بل هم اقوياء، والقوه لا ينظمها غير الزعماء. . . واليهود الذين جمعوا كلمتهم ليسوا ارقى من مجموع العرب، ولكن الفضل في حركتهم لزعمائهم. . .» وراح يسأل الدكتور شميل متهماً اياه بالتقاعس: «. . . فلماذا لم تقتد انت وصروف ونمر ورفيق (العظم) بهرتزل ونوردو وغيرهم لتكوين رأي عام في قومكم كما فعل اولئك في قومهم، وتؤلفوا شركات ونقابات وجمعيات تعمل للعرب افضل مما تعمله الصهيونية لليهود».

ولم ينس نصار ان ينحى باللائمة على الزعماء في لهجة تتسم بالعنف الشديد، فخاطبهم بقوله: «اما كفى انكم اهملتهم واجبكم الوطني وانصرف بعضكم عن الماديات الى الخياليات وبعضكم عن العموميات إلى السعي وراء المنافع الخاصة - حتى قمتم في شيخوختكم تحاولون تخدير اعصاب المتنبهين من بني قومكم لتضيعوا الوطن. . .»

وجاء الردّ من الدكتور شميل لوضع تهمة التقاعس بقوله: «قل لي كم نصرك من قومك اذا دعوت إلى عمل. . . بل قل لي كيف يكون شاتموك فيها لو قصدت زحزحته عن مألوف. . . فقوم هذا شانهم مقضي عليهم».

فبادرت الكرمل الى نشر الردّ الذي كتبه شميل في عددها بتاريخ ٧/٧/١٩١٤، على أمل ان يكون حافزاً امام الشبيبة لكي تنهض من كبوتها وتتولى بنفسها مهمة انقاذ الوطن.

وفي عدد الكرمل الصادر بتاريخ ٢١/٧/١٩١٤ نجد صاحبها يأمل للفيلسوف شميل ان يرى «في حركة الشبيبة لطلب العلوم العملية وبث الروح الاجتماعية، حياة جديدة تبعث به الأمل بعد الياس الذي استولى عليه بسبب الخمول، فيسير في طليعة الشبيبة لدفع الخطر عن الوطن».

«عمِّروا واستعمروا، فالأرض ميراث المجتهد»

الدكتور شبلي شميل

[المقطم، أول أيار (مايو) ١٩١٤، ص ١].

لا أراني بعد هذا العنوان في حاجة كبرى إلى اطالة الشرح لاثبات هذه الحقيقة العمرانية الواضحة، وذلك بمناسبة الضجّة الهائلة القائمة اليوم حول الصهيونية والصهيونيين واستعمارهم أراضي فلسطين، لولا ان الناس ينظرون غالباً إلى الحق نظراً مجرداً مستقلاً مع ان جميع الشرائع التي يستندون إليها تثبت هذا الحق العمراني النسبي ضمناً وعَمَلاً. فهي تعتبر ان الانسان وُجد على الأرض لتعميرها لا لتخريبها. والأرض تجازي العامل النشيط إذ تقيمه فيها على الرحب والسعة وتعاقب الخامل فتحرمه حتى موارد حياته البهيمية. وحماية الضعيف المطلوبة من الشرائع لا تجزي لها ان تسمح لهذا الضعيف بالافساد فيها ولو أجازت له نظرياً لما استطاعت ذلك عملياً، إلاّ إذا درّعته بقوة تضاهي القوة التي يخشى عليه منها وحشية فوحشية أو علمية فنية فعلميّة فنيّة لأن سنّة التنازع الطبيعية أغلب. ولذلك كان حق الانسان في الأرض حقاً عاماً مشتركاً يؤيده العمل ولا تدفعه النصوص النظريّة وإلاّ لبقيت الأرض من أول الخليقة إلى اليوم حقاً خاصاً غير مشاع يستأثر بها قوم ولا يخلفهم فيها سواهم على مدى القرون والواقع بخلاف ذلك.

فحجّتنا على الصهيونيين اليوم انهم دخلاء غرباء يعتدون علينا ويسلبوننا أرضاً هي هي ملكنا وقد سفكنا دماء زكيّة لأجلها، حجّة واهية كبكاء الأطفال. ولو جاز لنا مثل هذا الاحتجاج لجاز لهم أن يحجّونا بمثل حجتنا ويقولوا إن الأرض أرض آبائنا وقد سُلبت منا بالسيف ونحن نريد ان نستردّها اليوم ولكن. . . بغير السيف نستردّها بأعمال تبتهج لها الأرض نفسها وتحمدنا عليها الأجيال قاطبة، فنحوّل أطلالها مدائن وأرضها السبخة حدائق. على انهم هم لا يصرحون بأنهم يريدون أن يقصونا وان أدّى عملهم فينا إلى هذه النتيجة إذا كنا لا نتذرّع بقوة تضاهي قوتهم ونكون وإياهم أكفاء رحمة بالأرض. فإن لم نفعل فما ذنبهم حينئذٍ وبأي حق ندفعهم. بل كيف يجوز لنا أن نشكو منهم ونحن نعلم ان الشكوى وحدها لا تدفعهم عنّا ولا تجدينا غير المداوات وتسجيل الخرق علينا أم نقوم عليهم بالقوة الوحشيّة ونجني على العمران وعلى الأرض جناية أخرى ونكون منهم كما في المثل: «عاطلين معطّلين». وهل يتيسر ذلك لنا اليوم؟

فليس أمامنا حفظاً لكرامتنا وضنّاً بالأرض نفسها إلاّ ان نناهضهم مناهضة رجال العقل لا رجال الجهل ونتبارى معهم في الأعمال العمرانية ونأخذ عنهم ونحمدهم على انهم كانوا لنا مدرسة تعلّمنا كيف نعمّر أرضنا. فإذا شكونا الفقر وشكوانا في محلها، فما ذنب الأرض المسكينة

حتى نحرمها اجتهاد المجتهدين ونحبس عنّا وعن العالم خيراتها أنفسنا نحن الذين افقرناها وأفقرنا أنفسنا معها فلنجدّ ولنكدّ نظيرهم ما دام الناموس العمراني العام يقضي بأن الأرض ميراه المجتهد، وإلاّ فعويلنا اليوم ينفعنا كما نفعتهم مراثي ارميا في الماضي.

فاستعمروا الأرض أيها الناس وعمّروها والأرض الباقية خير من الانسان الزائل. فعلى صلاحها يتوقّف صلاح الأجيال في الحال والاستقبال والسلام على من اتبع الهدى.

الدكتور شبلي شميل

المقطم، القاهرة، أول أيار (مايو) ١٩١٤، الصفحة الأولى.

الصهيونيّة وخصومها

الاهرام، عدد ٣ حزيران (يونيو) ١٩١٤، عامود ١، ٢، ٣، ٤، على الصفحة الأولى.

لو لم أنشر منذ مدة كلمة في هذا الموضوع لما عدت إليه اليوم، ولم انشرها إلاّ بعد التردد الطويل لعلمي بما يترتب على المسائل الخاصة من المظان، لا سيما في هذه الأيام التي هاش فيها الكتاب واستطالت قصباتهم. واذا كنت قد نشرتها في ذلك الحين فلتوجيه النظر الى المهم من المسألة كذي يهمّ العمران الكلّي، وهو إصلاح الأرض الذي يتوقف عليه صلاح حال الإنسان بازدياد العمارة. اما الذين يقولون ان الظلمة والنور لا يجتمعان يدركون ان الخراب وسعادة الإنسان لا يجتمعان كذلك. وما قصدت إلاّ صرف المناقشة من وجهها الجدلي الكلامي المبهم الذي لا ترتسم منه صورة واضحة في الذهن غير المناوأة المطوحة والشكوى العقيمة، لاننا حتى الساعة لم نسمع إلاّ تذمراً او شكاية دون وجه عملي واضح صريح نافع وهو مناظرة العمل الحسن النافع بعمل حسن نافع مثله أو انفع منه لتتيسّر الغاية الصالحة للعمل الأصلح رحمة للأرض وخدمة للعمران الحقيقي.

فبدلاً من الصيحة في وجه الصهيونيين والشكوى منهم، والعمل لا يحتاج الى عويل كثير وصراخ مروع، أردت من الذين يغارون على «مصلحة» انفسهم ويعرفون ان يطلبوها من وراء المصلحة العامة ان يقوموا ويدعوا ابناء جلدتهم ومواطنيهم وغيرهم من الذين يبنون الفوارق بين الناس على صفات حاصة الى تأليف نقابات وجمعيات تعاون وما شاكل من المشروعات الموضوعة ذات الاسماء المتباينة والغايات المشتركة ويناظروا الذين يخشون بأسهم على انفسهم لا على الأرض الصالحة بهم بنفس السلاح الذي يخشونه منهم حتى تكون النتيجة الحسَنة واحدة في الحالين: وهي اصلاح الأرض لتوطيد قدمهم فيها بالاحسان اليها لئلاّ تذهب صيحتهم كالصرخة في واد.

فهل في اكثر كتابات خصوم الصهيونيين على الصورة التي تنشر حتى الآن غير التحذير منهم ووجوب مقاومتهم لا بالاقتداء بهم لتتكافأ القوتان بل باحراج النفوس حتى اذا امكن طردهم ولو بالقو لوجب الإقدام حتى ولو بقيت الأرض من دونهم خراباً ينعت فيها اليوم ويحجل حولها غراب البين. وليس الأمر على هذه الصورة بالشيء السهل ولا تكون له نتيجة غير تمكين العداء وتبعيد المسافات بين المتجاورين، ونتيجة ذلك كله تضليل الجمهور وإخراج الضعيف من هذا [الجهاد] العقيم المخرب ذليلاً مهضوم الجناح.

أبمثل ذلك يريد المتحمسون الغيورون إسداء النصح الذين لا يتلمسون من وراء ذلك كله صيد المتفانين في خدمة العمران ان يخدموا ابناء وطنهم، وهم لا صورة واعية تستخرج من اكثر هياجهم غير صياح الريبة وشحذ سلاح قابيل ضد هابيل لا شحذ سلاح العلم لنصرة العلم.

كتبت ذلك وما ظننت اني اكون موضع التعريض والغمز. ورميي من وراء الستار بكل ما يشين والإنكار عليَّ كلَّ حسنة. كان المشنعون عليّ اليوم كما يقولون يعتقدونها فيَّ من قبل. ولماذا؟ لا لأن كلامي لا يرضي العقل بل لأنه لا يوافق هوى في النفس وكأنهم ادركوا في الحال ان بُرجي الشاهق مبني من الورق كما يقول الافرنج فهدموه، وان صنمي الهائل مصنوع من الخزف فحطموه. وظنوا لذلك انهم كسروا قلمي الحديدي بقصباتهم المرضوضة ولطخوني بعار هم منه انقى من البلور.

فكتب إليَّ «جبان» بلسان جبناء كتاباً غفلاً من كل توقيع جاء عليّ فيه بكل تشنيع ان صلح بي فهو من خصوصياتي ولا تهم الجمهور، وما ادعيت لنفسي عصمة ألآلهة عن الخطأ ولا عفه القوم الورعين الحبساء. وبنى كلامه على حادثة فرد من الصهيونيين مما يقع بين الافراد والجماعات من الوقائق الخاصة التي حدوثها أو عدمه لا دخل لها في المسائل العامة والمبادىء الكبرى، كأنه ينتظر مني ان اكون عالماً بكل ما يحدث. ولن ادخل غمار كل خلاف وإلاَّ فانا كاذب في ما يدّعيه على اني ادعيه لنفسي. ولولا ان الكتاب اطول من يوم الجوع وأبرد من ثلج صنين، لنشرته هنا ليعلم الناس كيف يتهجم الجبناء على معاقل القوم [الحميمين].

وما كنت لأعنى بذكر ذلك هنا لولا أني قرأت اليوم في الاهرام مقالاً لصديقي ابراهيم افندي النجار جاء فيه تعريض مبهم بالكتاب غير الاسرائيليين الذي يدافعون عن الصهيونية، حيث قال إنهم «يفعلون ذلك لمنفعة يحاولون ان تتناسب قيمتها المادية مع الشدة التي يستعملونها في مناقشة مناظريهم». ولولا اني لا اعلم من غير الاسرائيليين من تكلم في الموضوع سواي ـ ولا يطلب مني ان اكون عالماً بجميع من كتبوا وكثيرون من القراء لا يتجاوز علمهم في الأمر علمي ـ لما جوزت لنفسي الإشارة هنا إلى كلامه. هذا لأنه لا ريب عندي ان صاحبي بعيد جداً عن ان يقصد ذلك بي، ولكنه صحافي خبير لا يجوز له ان يجهل ان التعريض العام المُبهم شرّ من الاتهام الصريح في مقامات كثيرة والاعتذار لا يخفف شيئاً من عدم الحيطة فيه. غير ان كلامه ذكرني بما وقع لي من اشهر خلَتَ وهو بعيد عن مصر مع أحد هؤلاء المتفانين في خدمة المصلحة

العمومي والقيام على الصهيونيين بطلب مني أن أشد ازره لغرض لم ألبث ان فهمته حتى صرفته عني كأني لم أفهم برّاً به ان يخجل وجعلت احدثه بما في السماء من النجوم وفي الارض من المعادن ـ اي عملت معه كما في جواب ذلك السائل عن الرؤوس المعلقة على باب أحد الملوك السفاحين في الحكايات المشهورة. فما قول صديقي النجار لو علم بمثل هذا الصائح في وجه الصهيونيين من غير الصهيونيين. وقد يكون الذين كتبوا يطعنون عليَّ وهم مختبئون من هذا الطرز المكين.

على اني اودّ ان يكون الاسرائيليون أعقل جداً من ان يشتروا نصرة نظيري من الناصرين وما نصرتهم بل نصرت حقَّ الأرض نفسها أو يشتروا سكوت سواي من الطاعنين وهم «إذا مات منهم طاعن قام طاعن »ما دام عملهم حقاً مشروعاً ومنفعته للأرض ثابتة لا ينكرها حتى خصومهم انفسهم. وهذا لا يستفاد منه انهم إذا كانوا على حق في الكليات لا يرتكبون شططاً في الجزئيات، وأي مجتمع من المجتمعات الراقية اليوم لا يحاسب على ومثل ذلك. فهل يجوز لنا ان نشنع بمدينة اليوم نسيئات كثيرة تصاحبها وان نفضل عليها مدينات ماضية كلها سيئات؟ لا شك ان ذلك مُنتهى الخطل.

واني اختم مقالي هذا بكتاب كتبته رداً على خطاب لأحد انصار الصهيونيين من الاسرائيليين انفسهم بعث به لي على اثر نشر كلامي في هذا الموضوع يشكرني اولاً ثم يستحثني على المزيد. ومنه يعلم الذين يهمهم ان يعلموا غرضي الأكبر من كل مباحثي ان كانوا حتى الساعة لا يعلمون.

والكتاب هو هذا:

حضرة الخ . . .

اني كتبت ما كتبت لكي أبين حق الانسان في الارض وحق الأرض على الإنسان. وحسبي ان اكون قد نجحت في بيان هذه الحقيقة البسيطة فأرضيت البعض وأقنعت الأخرين ولو غير راضين لأن في الانسان شيئاً آخر غير العقل وهو هوى النفس قبل كل شيء. وهذا لا يهدأ ما دام النافخ فيه هو ذلك المنفاخ الجهنمي، ويلعب بالناس ويذهب بهم كل مذهب، والناس عموماً في ذلك سواء. فيتحاورون متدابرين ويتناظرون متشاوسين وهم متمسكون بزاويا ذلك البناء الهائل الذي يفصل بينهم على القرب ويجمعهم على البعد. فإذا اردت التبسط في الموضوع كما تطلب مني اضطررت لأن أطعن الناس في اعز شيء عندهم من الاوهام السائدة عليهم والتي هي سبب تدابرهم وجميع مصائبهم على هذه الأرض. وهل توسع الجرائد صدرها لي؟

على اني لا أراني حتى الآن قصرت في الإرشاد أو جبنت في التصريح! وَمَا من يقرأ ويعي. ولكن كم هم الذين قرأوني وقرأوني وفهموني وفهموني ونصروني. فمعولي وحدي لا يكفي ولد كان كمخل ارخميدس، فهاتوا معاولكم ايها الناس حتى لا ألقي كالزارع قمحه بين الاشواك.

وأفضل المعاول نشر التعليم الحرّ وتجريده من صبغة الدين. وأي سلاح أشرّ من هذا السلاح في يد الجاهل الغبي او المتعلم المنافق أو الطامع الكسول.

وفي الختام اشكرك على كتابك الرقيق، فاني ما تعودت كثيراً سماع مثل هذا الصدى ولعله يخفف شيئاً من رجحان الكفة المقابلة. والناس كما تقدم نسيج اهواء».

انتهى

الدكتور شبلي شميّل

خواطري في الحرب

آخر المقالات التي كتبها شبلي شميّل قبل وفاته في مطلع العام ١٩١٧. وقد نشرتها جريدة الأهرام، ولم نتمكن من تصويرها عن الميكروفيلم لأنه في حالة باهتة. وعسى نتمكن من الحصول عليها.

ملحق استطرادي حول

رسالة «شكوى وآمال» : ١٨٩٦

ثمة سؤال لا بد من طرحه في معرض وضع رسالة الدكتور شبلي شميّل المرفوعة إلى السلطان عبدالحميد في إطارها التاريخي والتقليدي الصحيح . ومما لا ريب فيه ان رسالة «شكوى وآمال» جاءت بمثابة كتاب مفتوح يتناول فيه صاحبه مساوىء الحكم ومظالم السيطرة العثمانية وفقدان الأمن والسلامة والأمنية ، بالاضافة إلى الآمال التي يعلّقها صاحب الرسالة على المبادرات الاصلاحية وتعميم التعليم ونشر معالم التمدّن وإصلاح حال البلاد والاستفادة من موقعها المميّز وما حَبَتها به الطبيعة من اعتدال في المناخ والمزاج . كل ذلك لكي يصل إلى بيت القصيد : تحرير الناس من مظالم الحكم ومكائد الجواسيس وإطلاق حريّة القول والفكر والعمل بدلاً من تكبيل الحريّات وقمعها وبثّ الأرصاد والعيون واستخدام الدسيسة والنميمة للإيقاع بأحرار البلاد وإتهامهم بالتآمر على سلامة السلطنة خوفاً من إطلاق العنان لحرّية الجرائد ولأقلام النقد البنّاء وتقويم الاعوجاج .

ولا حاجة بنا إلى التوقّف عند الفَرَمانين الاصلاحيين السلطانيين : «خطِ كلخانة» الذي أصدره السلطان عبدالحميد (١٩٣٩) لمنح الرعايا العثمانيين حقوقاً وحرّيات لم يألفوها في السابق ، وفرمان «خطّ همايوني» من إصدار خلفه السلطان عبدالمجيد الثاني سنة ١٨٥٦ .

ففي العام ١٨٦٦ بادر مصطفى باشا إلى رفع كتابه المفتوح (من أمير إلى سلطان) إلى السلطان عبدالعزيز خان . ومصطفى فاضل باشا هو مؤسس حزب تركيا الفتاة ، ونجل ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا . واشتهرت لائحة فاضل باشا الاصلاحيّة باعتبارها تضمّنت المبادىء السياسيّة لحزب تركيا الفتاة .

وعام ١٨٦٩ ، خاطب فؤاد باشا في وصيّته الشهيرة السلطان عبدالعزيز ، قبل دنو أجله بأيام أو ساعات معدودة ، مدفوعاً بواجب المصلحة العموميّة ، لكي يبسط أمام العرش السلطاني «آرائي الأخيرة ، وهي آراء محزنة بدت لي بعد خدمة طويلة تعيسة» .

ويقول سليم سركيس في كتابه «سرّ مملكة» (المطبوع في مصر : ١٨٩٥) عن تعريب هذه الوصية في جريدة المقطّم (عام ١٨٩٤ على الأرجح) ما يلي :

> «ولهذه الوصية شهرة عظيمة كنت قد قرأتها لأول مرة في جريدة المقطّم أثناء اقامتي في انكلترا ونقلتها إلى العدد الأول من جريدتي رجع الصدى التي انشأتها هناك . . »

ومن المؤكد ان الدكتور شبلي شميل كان قد تمثّل هذه الرسائل والكتب المفتوحة والوصايا، واطّلع عليها واستساغ فكرتها، قبل ان يبادر إلى وضع رسالته المعروفة بـ «شكوى وآمال».

فالكتاب المفتوح والمرفوع إلى أعلى المقامات ليس بالظاهرة المستهجنة في أواخر القرن الفائت وخلال ذروة الاستبداد الحميدي. وهي صيغة في الخطاب السياسي والاصلاحي لا تخلو من الجرأة وتتوسّل الصراحة في مخاطبة المسؤولين وكبار ذوي الشأن.

ولا يمكن عزل رسالة الدكتور شميّل عن مسار وإطار هذا التقليد البارز في توجيه اللوائح الاصلاحيّة ورفعها إلى المقام السلطاني عن طريق الخطاب المفتوح. ولدى بلوغنا مشارف العام ١٩٠٣ نجد فرح انطون يرفع كتابه المفتوح إلى «عطوفتلو رشيد بك»، والي بيروت سابقاً، ووالي بروصا لاحقاً».

والشيء بالشيء يذكر. ففي العام ١٩٠٩، بعد إعلان الدستور العثماني وخلع السلطان عبدالحميد الثاني، بادرت صاحبة مجلّة **فتاة الشرق** ـ لبيبة هاشم ـ إلى رفع كتابها المفتوح وأرسلته إلى مجلس المبعوثان. وعرضت في شكواها المطالب التربوية والتعليمية المحقّة بالاضافة إلى طرح قضيّة المرأة العثمانية في الشرق. ومما ينبغي ذكره ان صاحبة الكتاب المفتوح تلقّت في أواخر العام (١٩٠٩) إشعاراً بالتركية من أمانة مجلس المبعوثان يؤكد استلام كتابها ويتعهد بالنظر في الأمر.

جاء كل ذلك في اعقاب مبادرة **المقطّم** (آب ١٩٠٩) إلى نشر رسالة الدكتور شبلي شميّل «شكوى وآمال» (١٨٩٦) بعد ان حالت الرقابة واجراءات الاستبداد الحميدي دون إعادة نشرها أو حتى مجرّد طبعها ونشرها في كرّاس مستقلّ. فالخوف كان سيّد الموقف خلال الفترة الممتدة من العام ١٨٩٢ وحتى أواسط سنة ١٩٠٩.

هذا، وقد أدرجنا التلميحات والوقائع التي وردت في كتابات الدكتور شميّل لجهة الخطاب الاصلاحي وقبل نشر رسالة **شكوى وآمال** عام ١٨٩٦ في أماكنها الملائمة، تاركين للقارىء المدقّق ان يستخلص لنفسه الدلالات المشتركة ضمن سياق هذا التقليد المتواصل في تراث الخطاب السياسي والاصلاحي العثماني.

من امير الى سلطان: ١٨٦٦

[المقتطف. ج ٤٢ (مايو ١٩١٣) ص ٥٠٩]

هو كتاب رفعهُ مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ وقد ترجمهُ إلى العربية صاحب السعادة أحمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية. والكتاب حافل بالنصائح والحكم كقولهِ نحن في عصر لا سؤدد فيهِ إلاّ لمن كبُر عقلهُ وكثر علمهُ. الحرية أول مربٍّ للأمم هي تخلق كل مربٍّ عداها وما من مربٍّ يسدُّ مسدها والأمم المستعبدة تحتقر العلم لأنهُ لا يفيدها وإنما ترغب الأمم في العلم إذا كان لها من الحقوق ما وثقت منهُ وامنت عليهِ. الحق اولى ان يقال ما منعنا من ان نكون امة جدّ مثلهم (أي مثل النصارى) إلاّ طريقة حكمنا فحيثما يتاح للإنسان ان يستثمر الإنسان لا يستثمر عقلهُ ولا يستغل ارضهُ. إلى غير ذلك من جوامع الكلم التي لو انتصحت بها الحكومة العثمانية ما وصلت إلى ما وصلت إليهِ.

الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة

تركيا الفتاة

روحي الخالدي

[الهلال. ج ١٧ (نوفمبر ١٩٠٨) ص ٨٠ - ٨١]

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا بن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا. ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاطلاع والوقوف على دقائق الأمور فخدم مصر. وبعد جلوس السلطان عبد العزيز خان بسنة تعين ناظراً للمعارف في الاستانة ثم ناظراً للمالية واجرى فيها عدة اصلاحات وكان ميكروب الاستقراضات قد دخل هذه النظارة واحدث بلاء القوائم النقدية حتى بلغت الديون ما بلغتهُ وثقلت على كاهل الأمة. وكان الصدر الأعظم إذا ذاك يوسف كامل باشا صهر الخديوي محمد علي باشا ومترجم تلماك للتركية الترجمة الأولى العويصة. وكان عالي باشا في نظارة الخارجية وفؤاد باشا في رئاسة مجلس الأحكام العدلية ثم في نظارة الحربية وادخل فيها حينئذٍ حسين عوني باشا العدو الألد لعمر باشا المجري. وكان فؤاد باشا تعين حكماً لفصل الخلاف المستحدث بين مصطفى فاضل باشا واخوته على تقسيم ميراث ابيهم فحصل بينهم رقابة وعداوة. فلما تولى فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل في نظارة المالية مع ما لهُ من الخدم والإصلاحات المفيدة فشق ذلك على مصطفى فاضل

باشا وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحتهُ الشهيرة التي شدَّد فيها النكير على الاستبداد وكشف الغطاء عن عورات الدولة وبين أسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بحرية لم يعتدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك. ثم هاجر إلى باريس سنة ١٨٦٥ والتحق به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وانفق على تعليمهم ونبغ منهم عدة في الأدب والكتابة والسياسة.

حدثني احدهم قال «كنا في باريس في عيشة راضية لا يهتم الواحد منا بأمر معائشه فإذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد لمنزله فوجد ما يحتاج إليه من الطعام والمنام بخلاف احرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معاشهم».

فاشتغلت النشأة الجديدة لفنون الأدب وعلوم التاريخ والسياسة والصنائع النفيسة فنظموا الشعر والفوا الروايات ونشروا المقالات في الجرائد ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الأدب الجديد العثماني. ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ هـ وقرأ في المكاتب وتعلم الفرنساوية وصارت له مهارة زائدة في نشر المقالات السياسية في الجرائد بطريقة مستحدثة هي من السهل الممتنع. واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوكو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة. وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ورواية وطن أو سليسترة التي تمثل اليوم في الاستانة وسلانيك بعد حدوث الانقلاب. وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف على جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ.

ومنهم ضيا باشا الأديب الشاعر وسعد الله باشا سفير ويانه الأسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها البحيرة وله اشعار عصرية رائقة. ومنهم أبو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بضعة بديعة عجيبة لم تبلغها للآن مطابع الشرق ولا مطابع اوربا بالشرقية. وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب رواية طارق بن زياد وكثير غيرهم من الكتب والأدباء أنصار حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ثم صهره خليل شريف باشا الذي جاء من مصر إلى الأستانة واستخدم في نظارة الخارجية بسبب معرفته اللغة الفرنساوية وصار سفيراً لباريس وغيرها وناظراً للخارجية وتزوج اكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الأميرة الشهيرة نازلي هانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الأول في تعضيد حزب تركيا الفتاة وساعدته بالمال والجاه. هي وشقيقها البرنس محمد علي باشا.

لائحة فاضل باشا عن تركيا الفتاة

ولخّص مصطفى باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها للسلطان عبد العزيز خان وقال فيها:

«تتصوّر أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية ولاحتمال انواع الأذى والتحقير المتولد من الظلم. وليس الأمر كذلك. فإن المسلمين ربما كانوا أشد منهوبية ومظلومية واكثر انحناءً تحت نير العبودية من المسيحيين. لأن المسلمين ليس وراءهم دولة اجنبية تتصحب لهم وتحامي عنهم. فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين: الظالمين ظلماً لا حدَّ له. والمظلومين بلا شفقة ولا مرحمة. والأولون يجدون في الحكومة المطلقة الغير المحدودة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها اغراءً وتشويقاً على جميع الرذائل. وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضاً بعلائقهم المضرة مع ساداتهم. وحيث انهم مجبورون على الخضوع دائماً للشهوات الرذيلة ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم المحقة لاعتاب سدتكم الملوكية ـ لأن ظلامهم يرون هذه الإستغاثة الاحترامية بحكومة جلالتكم من أكبر المفاسد ـ فاعتادوا دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها».

مصطفى فاضل باشا

١٨٢٩ - ١٨٧٥

ترجمة حال المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري المتوفى في الاستانة العلية وذلك

في ٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٢ [١/١٢/١٨٧٥ م]

[منتخبات الجوائب]

هو نجل المرحوم ابراهيم باشا نجل المرحوم محمد علي باشا اعدل من ولوا الاحكام وافضل من اولوا الانعام. وُلد في سنة ١٢٤٥ [١٨٢٩ م] ونشأ تحت عناية ابيه وجده واكمل الفنون الابتدائية في مصر ثم توجه إلى أوروبا مع شقيقه المرحوم أحمد باشا وجناب الخديو اسماعيل خديو مصر حالاً لإتمام الفنون، فتضلّع من اللغتين الفرنساوية والانكليزية ومن فن التاريخ ثم عاد إلى مصر. وبعد وفاة المرحوم والده تولى عمه المرحوم عباس باشا نجل المرحوم طوسون باشا فحضر إلى الاستانة ونال من لدن العواطف السلطانية في سنة ١٢٦٥ [١٢٤٩ م] مأمورية معاونية كتابة الخارجية مع رتبة متمايزة. فلما علم المرحوم رشيد باشا الصدر الأسبق ما كان له من الفضل والمعارف أدخله في جملة رجال الدولة العلية وعيّنه عضوا في مجلس والا مع الرتبة الأولى من الصنف الأول وكان له من العمر اذ ذاك اثنتان وعشرون سنة ثم بعد وفاة المرحوم عباس باشا تولى عمّه ومحبّه المرحوم سعيد باشا فسافر إلى مصر مأذونا فاستقبله عمه بغاية الاكرام والاعزان. وفي سنة ١٢٧٤ [١٨٥٧ م] وُجّه إليه من طرف الحضرة السلطانية وإلى عمه عبد الحليم باشا رتبة الوزارة السامية فرجع إلى الاستانة لتقديم الشكر على هذه العناية الجليلة. وفي ١١ من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٧٥ [١٨/١١/١٨٥٨ م] عُيِّنَ عضوا في مجلس التنظيمات العالي ثم سافر إلى أوروبا مع المرحوم عمه سعيد باشا وشاهد ملوكها ومذ ذلك التاريخ صار ذكره نبها في أوروبا ثم عاد إلى الاستانة في اواسط سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م.

وصية فؤاد باشا

[١٨٦٩]

ازدان تاريخ الدولة العثمانية في القرن الماضي بذكر اربعة رجال عظام كان كلّ منهم نبراس الفضل ومصباح الهدى يؤتمُّ به ويقتدى عند تفاقم الخطوب واشتداد الاخطار «كأنه علم في رأسه نار» وهم رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا. كانوا دعاة الاصلاح وحماة الدولة وسياج السلطنة واركان عزها ومجدها. وقفوا حياتهم على خدمة الدولة والامة والوطن. وكانوا خير مثال يقتدى به في الدفاع المجيد والسعي الحميد والجهاد الحسن.

اما أحدهم فؤاد باشا فقد قضى سنين طويلة في منصبي الصدارة ونظارة الخارجية على التعاقب واليه ينسب الفضل في صدور الامر المسمى «خط همايوني» سنة ١٨٥٦ القاضي بوجوب مساواة رعايا الدولة العلية على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم في الحقوق والامتيازات. ولهُ الوصية المشهورة التي رفعها قبل موته بيوم واحد الى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٩ وقد اطلعنا على ترجمة لها في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فعرّبناها في ما يلي ليسمع منها القراء صوتاً صارخاً من القبر يرنُّ في المسامع والأذان. ويسوق الى صاحبهِ الرحمة والرضوان من كل شفة ولسان. قال المرحوم فؤاد باشا: •

«مولاي. لم يبقَ لي في هذه الحياة سوى بضعة ايام وربما بضع ساعات فأردت ان يقضي هذه الدقائق الاخيرة في اتمام فرض مقدس واعرض على جلالتكم افكاري الاخيرة المفعمة غماً واسفاً على سوء المصير الذي انتهت اليه الدولة بعد التمادي في سياسة الخرق والطيش. وعندما تبلغ كلماتي مسامع جلالتكم أكون قد فارقت هذا العالم فتصغون إليَّ من غير ان يداخلكم ارتياب في حسن قصدي لان الصوت الذي يتكلم من القبر يتكلم بصدق واخلاص.

ان الله قد استودعكم عملاً فيه من الخطر بقدر ما فيه من المجد والشرف. فلكي تقوموا به حق القيام ينبغي ان تدركوا هذه الحقيقة المؤلمة وهي ان السلطنة العثمانية في خطر. فإن التقدم السريع الذي احرزه جيراننا والغلطات العظيمة التي ارتكبها اسلافنا اوصلتنا اليوم الى موقف حرجٍ الى الغاية فيلزم جلالتكم والحالة هذه ان تخلعوا العتيق وتنهجوا بالدولة منهجاً جديداً تأمن بهِ المعاثر والمزالق وتنجو من المخاطر والبوائق.

يحاول بعض الجهلاء ان يقنعوا جلالتكم بان وسائطنا الحاضرة تكفينا لاسترداد مجدنا الغابر وعزنا الدابر فيا لهُ من خطأ فاضح وغرور فادح! فلو كان جيراننا باقين في الوقت الحاضر على ما كانوا عليه في عهد آبائنا لما تعذر على جلالتكم ان تبلغوا شأو اجدادكم وتخضعوا ملوك اوروبا لسلطانكم. ولكن جيراننا تقدموا كثيراً عما كانوا عليه

منذ قرنين. وقد سبقونا بمراحل وتركونا وراءهم ولم يكن تقدمنا اليسير في جنب تقدمهم الكثير شيئاً مذكوراً.

لا انكر ان الدولة ارقى في عهد جلالتكم كثيراً منها في عهد اسلافكم لكن هذا التقدم النسبي اقل من ان يفي بحاجات الزمن الحاضر. قد تكونون يا مولاي من حيث القوة والعظمة كأسلافكم وربما استطعتم ان تفوقوهم في ذلك لكن هذا لا يكفيكم في طلب المحافظة على مركزكم في اوروبا بل يجب ان تكونوا عند الحاجة قادرين على مضاهاة جيرانكم والاستخفاف بهم. وبعبارة اخرى، ينبغي ان تكون سلطنتكم كانكلترا في الغنى وفرنسا في المعرفة وروسيا في الجيش والاّ فهي في خطر السقوط العاجل والخراب القريب.

وليست مسألتنا الآن محصورة في الحصول على التقدم السريع بل في جعل تقدمنا مساوياً لتقدم الامم الاوروبية. ولكم يا مولاي في سلطنتكم جميع الاسباب والوسائط التي تمكنكم من جعل الدولة في مقدمة دول اوربا كلها ولكن الحصول على هذه النتيجة يقضي بتغيير كل قوانيننا السياسية والمدنية. لان كثيراً منها كان مفيداً جداً في الماضي واصبح مضراً في الوقت الحاضر.

ولما كان الانسان قادراً على التقدم الى الكمال وجبت عليه مداومة السعي في تحسين شؤونه وترقية احواله. وهذه السنّة الطبيعية تطابق لحسن الحظ كنه ديانتنا الاسلامية. فالاسلام يتضمن كل التعاليم الصادقة التي من اسمى مقاصدها تقدم العالم وارتفاع منار الانسانية. واما الذين يدّعون ان ديننا يعارض تقدم دولتنا فهم ليسوا مسملين صادقين. ولكل دين قواعد وعقائد تحول دون تثقيف العقول وانارة الاذهان ما عدا الاسلام فانه مطلقٌ من هذه القيود ومما يفرضهُ على تابعيه ان يجاروا العالم في التقدم ويبذلوا جهدهم في ترقية القوى العقلية ويطلبوا العلم والمعرفة ليس في بلاد العرب وبين المسلمين فقط بل في البلدان الاجنبية حتى في الصين وفي اقاصي الارض ايضاً.

لا يتوهم احد ان العلم الاسلامي يختلف عن علوم بقية الامم. فالعلم واحد في كل مكان. وشمسهُ التي تنير العالم العقلي هي واحدة. والاسلام هو حسب اعتقادنا مجلى كل حقيقة ومظهر كل علم. فكل اكتشافٍ مفيدٍ وتقدم جديد في كل مكان وبين اية امةٍ كانت انما هو للمسلمين. وبناء عليه لا شيء يحول دون اقتباسنا ما جدَّ عند الاوربيين من القواعد والقوانين. ولقد تضلعتُ من ديانتنا تضلعاً قدرني على فهم كنهها وادراك حقائقها ولستُ بجاهل اهمية الغرض الذي ارمي اليه وابني كلامي عليه. وما كانت نفسي لتسول لي أن أخون سلطاني ووطني ومذهبي في الدقيقة الاخيرة من حياتي عند استعدادي لمفارقة العالم والوقوف في حضرة الدّيان العادل.

فبملء الثقة والاقتناع أقول إنه ليس بين جميع القوانين الجديدة التي تعرضها اوروبا علينا قانون واحد ينافي روح ديانتنا على الاطلاق. وبكل إخلاص اصرّح بأن

خلاص الاسلام يقتضي المبادرة الى قبول هذه القوانين التي لا مندوحة عنها لامةٍ تروم حفظ كيانها وسلامتها من التلاشي. وأصرح ايضاً بأن جلالتكم اذا اقدمتم على هذا التغيير الضروري الذي لا يخالف شيئاً من مبادىء ديانتنا المقدسة خدمتم المسلمين اعظم خدمة مشروعة ونفعتموهم نفعاً لم يخطر قط ببال احد من اسلافكم العظام. وهذا العمل العظيم يستغرق عدة مسائل ولم يبق لي في هذا العالم من القوة والوقت ما يمكنني من التأمل فيها. ولكنكم قادرون يا مولاي اذا شئتم ان تنتفعوا بخدمة ذلك الرجل العظيم الذي أتيح لي ان اكون صديقهُ ومشيره. واني اسأل الله ان يطيل بقاءهُ لجلالتكم لانه أعرف من غيره بوسائط خلاص السلطنة. ولم أشر قطُّ بشيء على جلالتكم الّا بعد الوقوف على رأيه فيه واستحسانه له. فمكّنوه من ثقتكم التامة لان ثقة السلطان تشدد ساعد الوزير. والتمس من جلالتكم فوق كل شيء ان تؤيدوا هذا الخادم الامين الذي لا غنى لكم عن حذقه وذكائه وفطنته ودرايته ولا تدعوا جهل زملائه يثبط عزيمته ويضعف همته. ولا شيء يوهن عزمه اكثر من اضطراره الى العمل مع من لا يستطيعون ان يدركوا افكاره ويفهموا مقاصدهُ.

اما من جهة علاقاتنا الخارجية فلما كنا غير قادرين على محاربة اعدائنا وجب علينا ان نستعين بمصادقة الاجانب ومحالفتهم. ولاجل حماية حقوقنا يترتب علينا ان نبدي من القوة والحذق والشجاعة اكثر جداً مما ابدى اسلافنا في اخضاع الشعوب وتدويخ الممالك. واذا بحثتم عن حلفائنا الاجانب وجدتم انكلترا على الدوام في مقدمتهم. وسياستها وصداقتها متينتان كقوانينها. وقد خدمتنا في الماضي خدمات جليلة ولا يسعنا الاستغناء عن مساعدتها لنا في المستقبل. ومهما تقلبت الاحوال فالشعب الانكليزي الذي هو اعجب شعوب العالم واجدرهم بالثقة والاعتماد يكون اول حلفائنا وآخرهم ولو خيرت لاخترتُ خسارة الباب العالي عدة مقاطعات على خسارته صداقة انكلترا.

اما فرنسا فحليفة لنا يجب ان نعاملها دائماً بما نستطيعهُ من التجلّة والاحترام ليس لانها قادرة ان تمدنا باعظم مساعدة فقط بل لانها تستطيع ايضاً ان توقع بنا اكبر ضرر. ولها شغف بالعظمة ولو رأتها في اعدائها. فاحسن وسيلة لحفظ صداقة هذا الشعب الكريم ان نجاريه على افكاره وتصوراته ونبدي ما يوافقهُ من هذا القبيل. واذا اعرضت فرنسا عنا يوماً ما وجاهرت بمعاداتنا كانت من الاسباب المتممة لخرابنا.

اما النمسا فقد شغلتها مصالحها الاوربية عن المداخلة في المسألة الشرقية. وارتكبت غلطة كبيرة في حرب القرم وسترى في المستقبل الخطر الذي ينقضُّ عليها من الشمال ويكون شديداً عليها كما يكون علينا نحن ايضاً. وستبقى حكومة ڤيينّا حليفة طبيعية للباب العالي ما دامت ناهجة في سياستها منهج الحكمة والسداد. ولا يمكن صد تيار الشر العظيم الذي انهال على الشرق منذ اكثر من قرن الّا بمعونة النمسا ومضافرة حلفائنا في الشرق.

اما بروسيا فقد ظلت الى هذا الوقت غير مكترثة للمسألة الشرقية ومن الممكن ان سياستها تقضي عليها بتضحيتنا في سبيل مشروع الاتحاد الالماني وبعد حصول هذا الاتحاد لا تلبث المانيا ان ترى لها في المسألة الشرقية ما لبقية الدول من المصالح وعسى ان لا تكون نتيجة سياستها في النمسا الزام اعدائنا امتلاك بلادنا الاوروبية.

اما روسيا فهي عدوة دولتنا الطبيعي وامتدادها في الشرق من جملة مبادئها الاساسية. ولو كنت وزيراً روسيا لما تركت شيئاً يحول دون تدويخ الاستانة. فلا نعجب اذاً ولا نشكو من جفائها وعدائها وهي تعاملنا الآن كما كنا نحن سابقاً نعامل اليونان. ومن اسخف الامور ان نعتمد في صد غاراتها عنا على مجرد حقوقنا. اذاً نحتاج الى القوة ولكن ليس القوة التي استخدمناها قديماً وانقضى امرها ولا فائدة من محاولة احيائها بل القوة الجديدة التي تسلح بها شعوب اوروبا بواسطة العلوم والمبادىء الحديثة. ان روسيا لم تعد كما كانت في عهد بطرس الاكبر بل خطت خطوات مهمة في سبيل التقدم وعما قليل تزداد قوتها عشرة اضعاف بواسطة سككها الحديدية. ومما يخيفني على الخصوص ان اكثر امم اوروبا راض من الآن بما تقصدهُ روسيا من الاعتداء على غيرها.

مما يدهشني ايضاً ويخيفني عدم اهتمام انكلترا باحوال اواسط آسيا ويزيد خوفي ودهشتي حينما ارى التغيير العظيم الذي حدث في موقف روسيا على اثر زوال القلاقل من ولايات القوقاس. وعندي ان روسيا ستصوّب غاراتها في المستقبل على املاكنا في آسيا الصغرى فمن الضروري ان لا نكفّ عن التأهب والاستعداد لاننا لا ندري هل يكون حلفاؤنا مستعدين على الدوام للمبادرة الى مساعدتنا عند ما تمس الحاجة. فقد يحدث شيء في اوربا يغل ايديهم ويشغلهم عنا.

وعند ما اراجع في ذهني الغلطات التي ترتكبها حكومات اوربا لا ارى اعظم من غلطتها في سماحها لاعظم دولة مستبدة في العالم ان تتألف من مئة مليون وتتسلح بكل معدات التمدن وتفتح فاها لابتلاع الممالك والبلدان. وهي تغشى آسيا بالجيوش وتزعزع اركان اوربا بالنهضة السلافية وتقدم على الفتح والتدويخ بحجة محبتها للسلام وعدم رغبتها في تغيير الحالة الحاضرة.

ولقد حدا بي ذكر روسيا الى الكلام على ايران ولو بالايجاز. فحكومة هذه البلاد كانت على الدوام منقادة بعامل التعصب الشيعي الى محالفة اعدائنا. وقد سوَّلت لها نفسها في حرب القرم ان تظاهر روسيا علينا ولكن رياح السياسة الشرقية هبَّت على خلاف مشتهاها وحالت دون تحقيق مناها. وعرش الشاه معتمد في الوقت الحاضر في الوزارة على ان حكومته بالغة غاية الضعف والجهل والفقر فلا تستطيع مبادأتنا بالشر والعداء ما دمنا مطلقي الايدي من المشاكل والعراقيل. ولكن متى نشبت الحرب بيننا وبين روسيا عُدت الينا ايران في مقدمة اعدائنا بالرغم عن شدَّة حذرنا منها مدفوعة بعامل استقلالها السياسي وغيرتها العمياء لكن الباب العالي لحسن حظه يأمن جانبها بما

لديه من القوة المادية وهو قادر ايضاً ان يستعين بالوسائط الادبية على ارهاب حكومة زعزع اركانها الاستبداد وكثرة الطامعين اليها وهي محاطة بأهل السنّة من كل جانب.

ولا يجوز ان ننسى اليونان فهي لا شأن لها في ذاتها ولكنها آلة في يد دولة معادية لنا تستخدمها لتعكير مائنا وتكدير صفائنا. وكأن الشعراء الاوربيين انشأوا هذه المملكة في عالم الخيال لينشروا بها امة طواها الدهر منذ اكثر من الفي سنة. حاولوا احياء بلاد هوميروس وارسطوطاليس فانشأوا مستقر الدسائس والفوضى وقد يبقى اليونان زمناً طويلاً مستعزين بما كان لهم من المجد السالف ولو كانوا قد ابتعدوا عنه منذ قرون كثيرة ساد فيها الفساد والجهل ويحاولون اعادة مملكتهم الشرقية لكن اغترارهم بأنفسهم وانفصالهم عن غيرهم يكرهان الامم الشرقية بهم. وقد يسهل على الباب العالي ان يجد بعض الخدام الاذكياء بين اليونان ولكن روح الجنس اليوناني سيبقى على الدوام مضاداً لمصلحتنا. فمصلحتنا السياسية تقضي علينا ببذل الجهد في ابعاد اليونان عن باقي المسيحيين الذين في سلطنتنا وفصل البلغار عن سلطة الكنيسة اليونانية ومنع اتصالهم بالكنيسة الروسية او البابوية.

وعلى الباب العالي ان يمنع كل دسيسة يراد بها ضم الارمن الى الكنيسة الارثوذكسية. وليكن سعينا لخير المسيحيين مقصوراً على محاولة تحريرهم من سلطة الاكليرس. وافضل سياسة يجب علينا اتباعها هي ان نجعل الحكومة فوق كل مداخلة في المسائل الدينية.

اما من جهة امورنا الداخلية فعلينا ان نوجه اهتمامنا الى ادراك غرض واحد وهو مزج شعوبنا بعضهم ببعض ولا سبيل الى وحدة سلطنتنا بغير هذه الواسطة. لا ينبغي ان تكون هذه السلطنة العظيمة يونانية يونانيةً او سلافية ولا لهذه الطائفة او ذلك الجنس لانها انما تقوم باتحاد شعوبها وامتزاج اجناسهم.

والبقاء مضمون لدولةٍ مثل المانيا او لامة مثل فرنسا عددها ٤٠ مليون نفس او لبلاد مثل انكلترا عززتها الطبيعة بأمنع الحصون اما الجبل الاسود والسرب وارمينية وغيرها من الولايات التي ليست لها شيء من الامتياز الخاص او النفع فاذا وجدت كانت عبارة عن حكومات خيالية او بقايا دولٍ من سالف الامد وقد اخنى عليها الذي اخنى على لبد وغادرها فرائس لكل فاتح جديد او حجر عثرة في تقدم الانسان وخطراً على السلم العام.

وأصوب رأي يعوَّل عليه الآن في تنظيم الحكومات الحاضرة هو جمع القوة بواسطة المزج والتأليف بين العناصر المختلفة. فافضل وسيلة لدرء الخراب عن حكومتنا تجديد نظامها على اساسٍ متين يجمع العناصر المتفرقة بلا تمييز في الجنس او المذهب. ويربطها كلها برباط المساواة. ومعلوم ان هذا المبدأ يقضي بترشيح رعايانا المسيحيين للوظائف العمومية وفي هذا ما فيه من الصعوبة لانهم اذا فتح لهم هذا الباب الذي كان مغلقاً في

وجوههم اندفعوا منه بملء العزم والحمية وحاولوا سبق الذين تقدموهم من قبل. وهذا الطموح ابداه الارمن على الخصوص فمن الحكمة ان نتداركه بما يجعل الباب مفتوحاً فقط للرجال الامناء الذين يقبلون مبدأ وحدة السلطنة ويعملون بموجبه.

ان ديانة رعايانا المسيحيين مؤسسة في الغالب على مبدأين احدهما ادبي والآخر سياسي. وعلى حكومتنا ان تغض النظر عن مبدأهم الادبي وتتجاهله على الاطلاق وتوجه عنايتها الى مراقبة مبدأهم السياسي بعين الحذر والانتباه فلا نبال بكيفية عبادة احد رجال حكومتنا لله سواءٌ عبدهُ حسب ناموس موسى او بموجب شريعة عيسى اذ ليس في ذلك ما يقضي بحرماننا الانتفاع بخدمته. ولكننا اذا وجدناه لا يسعى لوحدة السلطنة وعلمنا انه يعلل نفسه بانشاء امبراطورية بيزنطية ثانية او يخدم مصلحة دولة اجنبية وجب علينا عزله حالاً لانه خائن للدولة والامة.

ووحدة الحكومة والبلاد قائمة على اساس المساواة. والمساواة هي القاعدة الوحيدة التي اطلب من كل موظف عمومي ان يجري عليها. وعلى جلالتكم ان تسعوا اولاً في توطيد اركان العدل حتى تظهروا عظم اهمية هذه القاعدة المفيدة. ولا اجهل ان هذا السعي وعث المسلك صعب المراس ولكن لا بد منه ولا غنى عنه. وبعدما تضمنون لرعايانا سلامة حياتهم واموالهم يجب عليكم ان تهتموا بانشاء السكك. وحينما يصير عندنا من سكك الحديد قدر ما عند الدول الاوروبية تكون دولتنا اول دولة في العالم. وهنا مسألة لا يجوز الاغضاء عنها لانها شديدة الاهمية اعني مسألة المعارف العمومية التي هي اساس كل ترق عمومي وبغيرها لا يرجى الحصول على عظمة ادبية او مادية. وهي تشمل الجيش والبحرية والادارة والا فلا قوَّة لنا ولا استقلال ولا حكومة ولا مستقبل. ان التعليم في بلادنا لم يزل منحطاً لاسباب مختلفة مع ان روح ديانتنا يأمر بترقيته وتعميمه ومدارسنا الكثيرة التي استغرقت نفقات باهظة اعدَّت لنا مع قلة فائدتها اهم مبادىء التعليم العمومي ولم اتمكن من انفاذ هذا المشروع لاني كنت على الدوام مشغولاً عنه بالمشاكل الخارجية. فاتركه لخلفائي واؤكد لهم انه اعظم المشروعات اهمية وفائدة. وليس بخافٍ عليَّ ان بعض المسلمين سيكفرونني ويعدونني عدو الدين ولكنني اعفو عنهم لعلمي انهم لا يفهمون كلامي ولا يدركون افكاري. وسيأتي يوم يتحققون فيه اني انا المصلح الكافر كنت اصدق عقيدة واصحَّ اسلاماً من كل اولئك الاغرار الذين صبوا عليَّ جام اللعنات وصوبوا اليَّ سهام الاهانات. سيعلمون ولكن بعد فوات الوقت اني جاهدت اكثر من كل شهيد آخر في سبيل حكومتهم وديانتهم اللتين عرضوهما للسقوط والانحطاط. ان الناموس الاول لكل نظام الهيا كان او انسانياً هو ناموس الحفظ الذاتي افلم يكن حفظ الاسلام غرضي الوحيد من كل اصلاح ابتغيته. ولم اتذرع الى ذلك بالتعصب الاعمى والتحزب الباطل بل بالطرق التي وضعها اله الاسلام امامنا كما وضعها امام كل امة اخرى في العالم.

ان يدي الضعيفة المضطربة لم تعد قادرة على الكتابة فاقف عند هذا الحد والتمس

في الختام من جلالتكم ان توجهوا التفاتكم الى الكلمات الاخيرة التي فاه بها هذا الخادم المنكود الحظ الذي كان بالرغم عن كل ضعف بشري محبّاً لبني جنسه وباذلاً اقصى جهده في ما يعود عليهم بالنفع والآن يفارق العالم غير آسف عليه ويموت مسملاً عانياً لاحكام القدر ومسلماً نفسه للديان العظيم الرحمن الرحيم.

فؤاد

● (المقتطف، ج ٢٨، مارس (اذار) ١٩٠٣، ص ٢٢٤ - ٢٣٠).

كتاب مفتوح إلى والي بيروت: ١٩٠٣

الى عطوفتلو رشيد بك والي بيروت قبلاً ووالي بروصه الآن•

هي قصة صغيرة نرجو من عطوفتكم ان تسمحوا لهذه المجلة ان تقصلها عليكم. وهي مضطرة الى ذلك بسبب وظيفتها الاولى التي كانت لها.

فانكم تعلمون يا صاحب العطوفة ان هذه المجلة كانت تُدعى «الجامعة العثمانية» ونذكر انها صدرت وعطوفتكم في بيروت. وقد صرفت همها منذ نشأتها للدعوة الى ما فيه التوفيق بين العناصر العثمانية المختلفة. وذلك لسببين: **الاول**، ان اخلاق صاحبها تكره الشقاق والنزاع. وهو يفضل ان يكون بين الاحزاب تصيبه الصدمات من الجانبين على الانحياز لاحد الفريقين. ذلك لان الانحياز يقتضي التنازل عن الاستقلال الشخصي وطلب الغلبة لا طلب الحقيقة. فقد قال فولتير واصاب في هذه ان من ينشد الحقيقة المجردة لا يمكن ان يكون مع حزب دون حزب لان كلاً من الاحزاب في جانبه شيءٌ من الحق. والعقل يوجب على العاقل الاعتراف بهذا الحق بدل انكاره تأييداً لحقه. **والسبب الثاني**، ان مصلحة الدولة نفسها ومصلحة «كل» العناصر فيها قائمة بالتوفيق والاتحاد والمسالمة.

وقد استمرت «الجامعة العثمانية» في سنتها الاولى على البحث في الاصلاح العثماني وطرقه بكل حرية وهي تدخل مع البريد العثماني مارة على قلم المراقبة دون ان يؤخر جزءٌ منها او تقص صفحة من صفحاتها... فخيبتم بذلك ظن صديق غيور كان يرسل اليها من بيروت مع احد الاصدقاء يقول لها ان تعدل عن الكلام في الاصلاح وذكر الاصلاح لئلا يصيبها اذى. ذلك لانكم فهمتم غرضها وأحسنتم الظن بها.

ولكن من سوء الحظ نُشرت في الجزء التاسع منها مقالة لم ترضوا عنها. فردَّ الينا الجزء المذكور. فحينئذٍ علمنا انكم لا تريدون ان نقول «الحقيقة المجرَّدة» بل ترومون ان ننظر اليها من جانب واحد فقط. وبذلك هدمتم مشروعتنا الاول باشارة واحدة. لان الذمة لا تطاوع على ان نكتم شيئاً ونُظهر شيئاً. وبما اننا كنا نكره القيل والقال عزمنا على العدول عن الخطة السياسية الاولى. فغيَّرنا حجم المجلة وتركنا السياسة جانباً على نية ان نعود اليها يوماً في جريدة سياسية خصوصية. وبدل ان تكون «الجامعة» مقتصرة على الشؤون العثمانية كما كانت، وسَّعت حينئذٍ فضاء هاو مدَّت حدودها وصارت «الجامعة» الشرقية.

• مجلة الجامعة، سنة ٤ (١٩٠٣)، ص ٢٣٢ - ٣٣٩

ولم نذكر هنا ياصاحب العطوفة هذه الاخبار التافهة لابراز السبب الذي من اجله عدلت الجامعة عن خطتها السياسية الاولى. كلا. وانما ذكرنا ذلك لحدوث حادث كبير فرط عقد الجامعة العثمانية التي انشئت هذه المجلة اولاً للدفاع عنها. وعلى ذلك يجب علينا ان تقول الآن كلمة فيها. والا فسكوتها في حال كهذه الحال يعدُّ بمنزلة تهكم جارح لها وللمبادىء التي دافعت من قبل عنها.

ونظنكم قد علمتم اننا لا نريد بالقصة المذكورة سوى «حادثة بيروت المشهورة». ولا تخافوا فاننا لا نكبرها. ولكننا ايضاً لا نصغرها. وقد مضى عليها الآن من الوقت ما كسر الحدَّة في الجانبين فصار يمكن الكلام فيها بعقل واعتدال لوجود من يسمع هذا الكلام بعد ذهاب سورة الغضب والجنون.

ثم اننا لا نقصد بهذا الكتاب القاء تبعة الفتنة عليكم او على غيركم فان هذا الامر من شؤون مجالس التحقيق. وانما الغرض استخراج النتائج من هذه الحادثة لنرى هل جاءت منطبقة على مصلحة احد من الفريقين او على مصلحة السياسة التي كان والي بيروت السابق اميناً عليها.

فعطوفة والي بيروت السابق كان بينه وبين دولة مظفر باشا حاكم جبل لبنان شيءٌ من النفور. وذلك لسببين: **السبب الاول**، رغبة والي بيروت السابق في خدمة السياسة العثمانية من جهة لبنان. وكانت سياسته في هذا الامر موجهة الى مقاومة استقلال لبنان بقدر الامكان لاظهار عجز الشرقيين عن حكم انفسهم بانفسهم وهدم هذه المنطقة المستقلة التي وضعتها الدول هناك كوباءٍ يخشى ان تسري عدواه. ولذلك لم يكن والي بيروت السابق يقاوم ذات المتصرف بل ذات حكومته. والدليل على ذلك ان والي بيروت السابق كان يقاوم نعوم باشا كما كان يقاوم مظفر باشا. وقد شاهدنا بعيني رأسنا رسائل مهمة ضد متصرفية الجبل في عهد نعوم باشا واردة من بعض المراسلين المسيحيين في بيروت وفيها ان والي بيروت السابق يريد نشرها دون حذف شيء منها. ـ هذا هو السبب الاول في استيائكم من مظفر باشا والي تبنان. واما **السبب الثاني**، فهو ان مظفر باشا كتب ضدكم الى الاستانة وقال فيكم ما قاله. فاستأتم من ذلك ورمتم الاخذ بالثأر منه: قال المخبر البيروتي الثقة وهذا كان اصل البلاء بقطع النظر عن وصول الاسطول الاميركي.

ذلك انكم كنتم تريدون كما قالوا ان يفرَّ بعض من الاشقياء الى لبنان لكي تشكوا دولة مظفر باشا الى الاستانة بانه يشجع الاشقياء الذين يعيثون بالامن العام ويحميهم في بلاده. وفي الحقيقة ان هذا كان اشد انتقام منه لعلمكم ان جلالة السلطان يبذل ما عزَّ وهان لحفظ الامن في مدينة كمدينة بيروت في أحوال كهذه الاحوال. ولكن الضربة جاءت اكبر بكثير مما كنتم تظنون. فانكم بعثتم رجال البوليس لنزع السلاح من المزرعة والقبض على بعض المعتدين ثم ذهبتم الى مصيفكم في عاليه. ولكن ما لنا ولهذه

التفاصيل المحزنة فلنضرب صفحاً عنها. ولننظر الى نتيجتها. ان نتيجتها لم تكن فرار خمسة او عشرة اشقياء الى لبنان لاتهام حاكم لبنان بحمايتهم بل كانت نتيجتها فرار عشرات الوف من «العثمانيين» الى لبنان. وانظروا ذلك التهكم الغريب الذي جاءت به تصاريف الاقدار: ان مظفر باشا الذي رمتم نكايتهُ كلف من قبل الدولة بالنزول الى بيروت لمساعدة دولة الناظم الهمام على اصلاح الفساد.

فمن ذلك يظهر ان نتيجة الحادثة جاءت مخالفة لمقصد والي بيروت السابق ولسياسته الشخصية كلّ المخالفة. فبدل ان يخرج له منها ما يرضي جاءه منها ما يسخط لانها أحلت سلطة خصمه - بل خصميه اي الناظم والمظفر - محلّ سلطته. ولكن فلنبحث. اذا لم يكن في تلك النتيجة نفع لسياسته الشخصية، أفما كان فيها نفع لسياسته العمومية من جهة لبنان؟.

واأسفاه، مسعاه حبط هنا كما حبط هناك ايضاً. ولم يحبط فقط بل انه ادى الى نتيجة معاكسة للنتيجة التي كان يطلبها. فان الحادثة المعلومة جعلت لبنان للفريق اللاجىء اليه بمنزلة حصن الا من الذي تحقن فيه الدماء. فلم يعد اللبنانيون وحدهم يتمسكون بامتيازاتهم فيه بل ان جيرانهم في كل الثغور صاروا اشد حرصاً عليها منهم لاشتراك منافعها بينهم. فكأن والي بيروت السابق قوّى امتيازات لبنان وزاد الناس تمسكاً بها بدل اضعافها. وحسبه ان يرى الآن تنبه العواطف القديمة في لبنان ليعلم سوء سياسته من نحوه.

فهذه الحادثة يا صاحب العطوفة لم تنفع والي بيروت السابق شخصياً ولا نفعت سياسته العمومية. بقي علينا الآن ان ننظر الى المضرة التي نشأت عنها.

ولسنا نقصد هنا بالمضرّة ما نزل في بيروت من الخراب المالي والتجاري. كلا، فان هذا عارض والعارض يزول. وانما نقصد بالمضرة تضعضع عاطفة كانت آخذة في النمو. وفي نموها مصلحة الدولة بلا مراء. واليكم البيان:

تعلمون يا صاحب العطوفة ان ساسة الدولة العثمانية الاعلام مثل عالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا كانت سياستهم مع المسيحيين في البلاد العثمانية تدور على محورين: **الاول**، استمالة رؤساء المذاهب المسيحية اليهم منعاً لمداخلات اوربا بينهم وبينهم **والثاني**، بذل الجهد لفصل الرعايا المسيحيين «سياسياً» عن رؤساء مذاهبهم الدينية اذا لم يمكنهم استمالة هؤلاء الرؤساء. وكانت طريقتهم الى ذلك تدل على ثاقب فكرهم وواسع نظرهم واصابتهم الدواء اللازم وصفه للداء. فانهم وضعوا هذا المبدأ:

ان الدين علاقة خصوصية بين المخلوق والخالق. فالمسيحي حرٌ في ان يعبد الله كما يشاء. وليس من حق الدولة ان تتداخل في شيء من ذلك. ولكن اتخاذ الامور الدينية سبيلاً الى الامور السياسية في الدولة امر يوجب على الدولة المداخلة. ولكي تمكنها هذه المداخلة يجب عليها الاهتمام باقامة العدل على السواء بين الجميع ومعاملتهم سراً وجهراً

معاملة الاخوة الحقيقيين. فبهذه الطريقة ينفصل نبهاء المسيحيين شيئاً فشيئاً عن الاحزاب الدينية السياسية القديمة فيكونون اعواناً لنا. وبذلك تسقط عنهم وعنا السلطات السياسية الدينية.

ونحن نخبر عطوفتكم يا صاحب العطوفة ان ذلك الحزب الجديد او النبت الجديد كان قد أخذ يتكاثر وينمو في بلاد الدولة. والداعي لكم كاتب هذا الكتاب يقسم لكم بكل ما هو مقدس انه يعرف كثيرين منه. فإن سياسة جلالة السلطان السلمية من جهة واهتمام اكثر رجال الدين بأنفسهم قبل الاهتمام برعيتهم من جهة اخرى وظهور انانية اوروبا لمسيحيي الشرق ظهوراً رفع الحجاب عن عيونهم من جهة ثالثة ـ كل ذلك صار يربي في ظلال الراية العثمانية نابتة جديدة لا مطمع لها في غير العدل الحقيقي والمساواة الحقيقية لتكون مخلصة الى اقصى درجات الاخلاص. وقد اشتغل كثيرون من الكتاب والخطباء في مساعدتها على ذلك اذ فيه مصلحتها ومصلحة دولتها معاً.

فبينما نحن في ذلك واذا بحادثة بيروت تهدم مبدأ عالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا. اي تهدم البناء الذي بناه العقلاء في النفوس منذ ٢٥ عاماً. فماذا جرى حينئذ؟ ان رجال المذاهب والاديان صار لهم في هذه الحادثة الاهمية الاولى واليد الطولى. والناس الذين كانوا ينتقدون رجال الدين لانهم لا يقومون بواجباتهم خرست ألسنتهم واختبأوا في الزوايا لعلمهم انه لم يبق الآن احد يسمع لهم. وكيف يسمع الناس عذلاً وانتقاداً في من يصونون حياتهم ويسدون جوعهم. بل هنالك امر اعظم. اننا نعرف صديقاً في الاسكندرية مستاءً من مطران في بيروت. وكان لا يطيق ان يسمع بذكره لاعتباره ان اساء اليه في مسألة مهمة وان كان سيادة المطران يجهل تلك الاساءة او لم يتعمدها. فلما حدثت حادثة بيروت وسمع عن المطران ما سمع صار يضحك ويسر لذكره. وقد اتفق مع احد اصدقائه وارسل اليه ٢٠ جنيهاً لينفقها على المحتاجين.

ونظراً لما نعلمه من ان هذا الكتاب لا يطلع عليه احد غير عطوفتكم نخبركم خبراً عن الجامعة نفسها من هذا القبيل فإن «الجامعة» نشرت في جزئها الخامس رواية عنوانها «الوحش الوحش الوحش او سياحة في ارز لبنان» وفي هذه الرواية فصل طويل بشأن الديور والرهبان. وقد جاء في هذا الفصل ان الديور لا نفع منها اليوم للنار اذا لم تغير خطتها. فلما حدثت حادثة بيروت تألمنا وأخرنا ارسال الرواية الى لبنان. لانها لو وصلت في ابان الحادثة لقوبلت بالسخط والضحك. وربما لا تعدم هنالك راهباً متحمساً يقف ويقول: «نفع الديور في هذا الزمان ظاهر للعيان. فانها تفتح ابوابها لالوف اللاجئين من بيوت فتؤاويهم وتغذيهم وتسكن قلوبهم» وهكذا يا صاحب العطوفة يضطر حزبكم ان يسكت. ونريد هنا بحزبكم حزب فؤاد باشا وعالي باشا اي الحزب المسيحي الذي يروم الانفصال عن الامور الدينية السياسية انفصالاً قطعياً للانضمام الى جامعة عثمانية مبنية على الاخاء والمساواة المطلقة والحرية.

هذه هي المضرة الكبرى التي حدثت بسبب تلك الحادثة. وقد ذكرناها لكم بكل حرية دون رياء ولا تصنع. ولا ريب عندنا ان الدولة تستاء من هذه النتيجة اشدَّ استياء لانها مناقضة للباب في سياستها ومصلحتها. ولكن مَن المسؤول عن ذلك يا ترى؟ هنا نراكم تفكرون ملياً ثم توعزون الى سكرتيركم ان يجاوْب عنكم فيجاوب بهذا الجواب الطويل:

«هل تظنون ان الوالي ملاك هابط من السماء؟ ان الوالي بشر كباقي البشر. فحين يولىَّ مدينة زاهرة كبيروت يخيل له انه ملك في مملكة. فالعناصر المختلفة تزحف لاجلاله وتكريمه. واكثر اغنيائها لا يذخرون وسعاً في استمالته. فاليوم يقيمون له المآدب. وغداً يقدمون له الهدايا. وبعد غدٍ يدعونه الى المراقص. واحياناً يرقص ابنه في هذه المراقص مع سيدة جميلة وبعد الرقص تعرق السيدة من التعب فتمسح بمنديل الوالي عرقها عن وجهها وعن الديكولته. نعم، ان حرمه حينما يدرين بذلك يسخطن منه ولكن رضى السيدات قريب كسخطهن وهكذا لا يرى الوالي من نصارى بيروت غير الجوانب الدنيوية المزخرفة ولا يصادف امامه من رجالهم الا طلاب الوظائف والاغراض. فيخيَّل له ان جميع نصارى بيروت على هذه الشاكلة. فيطمع فيهم ويستخف بهم. وكم من والٍ يتهيب بيروت في الاسبوع الاول من ولايته ثم يستخف بها منذ الاسبوع الثاني. ولذلك قال بعض ولاة الديار الشاميَّة يعني جميع اهل الشام: نحن لا نستخف بهم بل هم يحنون لنا ظهورهم ويقولون اصعدوا واركبوا. فأين هذه الشهادة من شهادة معاوية بصلابة اهل الشام وحرصهم على حقوقهم. ومن جهة اخرى فان لبيروت داءً غير هذا الداءِ وهو دسائس الاجانب. وهنا تنفس سكرتيركم الصعداء وقال: انني اترك الدسائس السياسية جانباً وأنظر الى ما هو أهمُّ منها واريد به دسائس بعض تراجمة القنصليات في بيروت. فان بعضهم يتخذ السلطة القنصليَّة آلة يمتص بها منافع لنفسه ويدوس كل نظام وكل حق للوصول الى اغراضه. وقد كثرت هذه الشكوى حتى صار الناس يتمنون ان تجعل بعض الدول تراجمة قنصلياتها في بيروت اناساً من ابنائها ممن يحسنون اللغة العربية. فلماذا تلومون الوالي وحده مع ان له شركاء في المسؤولية. ان الوالي ضيف. وهو اليوم هنا وغداً هناك. اما اولئك فهم ابناء البلد ولذلك يكونون احق باللوم منه متى سهلوا العبث بمصالح بلدهم وقومهم خدمة لمصلحتهم الخصوصية. ولكن كل ذلك لا يذكر بالنسبة الى الداء المهم وهو وجوب توحيد التربية والوجهة بين العثمانيين كما تصنع فرنسا اليوم في بلادها لقطع كل مداخلة اجنبية في داخليتها بواسطة رعيتها. وبدون ذلك لا تقدم ولا راحة».

فهنا نقطع كلام سكرتيركم يا صاحب العطوفة لنستحسن كل الاستحسان ما ذكره عن توحيد التربية العثمانية ونجيبه عليه: اولاً: - نعم، نعم يجب توحيد هذه التربية. نعم، نعم يجب ان نتشبه بفرنسا وذلك بان نمنع ان يكون في قلب الامة امتان وشعبان. ولكن هل يعلم طالبو هذا الامر الهام الذين كثروا في سوريا ومصر على

الاخص اي شيء يقتضي؟ انه يقتضي قبل كل شيء وضع الدين جانباً. اي ان كل مدارس الدولة التي يدرس فيها الفريقان درساً واحداً ويتلقنان فيها مبادىء متشابهة يجب ان تكون كالمدارس الفرنسوية معزولة عن الدين عزلاً قطعياً. فالطلبة من اي مذهب كانوا لا يدرسون فيها غير الدروس العلمية والادبية واما الدروس الدينية والمبادىء الدينية فتدرَّس في المعابد والمنازل. ويوم تعزم الدولة على توحيد التعليم في الامة العثمانية بناء على هذا المبدأ مقروناً بالعدل المطلق والمساواة المطلقة قولاً وفعلاً فانها تجد من ابنائها المسيحيين اناساً يبذلون كل ما عزَّ وهان في سبيل تأييدها. ولكن بغير هذا المبدأ ليس تحت قبة السماء قوة قادرة على توحيد مبدأ الامة العثمانية.

وا اسفاه هنا مصدر دائنا. ولا نعلم متى يمن الله علينا بالدواء الذي لا دواء سواه دون مداخلة من الاجانب في شؤوننا. وعلى ذلك فكل ما ذُكر غير هذا انما هو فرع عنه وتابع له.

ولكننا لا نجهل هنا الاعتراض القوي الذي يُعترض به على هذا القول. وهو هذا. كيف تترك السياسة الدينية ما دامت اوروبا نفسها تستعملها في الشرق كآلة سياسية. وا اسفاه. وهنا اوروبا تقول ايضاً: كيف اترك السياسة الدينية في الشرق ما دامت الدولة تجعلها محورها السياسي وقاعدتها الاولى فتبقى الضغائن الدينية فيه قائمة قاعدة في املاكي واملاكها كدرع للمصالح المادية الخصوصية يمنع الاتفاق النهائي الصحيح. وبناء على ذلك تبقى هذه متعللة بتلك وتلك بهذه الى ما شاء الله. والرعية - مسملين ومسيحيين - بين الجانبين تستغيث بالله من الناس وتقف حيرى في ساحة الارتقاء بينما جميع الامم يزحفون يتقدمون.

هذا يا صاحب العطوفة ما اردنا رفعه الى مسامعكم الكريمة بعد الحادثة المشؤومة. ومنه يظهر ان والي بيروت السابق قد اخطأ الى الدولة خطأً شديداً بتمهيده السبيل لذينك الامرين: **الاول**، زيادة الميل والتعصب في سوريا ولبنان لامتيازات لبنان **والثاني**، جعل السلطة الدينية في سوريا او بالحري في بيروت السند الوحيد للرعية المسيحية، وبذلك قوي نفوذ هذه السلطة بعد ضعفه وخرس المقاومون لها لانكم سددتم افواههم بالحجارة. فأين عيون فؤاد باشا وعالي باشا تنظر هذا الامر وتندب انهدام ما تعب العاملون سنوات عديدة في بنائه. ولا ريب عندنا بعد هذا الانهدام انكم تشاركوننا في الاسف لحصول ذلك على يد والي بيروت السابق. واذا لقيتموه يوماً فتفضلوا بابلاغه هذا الاسف والسلام.

«الجامعة العثمانية القديمة» [فرح انطون]

«حاشية» ـ بعد كتابة ما تقدّم دخل علينا احد قراء الجامعة وقال انه كان يطالع في هذا الصباح مقالة «ثلاث دول» المنشورة في الجزء الاول من هذه السنة. قال «فوصلت الى وقوع المعتمد بن عباد امير اشبيلية العربي بين نارين: نار الافرنج في الاندلس لطلبهم ملكه ونار المغاربة في افريقيا لطمعهم فيه ايضاً. فاستنجد بالمغاربة على الافرنج قائلاً: ولئن يرعى اولادنا جماله احبُّ الينا من ان يرعوا خنازير الافرنج» فجاء امير المغاربة يوسف بن تاشفين بجنده فردوا الافرنج ولكنهم استولوا على اشبيلية واسروا ملكها المعتمد بن عباد. ثم جاء بعدهم الموحدون فاسقطوهم وحلوا محلهم. وبقي النزاع في الاندلس قائماً قاعداً بين العرب والمغاربة وقبائلهم بعضها مع بعض فاشتغلوا به عن حفظ انفسهم وتقويتها بينما كان خصومهم الافرنج يقوون انفسهم بالاتحاد تحت رايات دولهم. بل بلغ الحمق من تلك السياسة ان استنجدت دولة المرابطين بجيش من الافرنج على دولة الموحدين فلما فتح هؤلاء مراكش وجدوا فيها جيشاً افرنجياً (ابن الاثير). قال المحدث فلما وصلت الى هنا رأيت ان هذه الحادثة تنطبق كل الانطباق على حادثة بيروت. فإن اهل المزرعة المعتمد ابن عبادو وأهل البسطة يوسف بن تاشفين وجنده. والافرنج ما زالو افرنج. فهل يريد المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ان يشتغلا في بيروت مرة اخرى للافرنج كما اشتغلا لهم من قبل في الاندلس فصارت تلك البلاد كلها لهم».

قلنا سنوصل رأيك هذا الى عطوفة والي بيروت السابق ايضاً.

المحتويات

الصفحة

كتابـات لبنانيّـة

دار النعمة للطباعة
الرملة البيضاء - شارع اديسون
تلفون : ٨٠٢٢٤٦ - بيروت، لبنان

كتابات سياسيّة واصلاحيّة

الدكتور شبلي شميّل

يضمّ هذا الكتاب مجموعة مختارة من كتابات الدكتور شبلي شميّل ومقالاته التي يبسط فيها آراءه السياسيّة والاصلاحيّة على امتداد عقود من السنين؛ وعبّر من خلالها عن جرأة متناهية في اتخاذ المواقف ومخاطبة ذوي الشأن، والمجاهرة بالدعوة إلى الاصلاح واليقظة ونبذ التعصّب لمواكبة ركب التقدّم واللحاق بمسيرة التحرّر والعمران، دفاعاً عن تطور الهيئة الاجتماعية وحرصاً على تطهيرها من الشوائب والمعيقات البالية.

ومن أبرز المقالات التي تشملها هذه المختارات:

- شكوى وآمال (١٨٨٦)
- انحطاط الشرق الأدبي والعقلي (١٨٩٨)
- عبدالحميد في نظر الطبّ (١٩٠٩)
- رسالة إلى جمعية الاتحاد السوري (١٩٠٩)
- نظرة في أحوالنا (١٩١٢)
- سوريا ومستقبلها (١٩١٥)
- آراء في اصلاح جبل لبنان (١٩٠٩ ـ ١٩١٤)